

لُؤْلُؤٌ وَحَصَى

فَيْضٌ مِّمَّا كَانَ !

و.عبد العزيز بن عبد الرحمن الشنينة

٢ شركة العبيكان للتعليم، 1446هـ

الثنيان، عبدالعزيز بن عبدالرحمن
لؤلؤ وحصى. / عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان - الرياض، 1446هـ
452 ص؛ 16.5 × 24 سم
ردمك: 978-603-509-584-6

1. المذكرات

ديوي 818.03 رقم الايداع 1446 / 18518

الورق وسماكته: كوشيه 80 غ
غلاف الكتاب: كرتوني / 4 لون
ألوان الداخلي: ملون
مكان النشر: المملكة العربية السعودية، الرياض.
الفئة العمرية: الجميع.
الطباعة في: شركة العبيكان للطباعة.

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

1447 هـ / 2026 م

العبيكان
Obaikan

نشر وتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: 966 + 11 4808654، فاكس: 966 + 11 4808095، ص.ب: 67622 الرياض 11517

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.



المحتويات

١١	١ . استهلال
١٥	٢ . المقدمة
٢٣	٣ . ثلاثة بيوت !
٢٧	٤ . يا طارق الباب !
٣٣	٥ . الفراق
٣٥	٦ . خالي والسارق
٣٧	٧ . حياة أهل ذلك الزمان
٤٠	٨ . مرابع الطفولة
٤٥	٩ . يوم العروبة !
٤٧	١٠ . أخي الأكبر
٤٩	١١ . الحارس الأعمى والبنات
٥١	١٢ . بين زمن وزمن
٥٣	١٣ . قصّة الجَحش
٥٧	١٤ . الكتّاب والأعشى والقبلي
٦٢	١٥ . دروس المسجد القبلي

١٦. تجربة الألم الأولى ٦٥
١٧. حكايةُ قَدَمي ٦٧
١٨. أنا والطبُّ الشعبي ٧٢
١٩. ردّاسة ٧٥
٢٠. لسعات النار الأولى ٧٨
٢١. الكيُّ الغائرُ الثاني! ٨١
٢٢. في مكة المكرمة لأول مرة ٨٧
٢٣. عودة الألم ٩١
٢٤. تربيةُ اللَّطيم ٩٩
٢٥. تعلّمتُ من والدي ١١٠
٢٦. الجفْرة ١١٣
٢٧. والدي وحديثُ الذكريات ١١٧
٢٨. عمّي ومأساةُ العراق ١٢٥
٢٩. بيتنا الأول ١٢٩
٣٠. أوّل سيارة ١٣٤
٣١. ولّدُ المُخبأ ١٣٥
٣٢. الجطلاء والرافعي ١٣٧
٣٣. عنتره وعبلة ١٤٧

١٥٥	٣٤. أساتذتي في الجامعة
١٦٧	٣٥. أوّل إطلالةٍ لعقلي
١٧٧	٣٦. زواجي
١٧٩	٣٧. وداع الصغيرة
١٨٤	٣٨. قصّة من التراث
١٨٧	٣٩. ما اسم أمّك؟
١٩٣	٤٠. الماجستير والكتوراه
١٩٩	٤١. بين القطاعين
٢٠٣	٤٢. الاستقبال والميدان!
٢١٣	٤٣. دموعٌ على عتبة المدرسة
٢١٩	٤٤. الأعمال الخفية
٢٢٧	٤٥. ذاكرة الوزير الخويطر
٢٣٠	٤٦. من دروس الملك فيصل
٢٣١	٤٧. أرض الجامعة
٢٣٣	٤٨. نقطة
٢٣٧	٤٩. مُعاضدة لا مُعارضة
٢٤١	٥٠. سياحة العقل
٢٥٣	٥١. القرابة والقربة

٥٢. ذيب... والواسطة ٢٦٥
٥٣. بداية ثروتي ٢٧٢
٥٤. الشَّيَّان أم العبيكان؟! ٢٧٧
٥٥. معرِفَةُ الملك! ٢٨٥
٥٦. وليُّ العهد ٢٩٩
٥٧. حديثٌ مع المَلِكَيْن ٣٠٥
٥٨. الملك فهد ٣٠٥
٥٩. ذكريات مع الملك عبدالله ٣٠٩
٦٠. جلسةٌ مع النائب الثاني ٣١٧
٦١. لقائي بسموّه ٣٢١
٦٢. ثقافةٌ أمير ٣٢٥
٦٣. الأسفار ٣٣٣
٦٤. «أولى الرحلات: إلى الكويت والعراق» ٣٣٥
٦٥. «الثانية: حمير الطريق في تبوك» ٣٣٧
٦٦. «درسٌ في عَمَّان» ٣٣٩
٦٧. «لقاء في مدريد» ٣٤٠
٦٨. «طهران وفضول المعرفة» ٣٤١
٦٩. بئر «إمام الزمان» ٣٤٣

٧٠. «حين تُربّي الخرافة» ٣٤٥
٧١. «تأملات الختام» ٣٤٧
٧٢. أشيعي أنت أم سُني؟ ٣٤٩
٧٣. صلاةُ العصر ٣٥٧
٧٤. افتح الشباك ٣٦١
٧٥. قصة جامعة ٣٦٩
٧٦. مؤسسة الأسرة ٣٧٥
٧٧. منحة هارفارد ٣٨٣
٧٨. وفي قُـم كتبنا الفكرة! ٣٨٩
٧٩. جامعة إفريقيا ٣٩٥
٨٠. كيّا والعناية الربّانية ٤٠١
٨١. أميرُ كانو النيجيري ٤٠٥
٨٢. سائقُ الأجرة المكي ٤٠٩
٨٣. تجربة حسيب الله الأفغاني ٤١٣
٨٤. إمامُ الفجر... يومٌ لا يُنسى! ٤١٥
٨٥. جماعةُ المسجد ٤٢١
٨٦. الأفعى والنجاة ٤٢٧
٨٧. جيران الفجر ٤٢٨

٨٨. المحمدية... وجيرة الصالحين ٤٢٩
٨٩. رجع الصّدى ٤٣١
٩٠. « في المسجد النبوي » ٤٣٢
٩١. « د. الربيش وكتابه المواقف الإيجابية » ٤٣٤
٩٢. « أبلغ ما مرّ بي من صدى » ٤٣٨
٩٣. « العميد (خ)... والوفاء الذي لا يشيخ » ٤٤٢
٩٤. الخاتمة ٤٤٩

استهلال

هذا كتابٌ يعرّضُ ذكرياتٍ طواها الزمان وغابت، وقبل الشروع في كتابته دار الحوار التالي مع صديق.

قال صاحبي: وماذا عساكَ أن تقولَ في كتاب الذكريات؟ هل من جديد؟ وهل ثَمَّةُ إضافة؟

قلتُ لذاك الصديق الوفي: السَّيرُ الذاتية تاريخ، وكتابة الأحداث وعرض المواقف ورواية الواقع، كُلُّ تلك مشاهدٌ تُجسِّد التاريخ، وتروي قصة الأُمس.

يا صاحبي، أحسب أن كُلَّ سيرة ذاتية تحوي خبراً، وتتضمن حدثاً، وتعرض حالة المجتمع في زمان تلك السيرة المكتوبة، أرجوك احرص أن تكتبَ أو تُكتبَ لك سيرتُك الذاتية، فحتمًا سيكون فيها جديد.

يا صاحبي: ما لم يكن جديدًا اليوم، قد يكون ثمينًا فيما بعد، والأهم أن الكتابَ قد يُقرأ فيه محمدٌ، أو ينظرُ إليه زيدٌ، أو يرجعُ

له عمرو، فيروُّق لهم، ويترحمون على الكاتب، ويدعون له، وذاك
يكفيني، فكم أنا بحاجةٍ للدعاء في حياتي وبعد مماتي!

يا صاحبي، الكتابُ سراجٌ يبقى ضوءه وإن كان خافتاً!

يا صاحبي، كتابي هذا شمعةٌ أعادتني للماضي أستنطقه وأتحنَّسه،
وكشفتُ بها خطي سبعين سنةٍ مضت من عمري، وانطوت بحلوها
ومُرَّها، وغابت وبقيت ذكرياتها. أسأل الله المغفرة والعفو.

مشيناها خطي كُتِبَتْ علينا ومن كُتِبَتْ عليه خطي مشاها

إي والله، مَنْ كُتِبَتْ عليه خطي مشاها.

ولقد مشيتُ دروباً في صُحبةِ الوالدين رَحِمَهُمَا اللَّهُ وتعلَّمتُ منهما، وكان
لهما الفضلُ بعد الله في تربيّتي وتوجيهي، أسأل الله لهما العفو والمغفرة.
ومشيتُ خطي في التعليم، وتعلَّمتُ من أساتذتي الشيء الكثير،
ومن الوفاء ذِكرُهُم والترحمُ عليهم.

ومشيتُ خطي في وظيفة الدولة، وعرفتُ الناسَ بِحُلُوهِم
ومُرَّهم، ووفائهم ولؤمهم.

ومشيتُ خطي في طلبِ فضلِ الله ورِزْقِهِ، وعرفتُ الخديعةَ،
والصدق، والأمانة، والتحايل.

ومشيتُ خُطَى في العمل الخيري، فعرفتُ أَنَّهُ خيرُ الدُّروب
كُلُّهَا، نُورٌ وَطُمَأْنِينَةٌ.

ومشيتُ، ومشيتُ، وجميعُ تلك الخُطَى تعرضُ الحالة الاجتماعية
للمرحلة التي عشتُها، وكيف كانت حياة جيلنا، وتعرض قصَّة
التَّطور في وطننا الحبيب.

يا صاحبي، هو ذاك ما ستقرؤُهُ في كتابي الذكريات. فأرجوك،
وأرجو من كلِّ قارئٍ ألا ينسى الدعوة لي وله بالمغفرة والعفو. اللهم
إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فاعفُ عَنِّي، وعن والديَّ وأهل بيتي،
وَمَنْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَحَبَبْتَهُ فِيكَ، آمين، آمين.



المقدمة

عنوان هذا الكتاب استعرثه من شيخ المعرّة رهين المحبين أبي
العلاء المعري؛ إذ يقول:

مِن النَّاسِ مَنْ لَفْظُهُ لَوْلُوٌ يُبَادِرُهُ اللَّقْطُ إِذْ يُلْفَظُ
وبعضهم قولُهُ كالحصى يُقَالُ فَيُلْقَى وَلَا يُحْفَظُ

وفي هذا الكتاب قولٌ بعد قول، وحديثٌ إثر حديث؛ حول
مراحل عُمريةٍ مررتُ بها، وأحداثٍ عاصرتها، وقصصٍ كُنْتُ طرفاً
في بعضها، ورواياتٍ عن تاريخٍ شهدتُ فصوله ووقائعه.

هو كتابٌ سيختلف حول مادّته القراء؛ فبعضهم سيرى فيه خليطاً
من لَوْلُوٍ وحجارةٍ، في حين سيراه آخر حجارةً يتجاوزها وينساها،
وقد يقرؤه ثالثٌ فيطربُّ به، ويحسبُ مادّته كُلَّهَا لآلئ، وقد يسرح
فيه رابعٌ فيحتار! لكن يقيني أن المتّقين والمختلفين حول ما يَرِدُ في
الكتاب سوف يتّفقون أنّهم وجدوا فيه شهادةً حول قِصّة التنمية في
وطننا المعطاء، وكيف مرّت مراحل التطور؛ فالمؤلف بدأ الدراسة
بمنفوحة في جنوب الرياض تحت السراج ومروحة الخوص، وأنهى

أطروحة الدكتوراه في صالة مليئة بالكشافات الضوئية، ومُكيّفات مركزية، وشرب المؤلف الماء من بئر وسط بيت أخواله في منفوحة بالمرحلة الابتدائية، ثم وقفَ بعد خمسة وعشرين عامًا في حفل وصول مياه البحر المحلاة للرياض، يلقي كلمة الأهالي أمام الملوك. هي سنواتٌ قصيرة في عُمر الزمن، لكن التغير فيها كان عظيمًا، كأن الزمن اختصر مئة عام في عقدين من السنين، نَعَمْ تتوالى في وطننا المبارك، نسأل الله أن يحفظها، وأن يُجزَلَ الأجر للعاملين المُخلصين. هذا، وقد دَوَّنتُ هذه الخواطر بهذا الكتاب؛ أسوةً بمن سبقوني، بمن كتبوا مذكرات حياتهم، قرأتُ تجارب فريدة، وعرفتُ تاريخًا اجتماعيًا لمراحل زمنية غبرت، فأثريتُ معلوماتي، وأخذتُ العبرة والعظة.

وحين بدأتُ بكتابة هذه الخواطر؛ تذكّرتُ طفولتي، وفتوّتي، وشبابي، وكهولتي، ودَعْتُ تلك المراحل، فكيف مضت تلك السنون، أين عِشتُ؟ وكيف عاش جيلي؟ وهل ثَمَّة أحداثٌ يُمكنُ تدوينها؟ وكيف مرَّ التطور الاجتماعي الذي شهَدْتُ أحداثه، ومدارسي وأساتذتي، ومسيرتي التعليمية، وحياتي في العمل الحكومي والخاص، وأسفاري ورحلاتي، وما علقَ بالذاكرة من صورٍ تستحقُّ التدوين والعرض.

إن محطّات الإنسان في الحياة، وإن كانت ذاتية، لكنها تحكي تطوّر المجتمعات، وتعرض التاريخ والأحداث الجديرة بالتدوين، والتي يرويها شهودها المعاصرون. وتدوينها مرآة عاكسة، يرى فيها المتأخرون تجارب ثريّة، ويجد فيها الباحثون أدلةً تطبيقية، ويلمسون في عددٍ منها دروسًا عملية. ومن تلك المواقف ما هو مُفيد، وفيها الثمين، وبينها المُهم، ومعها شهاداتٌ يجبُ أن تُعرَف، ومواقفٌ حريٌّ أن تُقرأ، قال عنها أبو حيّان التوحّيدي: «تجاربُ الأولين مَرايا للآخرين، كما يُبصرُ فيها ما كان يُتبصّرُ بها فيما سيكون».

ولَيَقِينِي بأهمية تلك التجارب، وضرورة تدوينها؛ أعملت الفكر، وحرّكتُ القلم، لاسيما والنفوس تشّاق للتاريخ ولمعرفة أخبار الآباء والأجداد، وقد أطنبتُ في عرض قصةٍ حقيقيّةٍ عِشْتُها، حَتَمْتُ عَلَيَّ التأخر سنةً أخرى في المرحلة الابتدائية؛ إنها تجربةٌ مررتُ بها، وآلامٌ عانيتُها مع قَدَمِي التي تَحَيَّرُ الأهل والأطباء فيها، حتى قالوا:

الطبيبُ: اقطعوها.

الوالدُ: اتركوها.

الوالدةُ: ارحموها.

رَدَّاسَةُ: هاتوها.

هي حكاية قَدَمي عندما كنتُ في مرحلة الصبا، وكيف كادت تُقطع لولا لُطفُ الله، ثم الطبُّ الشعبي.

إنها حكاياتٌ متعددة مررتُ بها، لكن سيغلب على هذا الكتاب الحديث عن التعليم؛ لأنني منذ الطفولة وأنا مع التعليم؛ مُتعلِّماً، ثم مُعلِّماً، فمسؤولاً من كبار مسؤولي التعليم. وحتى بعد تقاعدي من العمل الرسمي في الدولة، عُدْتُ للتعليم عَبْرَ بوابة القطاع الخاص، ثم تنبَّهْتُ -ويا ليتني تقدَّمت- أن التعليمَ رياضٌ خصبةٌ للعمل الخيري، فبناءُ العقولِ وإنارتها أوقافُ خالدة، إي والله قسَمي، أوقافُ تِلْدُ أوقافاً، وسيُنهي الكتابُ بحياةٍ في التعليم طويلاً ومتنوعة.

وإنَّ التجارب فيها حديثٌ عن الذات، والقول عن الذات بغيضٌ إلى الذات، فقد يكون فيه إطرأٌ للذات، لكن كما قال الكُميت الأسدي:

إِذَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا الْأَسِنَّةُ مَرْكَبًا فَمَا حِيلَةُ الْمُضْطَرِّ إِلَّا رُكُوبُهَا

وأودُّ التنبيه في هذه المقدمة لأمرٍ مُهمٍّ، أشار إليه الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ وفاتني الأخذ برأيه ووصيته المهمة، قال: «الخواطر لا تفتأ تمرُّ على الذهن، كأنها الطيور التي تجوزُ سماءَ العقل، تراها ثم تفتقدُها، فكأنك ما رأيتهَا، فإذا أنت صِدْتَهَا وقَيَّدْتَهَا ملكتها أبداً، ولهذا لو أنَّ كُلَّ عالمٍ، بل لو أنَّ كُلَّ مُتعلِّمٍ قَيَّدَ ما يمرُّ بذهنه

من الخواطر لكان ذلك ثروة له وللناس: يعود هو بعد سنين إلى ما كتب، فيرى فيه تاريخ تفكيره، ويجد فيه ما افتقده من نفسه. والإنسان أبداً في تبدلٍ، يذهب منه شخصٌ ويولد شخصٌ، وحينما تقرأ وأنت شيخٌ خواطرك التي سجّلتها وأنت شابٌ تجد شيئاً غريباً عنك، كأنك ما كنت صاحبه، وكأنه خطرَ على بال غيرك»^(١).

وأقول: أسفي أن هذه النصيحة للشيخ الطنطاوي، قد فاتني الأخذ بها، ويغلبُ على ظني أن كثيرين سيقرونها في كتابي هذا وفي غيره، ولن يأخذوا بها، لكن إذا مضى بهم العمر وتلفّتوا كما تلفّتُ لن يجدوا الطيور تُحلّق، وسيأسفون على ذكريات وخواطر غابت، وودّوا لو دونوها؛ ولهذا: احرص يا أخي ويا بُنيَّ على تدوين خواطرك وذكرياتك أولاً بأول، بخاصةٍ وقد توفّر لك التسجيل وتيسّر بالهاتف الجوّال. هذا وسبق أن عرضتُ جوانبَ من سيرتي وتجاربي في العمل الحكومي في كُتَيِّباتٍ صغيرة هي:

١. بوح الذاكرة ويتضمن وقائع إدارية، وذكريات تربوية.

٢. الكرسي، ويحتوي على مشاهد ومواقف خاصة رأيت تدوينها وعرضها حول تجربتي في التعليم.

(١) مقدمة الشيخ علي الطنطاوي في كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي.

٣. سنوات في مجلس الشورى، ويحكي عن حياتي ثماني سنوات في مجلس الشورى، عرضتُ فيه حكايتي مع المجلس؛ رنين الهاتف، والأعضاء وقدراتهم المتفاوتة، وقصة القسم، وتصفيق الأعضاء، والقصاصات الدائرة، وغيرها.

ثم جاء هذا الكتاب «لؤلؤ وحصى» تكملة لسيرة ذاتيةٍ مررتُ بها منذ مرحلة الطفولة، ورحلتي في طلب العلم، وأساتذتي، وعلاقاتي الاجتماعية، وما رأيته من أحداثٍ رأيتُ أنها جديرةٌ بالتدوين والتوثيق.

وهذه الكتبُ المتنوعة تعرض مسارات مختلفة من حياتي، وأحسب أن هذا المنهج يسمح بالتوسع في عرض التجارب، ويتيح للقارئ اختيار ما يودُّ معرفته في المجال الذي يستهويه، ومن رَغِبَ قراءة كتبٍ مفردة أو مجموعة، أو الحصول عليها مطبوعة، فهي

متيسرة بموقعي الإلكتروني <https://www.thanyan.net>

وأخيراً، فإنَّ ما دَوَّنْتُهُ اجتهادٌ سبق أن قال عنه الأوائل: «ليس كُلُّ قائلٍ يَسْلَمُ، ولا كُلُّ سامعٍ يُنْصَفُ، ولا كُلُّ مُتوسِّطٍ يُصْلَحُ، ولا كُلُّ قادمٍ يُفْسَحُ له في المجلس عند القدوم». وقد قرئ على الإمام

الشافعي كتابه (الرّسالة) للمرّة الثمانين، ووجد فيه ملحوظات،
فقال: هيه! أبى الله إلّا أن يكون الكمال لكتابه العزيز.
هذا وبالله التوفيق.

المؤلف

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن السنيان

الرياض ١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

abdulaziz.alobeikan@gmail.com



ثلاثة بيوت !

هذا الفصل إضاءةٌ حولَ فصول الكتاب القادمة، فبعد أن بدأ القلمُ، يخطُّ مدادَ مادته، استرجعتُ الماضي، فلمعتُ مرآةً عاكسة تعرضُ تجربةَ بيوتٍ ثلاثة، انهالت منها الكلمات التي شكَّلتُ مادة هذا الكتاب، فأنا ولدتُ في بيتٍ لم يكتمل دِفْؤُه، فقد شاء الله وقدر أن ينفصل أبي وأمي رَحِمَهُمَا اللَّهُ وأنا ما زلتُ رضيعًا لا أعرف من الدنيا إلا حليب أُمِّي وابتسامتها. كُنْتُ ذاك الوقت طفلًا، لا يعي معنى الفقد، ولا يدرك أن القدرَ كَتَبَ له أن ينشأ بين حُضنين، بين مدرستين مختلفتين لكنهما عظيمتان: مدرسة أُمِّي وأخوالي، ثم مدرسة أبي وزوجته الكريمة، ثم بعد سنواتٍ من زواجي، جاء البيت الثالث ومعه تربية أولادي.

في بيت أخوالي رَحِمَهُمَا اللَّهُ، تعلمت الطيبة، وأن الصبرَ والوفاء، هو أثمن ما يُورَث. كانت أُمِّي رَحِمَهَا اللَّهُ مدرسةً في الصبر والسماحة، لم تَسْمَحْ لفراقها عن أبي أن يترك في قلبي غِلاً، بل كانت تغرسُ حُبَّ واحترامه في داخلي، لم أسمع منها في يوم من الأيام أَيْةً كلمةً نابيةً تُسيء إلى والدي.

كان بيت أخوالي عالمي الأول، وهناك امتلأ قلبي بالسَّحاحة، وتشبَّعت روحي بدرؤوسِ الرجولة والكرامة. كان أخوالي رجالاً كباراً، يعرفون للكرامة طريقاً، وللوفاء سمّاً، وللرجولة معنى. ومع كل هذا الحب والرعاية الفائقة، كان عليّ أن أعود يوماً إلى بيت أبي، إلى البيت الآخر الذي ينتظرنِي. هناك وجدتُ فيه زوجةً أبي، أُمِّي الثانية دلال بنت شويش رَحِمَهَا اللهُ لم أشعر معها يوماً بالغربة، وإنما وجدتُ المعاملة الكريمة والرفق والإحترام والطَّيِّبَ من القول أجزَلَ اللهُ لها الأجر والمثوبة، وكان بجانبها شقيقتي الكُبرى مُنيرة احتضنتني وأشعرتني بامتداد رائحة أُمِّي اليومية وأنفاسها الدافئة، بَارَكَ اللهُ لها وأجزَلَ اللهُ لها الأجر.

هذا وبين يدي والدي، وفي رحابه كانت تربيةُ الفتوة، كان أبي لطيفاً، فقد والديه صغيراً، لكنه صنع من يُثِمِّهِ عزيمةً لا تنحني. غرس فينا احترام الكبير، والعطف على القريب، وزرع فينا عزة النفس، والاعتماد على الذات، وحرية الاختيار. في مجالسه تعلمنا التجارة، وفنون التعامل، وعلوم الرجال. كانت تلك المجالس العنبرية هي المدرسة التي خرجنا منها رجالاً نعرف قدرَ الحياة، ونمضي فيها بثبات.

ثم بعد زواجي وإنجاب الأولاد، جاء بيتي الثالث بيتي أنا

وزوجتي الحبيبة أم تركي، حيث وجدت نفسي اهتدي بكل ما تعلمته. ربيتُ أبنائي على غرار ماتربيت عليه وتعلمته ؛ صبرٌ وسماحة، احترامٌ وحزم، وتعليمٌ وتشجيع، وتغافلٌ وتغابي.

كُنْتُ لأبنائي أبا وصديقاً، أفتح لهم نوافذ الحوار، وأسعى بهم لدروب الفضيلة، ولو عاد بي الزمن لدَفَعْتُ بهم، حينما كانوا عجينة تشكل في يديّ، لمدارس تحفيظ القرآن الكريم ففي تلك المرحلة العمرية المبكرة تتكون الثروة اللغوية، ويتراكم المخزون البياني ؛ وتنغرسُ القيم القرآنية بكلمات الله الهادية وآيات السماء النيرة، ونعم الثروة والزاد.

إن في داخلي وذهنِي قصّة بيوتٍ ثلاثة ؛ جاءت مادةُ هذا الكتاب وفصولُهُ من ذاكرتها النديّة.



يا طارق الباب!

يا طارق البابِ رِفْقًا حِينَ تَطْرُقُهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَعُدْ فِي الدَّارِ أَصْحَابُ

تذكّرتُ هذا البيت الشعري، بعد أن شرعت في كتابة هذه الصفحات،
فقد أخذتُ أطرُقُ الذاكرة، وأستعيدُ شريط الماضي، وامتطيتُ سيارتي،
ويَمَمْتُ نحو بيت الطفولة وقد بقي هيكله، فوقفتُ ببابه، ودون قصدٍ،
أمسكتُ بمطرقة ذاك الباب الأثري الذي بقي منذ سبعين سنة ونيّفًا لم
يتغير، رأيت تلك المطرقة كما عهدتها؛ قطعة حديدٍ صغيرة نصف دائرية،
أُحْكِمَ ربطها بالباب، فهممتُ بالطرق، وكِدْتُ أسمعُ سَمَارَ البيت وهم
قد رحلوا، حسبت طيفهم باقيًا بتلك الدار يُواسيها ويعمرها، وتخيّلتُ
والدتي وأخوالي رَحِمَهُمُ اللهُ وهم عُمَارُ تلك الدار، وقد رَحَّبوا بي، وفتحوا
الباب، ودخلتُ فسَلَّمْتُ عليهم، واغرو رقت عيناى بالدموع، وانهالت
الحكايات المخزونة بالذاكرة عن الطفولة وتلك المرحلة.

أي نعم، سوف أقصُّ ما استعدته عن الماضي وحكاياته، وكيف
كانت هي حياة اليُسْرِ؟ وسأعرض تاريخ منفوحة الاجتماعي بتلك

ونصَّ هذا التكليف (من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى الكرام، سليمان بن مزروع وعيسى الجريوي وعبدالرحمن بن مزروع وسلطان الزمامي وعمر بن محمود وعبدالعزيز بن سلامة وعبدالله بن سلامة بن مزروع وابراهيم بن سعيد وعبدالله بن سعيد وسعود بن سرحان وابراهيم بن سحيم وعبدالعزيز بن محمود وعلي بن محمود وعبدالعزيز بن محمد وعبدالله بن مزروع وعبدالعزيز بن علي بن حسين سلمهم الله . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الخط المكرم وصل، وما عرفْتوا كان معلوم، من خصوص منه قبل أماره عبدالعزيز بن سليمان بن سيف وإتفاقكم عليه فلا بأس هذا واصلكم له خط يلتزم بأمارته لكم إن شاء الله وقد أوصيناه بما يلزم نرجو الله أن يوفق الجميع للخير، هذا ما يلزم والسلام ١٤ رمضان ١٣٥٥ هـ.

واستمر أميراً لمنفوحة إلى ما بعد وفاة الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ ودُخولها ضمن أحياء مدينة الرياض .

لقد كانت منفوحة عامرة بمساجدها المتعددة، وبينها وبين الرياض فضاءٌ مُوحشٌ، نرعى فيه الأغنام، ونخشى الاقتراب من دارة الأعشى ونحن أطفال. هي حكايات يتناولها هذا الفصل. فقبل سبعين سنة حين بدأتُ أشعرُ بطفولتي، وإن لم أستطع استحضار ذكريات تلك المرحلة، كانت الرياض العاصمة قد بدأت تنفّس

وتتمدد، وباتت مدينة جاذبة، يؤمُّها سُكَّانُ المملكة للرزق والعلم، وكان يفصلها عن بعض القرى والأرياف القريبة منها فضاءاتٌ مُوحشة؛ أصبحت تلك الأماكن فيما بعد من ضمن الرياض اليوم! ولو عُدْتُمَ معي لتلك السنوات المنطوية لأريتكم تلك الفضاءات الفاصلة مدينة الرياض عن منفوحة، وعن الدرعية، وعن عرقة، وعن مزارع صياح، فضاءات يَسْرَحُ فيها الرعاةُ بالأغنام والأبقار، تلك حيوانات الحاضرة موجودة ذلك الزمن في معظم البيوت، في الصباح الباكر يُصَوِّتُ الراعي فيُخْرِجُ الناسَ بهائمهم، وقُبيل غروب الشمس يعودُ الراعي. والعجيب أن كُلَّ دَابَّةٍ تَتَّجِهْ نحو بيت مُلَّاكها، وكأنها على موعد مع وجبةٍ تُسْرَعُ إليها. تعليمٌ وتربيةٌ تعرَّفنا عليها بتلك الصور، لقد رأيت ذاك المشهد بمنفوحة في طفولتي.

وفي تلك الفضاءات القريبة كان السَّمار يَقْضُونَ فيها بعض الليالي؛ استمتاعاً وتزجيةً للوقت، ففي جنوب الرياض كان حيُّ الشِّفا المزدحم اليوم بالسكان، فضاءً خالياً، ومكاناً للسمر الليلي، وفي الشمال كان مقرُّ جامعة الملك سعود -حالياً- فضاءً طالما سمرنا قُرْبَهُ، وصلَّينا المغرب والعشاء وعُدنا، وكأني بلوحاتٍ صغيرة كُتِبَ عليها (أرض الجامعة). وفي شرق الرياض كانت رمالٌ يسيرة شرق الدائري الشرقي مكاناً

للنزهة والتخييم. ولورجعتُ وإياكم لبداية تكوين المملكة لعلمتم أن تلك القرى المفصولة عن مدينة الرياض كانت إمارات مستقلة، وكان بينها وبين الرياض حروب؛ إذ تحاربت الدرعية والرياض سبعا وعشرين سنة، وقُتل في تلك الحروب كما ذكر المؤرخ ابن بشر: أكثر من أربعة آلاف من أهالي الرياض والدرعية. وكان لمنفوحة إمارة مستقلة، وكانت تلك الأماكن عامرة بأهلها، فكانوا يزرعون ويقتاتون من مزارعهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. نحمدُ الله على نعمة الأمن والوحدة، والرخاء الذي شهدنا فيضهُ وتطوّره.

وفي مرحلة فتوّتي، كنت أقطع ذاك الفضاء الموحش بين منفوحة والرياض بصحبة الخال عثمان، إذا تعذّر الحصول على السيارة نَمضي مشياً على الأرجل، وأظن أن ذاك الفراغ يزيد طوله عن عشرة أكيال، وفي وسط الطريق يُوجد المُستراح، وهو حجرٌ منبسطٌ مرفوعٌ فوق عدّة أحجار، يضعُ عليه حاملو الأمتعة ما فوق رؤوسهم من أحمالٍ للراحة. وكانت الكلابُ تنبُح المارّة؛ ولهذا يحمل الناس معهم العصي يهشّون بها ما يعترضهم. ومع تنامي الرياض وتوسّعها، رأينا في المنتصف بين الرياض ومنفوحة بُضعَ بيوتٍ متناثرة يجري بناؤها، وما لبثت أن صارت تُعرَفُ باسم (ظهرة منفوحة)، ثمَّ عرفنا شارع العشرين، وطريق خزان المياه.

إن مرحلة طفولتي وفُتوتِي يصعب استعادة أحداثها، لكن اليقين
 أنني عشتُ قرابةَ أربعة عشر عامًا بداية عُمري في منفوحة، ولئن
 كانت الذاكرة وقَّادةً في بداية التسجيل، فإن مَرَحَ الطفولة يطوي
 رداءَ التركيز، فتغيبُ أحداثٌ مهمةٌ في حياة الإنسان، ويلفُّها النسيان.
 إن المدرسة الأولى هي الأم؛ فبين أحضانها تبدأ المناغاة، وفي حجرها
 تكون الهددة، ومنها يتعلَّم الصغيرُ النطقَ ومعرفة الأسماء، يقول
 أبو العلاء المعرِّي:

أَعْبَدَ اللّٰهَ مَا أَسْدَى جَمِيلاً صَنَعَ جَمِيلَ فِعْلِكَ مِثْلَ أُمِّي
 سَقَتْنِي دَرَّهَا وَدَعَتْ وَبَاتَتْ تُعَوِّدُنِي وَتَقْرَأُ أَوْ تُسَمِّي

إن الذكريات تعودُ بي إلى الوراء البعيد إلى مرحلة الطفولة وما
 بعدها، إلى الأماكن التي عِشتُ فيها والمدارس التي تعلَّمتُ فيها،
 والأساتذة الذين تربَّيتُ على أيديهم.

إنَّ ما بقي في الذاكرة من مواقف وصورٍ تدور كشريطٍ أراه
 ماثلاً أمامي بين الحين والآخر؛ إي والله، شريطٌ يتبدَّى ويمرُّ بصوره
 وأشخاصه ومناسباته.

حين ولادتي لم يكن هناك تسجيلٌ للمواليد، فالأمّهات يلدن في
 بيوتهنَّ؛ لا مستشفيات ولادة، ولا طبَّ نساء كما هو اليوم؛ ولذا فإن

تاريخ ميلادي غيرُ معلوم، ولكن يُمكن تقديره بالتحاقى بالدراسة، فقد بدأت دراستي النظامية عام ١٣٧٦ هـ، وهذا يعني أني مولودٌ قبل هذا التاريخ بستٍّ أو بسبعِ سنوات؛ أي ما بين عامي ١٣٦٩ و ١٣٧٠ هـ.

الفراق

قَدَّرَ اللهُ وشَاءَ أن يفترقَ الوالدان وأنا رضيعٌ ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿[النساء: ١٣٠]﴾. غير أني لم أفقد التَّوَّاصُلَ وَمَشَاعِرَ الحنان في سنواتِ الطُّفُولَةِ المبكِّرَةِ، فالوَالِدُ رَحِمَهُ اللهُ تركَ الوالدة رَحِمَهَا اللهُ وما تختار، وَرَحَلْتُ معها إلى بَيْتِ أُخُوَالِي الوارفِ الظَّلَالِ بِالْحُبِّ وَالسَّكِينَةِ؛ وَكَانَ يَرْقُبُنِي عَنْ بُعْدٍ، وَكُنْتُ أَتَحَسَّسُ مَشَاعِرَهُ الرَّقِيقَةَ نَحْوِي، وَعَظْفُهُ وَحُنُوُّهُ، واحْتِرَامُهُ لِيَوَالِدَتِي رَحِمَهَا اللهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا قَدْ رَحَلَ فِي طَرِيقِهِ. والوالدة وإن كانت مُطَلَّقةً، فقد رَبَّتْ فِيَّ مَحَبَّةَ أَبِي واحْتِرَامَهُ، كانت رزينةً وافرةً العقل، لم يدفعها الفراق أن تحنَّ وتكره. جِلٌّ فريد؛ مودَّةٌ في الاجتماع، واحترامٌ في الفراق.

عادت الوالدة رَحِمَهَا اللهُ سارة بنت إبراهيم السيف إلى بيت طُفُولَتِهَا وفتَوَّتْهَا؛ إلى بيت أُخُوَالِي الأربعة. كانت الأُسْرُ فيما مضى كبيرة؛ يعيش الأبُّ والإخوة وزوجاتهم وأبناؤهم وزوجاتُ أبنائهم في بيتٍ واحد،

كان الوضع الاجتماعي في ذلك الوقت يقتضي ذلك، وكذلك كان أبي وأعمامي الثلاثة يسكنون جميعهم في بيت واحد، وكان الرجل إذا أراد الاستقلال في بيت خاص به يتحرّج؛ إذ يستعيب الأوائل الاستقلال، فيقولون: الاجتماع الأسري عزّة ومنعة، والتفرّق ذلّة وضعف. سمعته يتداولون في مجالسهم، أن وجهًا من وجهاء الرياض ذهب للمفتي ذلك الوقت، الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله وبكى لديه، وتشكى من أن ابنه يُصرّ على الخروج من عنده، وأنه يرغب السكن بزوجه وطفليه في بيت مستقل، وقد زجره الشيخ محمد، وقال له: اتركه وما اختار، ولا تترك عادات غبرّت!

وقد امتد ذاك العُرف إلى ما بعد زواجي، أتذكر أنني بعد أن تزوجت، وددت الاستقلال، ولكن منعتي بادئ الأمر العُرف العائلي. واليوم انتهت تلك البيوت الكبيرة، وصار التحول الاجتماعي، وانطوى ذاك التقليد، وصغرت الأسر، فما أن يتزوج الشاب إلا ويستقل بزوجه في سكن خاص.

وعودةً إلى طفولتي؛ فمنذُ وعيتُ كنت أرى والدتي رحمها الله أمّا لبيت الأحوال، كانت سيّدة البيت، هي الكُبرى في تلك الدار المباركة؛ تأمر وتنهى، تطبخ وتخدم. ولا أنسى جلسات الأحوال اليومية، من بعد منتصف العصر، وبعد صلاة المغرب، يتحلّقون

حول أُمِّي، تُقدِّمُ لهم القهوة والشاي، وأحيانًا الزنجبيل والحليب، وأجلس بجوار والدتي رَحِمَها اللهُ في المقدمة، أستمعُ أحاديثَ سمرهم.

خالي والسارق

إنَّ احترام الصغار، وسماعهم أحاديثَ ذويهم، ومعرفتهم بما يراه كبارهم حسنًا، وما يرونه قبيحًا، له أثرُهُ في التربية الأسرية؛ إذ ما تزال مناقشات أخوالي، ومناكفاتهم المرحَّة تَرُنُّ في أُذني. ذات ليلة كانت أُمَامَهم أطباق رُطَبٍ أحضرها الخال عثمان رَحِمَهُ اللهُ من النخل على عجل، فسألوه كيف استطاع الخراف بهذه السرعة؟ فتبسَّم رَحِمَهُ اللهُ وقال: توجَّهْتُ للقسم الشرقي من المزرعة، وعندما هممتُ بصعود النخلة، وإذ بسارقٍ يخرفُ وقد امتلأ زنبيلُهُ، وارتاع حين رآني، فنزل من النخلة بسرعةٍ وتلعثمَ، فرحمتُهُ، وقلتُ: هوّن عليك، أعطني ما خرفته، واخرف بدلاً منه أُجْرَةً لك، واحذر العودة مرةً أُخرى، فلو رآكَ أخي ناصر أو محمد لأوسعاكَ ضرباً ولكمّا. وهنا صار الحوار الآتي:

الخال محمد: غلطان، كان عليك أن تُمسكَهُ وتُصوِّتَ لناقي لمساعدتك!

الخال ناصر: سيعود مرّاتٍ طالما أن هذا تصرّفُ عثمان!

الخال عبدالرحمن وكان أكبرهم: يتبسّم ويترك التعليق، لكنني

فهمتُ تأييده لتصرف أخيه عثمان.

الوالدة: هل عرفت السروق؟

الخال عثمان: يتبسّم ويردُّ بهدوء: الحرامي غريب، ولم أعرفه. ويغلب على ظني أنّه عرفه، لكنّه أخفاه وسترَ عليه. يقول الخال عثمان: حين رأيت انكساره، وتساقط دمّوعه رحمته، هي الحاجة، والمسروق قليلٌ من التمر.

وقال لإخوانه: احمّدوا الله أن أغناكم، فالنخل كثير، والبركة في السباحة. وأعطى الخال عثمان تلك الليلة إخوانه وأخواته رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعًا درسًا في العفو والسّماحة والبذل، درسًا بقي خالدًا في ذاكرتي، درسًا تذكّرتُه بعد ستين عامًا، حينما قرأتُ حديثَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من مسلم يغرسُ غرسًا إلّا كان ما أُكِلَ منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السبعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطيرُ فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحدٌ إلّا كان له صدقة»^(١). فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينصُّ على أن ما أكله السارق من الغرس صدقة.

ولعل الخال رَحِمَهُ اللَّهُ قد سمع هذا الحديث، فقد كان الخال عثمان سمحًا كريماً، وهبه الله بناتًا، ولم يهبهُ ذكورًا. عند بدء الدراسة، كان يأخذني إلى الرياض لشراء الأدوات المدرسية، يتوجه بي إلى متاجر

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٥٢)، وأصل الحديث عند البخاري مختصرًا (رقم ٢٣٢٠).

الأدوات القرطاسية والمكتبية أمام المسجد الجامع الكبير (سوق أشيقر)، فيجلس على كرسي بأحد المتاجر، وأختار ما أشاء، ثم يحاسب، وأعود إلى الوالدة مزهواً، لقد عشتُ طفولتي مدلاً في حُسن الوالدة وبين أحوالي.

هي الأسر القديمة تواصل وتراحم، ترابط وتماسك، عيشتهم مُشتركة، ودخلهم مُختلط، وتجارُتهم واحدة، ولعل يسر الحياة من يسر الحال الاقتصادية، وقلة الدخل.

لقد كانت حياة الأخوال كفافاً؛ يقتاتون من مزرعتهم، ويعمل الخال عثمان عضواً في مركز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. سمعته مرة يقول عن راتبه: إنه مئة وعشرون ريالاً شهرياً.

حياة أهل ذلك الزمان

أحسب أن المال كلما زاد زادت معه الشقاوة، وزادت الفتنة فيه إلا القلة، عن أنس بن مالك: كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، فَلَا أَذْرِي، أَشْيَءٌ نَزَلَ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ يَقُولُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ، لَا بُتْغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتَوَبُّ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٣٦)، ومسلم (رقم ١٠٤٨).

كانت السباحة واليسر غمامةً تُظلل بيت الأخوال رَحِمَهُمُ اللَّهُ، لقد عشتُ جزءاً من حياة الأوائل في مرحلة طفولتي، فما إن يدرج الفتى والفتاة، إلا ويساعدون أهلهم في أمورهم المعيشية، وكلُّ حسب مهنة ذويه؛ فأهل الفلاحة، وهم أهل الغنى واليسار، تجد أبناءهم إذا فرغوا من دراستهم يشاركونهم في رعي الأغنام، والتقاط ما يتساقط من ثمار النخيل، وفي جمع الأعلاف للماشية، والفتاة تساعد أمهاتهن في حلب الأغنام، وتنظيف البيت، وشؤون المطبخ؛ إذ لم يكن ثمة خدم منازل متفرغين، وإنما تقوم بعض الأسر الفقيرة بالخدمة المنزلية عند الحاجة في بيوت ذوي اليسار والنعمة، كأن تُمرّض ربّة البيت، أو تُساعدوها في الأسبوع الأول من الولادة، أو في المناسبات الاجتماعية، أو في قضاء بعض حوائجهم الخاصة من السوق، كانت النساء في تلك المرحلة يَحْتَجِبْنَ، ولا يَخْرُجْنَ للأسواق؛ بيئةً مُحَفَظَةً، ينام البيت كله مُبَكَّرًا، ويستيقظ مُبَكَّرًا، لا سَهَر، ولا سَمَر، يسرُّ وقناعة.

وكانت وجبات الأكل في الصباح تمرًا وقهوة ومراصيل وحليبًا، وقُبيل الظهر وجبة الغداء، وتكون في الغالب جريشًا. أما العشاء فقُبيل المغرب، ويكون عادة من البر؛ مرقوقًا أو قرصانًا، وأحيانًا أرزًا.

وكما ذكرتُ في بداية هذا الفصل، فقد زُرْتُ مدارج الطفولة لأستعيد الذكريات، وأستنطق الأماكن عليها تُسَعِفُ الذاكرة، وهاتفْتُ ابن الخال صالح بن محمد السيف رعاه الله وحفظه، وصَحِبْتُهُ نحو

منفوحة؛ إلى مسقط رأسي، إلى مرابع الطفولة، إلى البيت الذي ما زالت أطلّلهُ باقية، إلى البيت الذي طويْتُ فيه طفولتي، وها هي أطلّلهُ في الصور الآتية.



بيتُ الطفولة من الخارج

مرايع الطفولة

وحين وقفت عند هذا الباب كِدْتُ أطرقه، كما كُنْتُ أطرقه في أيام
طُفولتي :

يا طارقَ البابِ رِفْقًا حينَ تَطْرُقُهُ
تَفَرَّقُوا في دُرُوبِ الأَرْضِ وانتشروا
إِرْحَمْ يَدِيكَ فما في الدارِ من أَحَدٍ
ولتَرْحَمْ الدَّارَ. لا توقظْ مواجعَها
فإنَّه لم يَعُدْ في الدارِ أَصْحَابُ
كَأنَّه لم يَكُنْ أنْسٌ وأحبابُ
لا تَرْجُ رَدًّا فأهلُ الودِّ قد رحلوا
للدُّورِ رُوحٌ.. كما للنَّاسِ أرواحُ



بيتُ الطفولة من الداخل

كان في هذا البيت الطيني، أربعة رجال بزواجهم وأطفالهم، وبعض الأخوات بأطفالهن، وفيه بُرُّ سُقيا لتلك القبيلة الأسرية، وفيه سمرُهم ومؤنُّهم وحفلاتهم، وفيه تُقام حفلات زواجهم ومناسباتهم الاجتماعية. ومزرعتهم قريبة من بيتهم هذا، وبقاياها ما تزال تُذكر بأهلها الراحلين. صارت منفوحة التي عشت فيها طفولتي تُعرف الآن بـ (منفوحة القديمة).

والصورة الآتية تعرض حال مزرعة الأمس البعيد، والتي ما تزال باقية حتى الآن:



مزرعة الأخوال

أحسبُ أن هذه النخلاتِ الباقية حين وَقَفْتُ بِقُرْبِهَا، قد عَرَفْتَنِي،
ولو نَطَقْتُ لشَكَتُ إِلَيَّ الهَجَرَ والإهمال، ولتَحَنَّنْتَ واستعبرت كما
استعبر حصان عنتره:

فازورٌ من وقع القنا بلبانهِ وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمُّمٍ

المهم أنني حين يَمَمْتُ وجهي نحو تلك المربع أستعيد الذكريات،
وجدتُ منفوحةً قد تَغَيَّرَتْ؛ إذ تهدَّمت تلك البيوت الطينية العامرة،
وخوت مزارعها الضاحكة، وبقي بيتٌ هنا، وبيتٌ هناك، ونخلاتٌ
متناثرة تكاد تنوح على عُمَارِها الأقدمين، وجلستُ سويعات بين
تلك الأطلال، وعند تلك النخلات، وبينما كنت وابن الخال صالح
جالسين نستعيدُ الماضي؛ إذ بقمريَّة تُغرِّد، فتبَّعْتُها بناظريَّ، وإذ هي
في نخلةٍ سامقةٍ، وما أن رفعت رأسي وسقط العقالُ؛ إلَّا وتعود بي
الذاكرة إلى الماضي، تعود بي لتلك العصرية قبل ستين عامًا ونيِّقًا،
تعود لهذه النخلة الطويلة، وتلك الأخرى المُجاورة لها.

ويعود ذاك المشهد الدامي، فكأنني أرى سطلَ التمر وقد هوى من
أعلى النخلة، فأدمى ابنة الخال. كان ارتفاع النخلة ذلك الوقت صغيرًا.
قلت لصالح: أَتَذْكُرُ ذاك اليوم حين صعدتَ وأنتَ صغيرٌ لهذه
النخلة التي تُغرِّد فيها الآن هذه القُمريَّة، ومعك السطل؛ لتخْرِفَ

من رُطْبَها؟ فهذه النخلة نعرفها (بسَلْجَة عمر)، وتلك بـ(مقفزية عبد اللطيف).

قال صالح: إي والله، أتذكر حين صعدتُ وربطتُ السَّطْلَ بخوص النخلة، وحين امتلأ بالتمر سقط وضرب ابنة عمي ناصر. قلتُ: نعم، وكُنْتُ بالقرب منكم، ورأيت السَّطْلَ، وقد هوى وضرب رأسَ الطفلة دلال ابنة الخال ناصر رَحِمَهُ اللهُ التي كتب الله لها النجاة، وقد أرعبتنا الدماء التي غَطَّتْ وجه الصغيرة، وجرينا بها نحو البيت نخبرهم الخبر السيئ، وأسرع بها والدها الخال ناصر إلى المركز الصحي فضمَّدُوا جرحها.

دُنْيا تنطوي وتمضي أحداثُها، ويبقى الواحد الديان سبحانه، سبحانه! لقد كان نوحُ تلك الحمامة الشجي سببًا في تحريك الذاكرة للذكريات؛ وكيف لا أتذكر الماضي وأحبَّته وقد رحلوا، والشاعر الأبله البغدادي قد سبقني وترنم بأبياته الشجية:

إني وقفتُ ببابِ الدَّارِ أسألُها	عن الحبيبِ الذي قد كان لي فيها
فما وجدتُ بها طيفًا يُكلِّمُني	سوى نواحِ حمامٍ في أعاليها
يا دارُ أين أحبَّائي لقد رحلوا	ويا ثرى أيِّ أرضٍ خيموا فيها
قالت: قُبيلَ العِشاءِ شدَّواروا حلَّهم	وخلفوني على الأطلالِ أبكيها

لحقتهم فاستجابوا لي فقلت لهم
قالوا: أتحمي جمالا لست تعرفها
خلوا جمالكم يرعون في كبدي
روح المحب على الأحكام صابرة
لا يعرف الشوق إلا من يكابده
لا يسهر الليل إلا من به ألم
إني عبيد لهذا العيس أحميها
فقلت: أحمي جمالا سادتي فيها
لعل في كبدي تنمو مراعيها
لعل مسقمها يوما يداويها
ولا الصبابة إلا من يعانيها
لا تخرق النار إلا رجل واطيها

ذكريات ظلت منحوتة في الذاكرة، وعلاقة حميمة التحمت
بشرايين القلب نحو أخوالي وأولادهم، فلهم دعواتي، وإليهم حنيني،
ولهم محبتتي ومودتي.



يوم العروبة!

هو يوم الجمعة، وما أدراك ما يوم الجمعة! منذُ وعيتُ وأدركتُ، ويوم الجمعة هو الإجازة الرسمية، فهو يوم المسلمين الأسبوعي المبارك، ثم ضُمَّتِ الدولةُ إليه يومَ الخميس إجازةً، ثم جرى التعديل لتكون الإجازة يومي الجمعة والسبت.

وتُسمَّى العربُ يومَ الجمعةِ بيوم العروبة. أتذكَّرُ أبياتًا وقصةً جميلةً يحسُن تَحْمِيصُ هذه الذكريات بها، تقول القصة^(١): إنَّ أمر الشرطة في بلدة المَعْرَةَ كان فاسدًا يتعدى على الحرمات، ويؤذي أهل البلدة بِفُسْقىهِ، وذات مرة فوجئ المُصلُّون يوم الجمعة بفتاةٍ تدخل عليهم المسجد تصيح وتستغيث، فقد أراد أمرُ الشرطة خطفها، فلجأت إليهم باكيةً مُستجيرة، فخرج المصلُّون وأسرعوا لمكان أمر الشرطة (الماخور)؛ أي بيت الرذيلة، فهدُّوا البناء، وهرب أمر الشرطة، وأغلقوا أبواب المَعْرَةَ فهم يعلمون أنَّ أمر الشرطة ذهب إلى أمير

(١) قرأت هذه القصة في كتاب مع أبي العلاء في رحلة حياته لعائشة عبدالرحمن بنت الشاطي ص (١٧٥-١٧٧).

حلب، صالح بن مرداس، زاعماً تمرّدهم، فخافوه، وكان ما توقعوا؛
 إذ جاءهم صالح بجيشه، فلدجؤوا إلى الشاعر أبي العلاء المعري المتوفى
 سنة (٤٤٩ هـ)، وقالوا: ليس لها اليوم إلا أنت يا أبا العلاء، فتمنّع
 عليهم، ولكنهم أصرّوا عليه، فاستجاب لهم، وفتحوا باب المعرة،
 وقيل لصالح بن مرداس: نرى المعرة فتحت الباب، وخرج رجل
 يسندهُ رجلان، قال: هو الشاعر أبو العلاء، وأمر الجيش بالتوقف،
 واقترب بحصانه من أبي العلاء وسلّم، فقال أبو العلاء على الفور:

تغيّتُ في منزلي بُرْهَةً	ستير العيون فقيّد الحسد
فلما مضى العمرُ إلا الأقلّ	وحمّ لروحي فراق الجسد
بُعِثْتُ شفيعاً لدى صالحٍ	وذاك من القوم رأي فسّد
فيسمعُ منّي سجعَ الحمام	وأسمعُ منه زئير الأسد

فقال صالح: بل أنت الذي نسمع منه زئير الأسد، ما القصة
 يا أبا العلاء؟ فقال أبو العلاء:

أتّ جامعٌ، يومَ العروبةِ، جامعاً	تقصُّ على الشَّهادِ، بالمصر، أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها	خلتُ ساء الله ثمطر جمرها
فهذّوا بناءً كان يأوي فناءهُ	فواجرُ أَلَقْتُ للفواحشِ خمرها

وعند ذلك استدار صالح بن مرداس بحصانه، وصفع أمر الشرطة، وترك المعرّة لأهلها يختارون الرجل المناسب.

أخي الأكبر

كُنْتُ في طفولتي أنتظرُ يومَ الجمعة بشوق، فهو موعدُ زيارة أخي ثيان للوالدة، وما بين الصباح وانتهاء صلاة الجمعة، أحسبه وقتًا طويلًا، أزجيه في ترائي طلعة أخي، لأُسْرِعَ فأبشّر الوالدة بوصوله! هو يأتي من الرياض ماشيًا على قدميه، وحين صرْتُ يافعًا، والتزمتُ بصلاة الجمعة، كُنْتُ أترقّب دخوله في مسجد الجمعة الوحيد بمنفوحة (الجنوبي)، وكان إمامُهُ وخطيبه آنذاك الشيخ عبدالرحمن الشعيبي رَحِمَهُ اللهُ كَأني أراه؛ طويلَ القامة، مهيبَ الطلعة، جهوري الصوت. وما أن أرى أخي في المسجد إلا والبسمة تملؤني، وفور انتهاء الصلاة أُسرِعَ إليه؛ لأصلي بجواره ركعتي السنّة، ومن ثمَّ أصحبهُ إلى بيت الأخال.

وكأني وأنا أكتب هذه الخواطر أرى طفولتي وأشهدُ أُمِّي رَحِمَهَا اللهُ جالسة في (الوجار) مكان إعداد القهوة والشاي، وما أن تُشاهد الوالدة ابنها إلا والبسمة تتلألُ في مُحيّاها، والسعادة تغشّاها، ويزيدُ وجهُها المقهَى نُورًا على نُور! هو أخي وشقيقي ثيان، يكبرُني بعشر سنوات تقريبًا - سَتَرِدُ صورته لاحقًا مع إخوتي الآخرين - وكان قبل

انتقالي إلى منزل الوالد، هو الأب والأخ، سمح الخلق، طيب اللسان، باراً بوالديه. كان قُرّة عيني، وكانت زيارته مبعث نشوتي وفرحتي، فيه أزهو على أقراني، وبريالاته أتبه على رفاقي، أحصل منه -كلما جاء زائراً- على مصروفي اليسير؛ بضعة ريالات، بسط الله له رزقه، وجزاه عني وعن والدتي خير الجزاء وأوفاه، ورزقه الله برّ بنيه، وإنني وإن ذكرت سماحة أخي، فمهما أثبت عليه، فلن أستطيع ردّ جميله، بارك الله فيه وله، ورفع الله درجاته في الدنيا والآخرة. وهنيئاً لمن رزقه الله إخوةً مثل أخي وشقيقي ثنيان.

لقد قضيتُ مرحلة الطفولة وبداية الفتوة لدى أحوالي في منفوحة؛ نعيش حياة الريف، نقضي أوقاتنا بين المدرسة والمزرعة ورعي الأغنام بصحبة إبراهيم ابن الخال محمد، أتقارب وإياه في العمر، ونتسلّى خلصةً بإخراج الحمار من المزرعة، نمتطيه ونمرح عليه حول أسوار القرية. وكُنْتُ أفخر بأخي ثنيان، وأتباهي بريالاته على أبناء أحوالي.

ذات أسبوع، بات ابن خالتي عبداللطيف بن محمد بن عبدالرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لدينا، وبعد الإفطار، صحبته إلى المزرعة، وهناك ركبنا الحمار، وانطلق بنا مُسرّعاً، وكُنَّا نضحك ونتسلّى، وفي أثناء جريه قُرب المسجد الجامع اعترَضنا فجأةً كلبٌ يلحق به بعض الصبيان، فوقف الحمار فوراً، وما زلتُ أتذكرُ تلك الوقفة، فلو كانت سيارةً

لتدحرجت وانقلبت، أما ذاك الحمار فوقف فوراً وما تحرك، وسقطنا نحن الاثنان فوراً، ولم أستطع القيام، فقد انكسرت ذراعي اليمين، وهرب الحمار إلى المزرعة إلى مكانه. أما نحن فقد تحاملنا على أنفسنا، وحين وصلت للوالدة ربطت اليد، ولكن كان الألم شديداً، ومن حسن الحظ أن جاءنا في اليوم التالي أخي ثنيان، وحملني إلى الطبيب الشعبي (ابن محمود)، فشدَّ يدي بقوة، ودلكها بالزيت، ثم ربطها بالجبائر الخشبية، وبعد قرابة الشهرين، برئت يدي.

لقد كان لي مع الطبِّ الشعبي قصصٌ ومواقف، وكان أخي ثنيان يشقى لشقاوتي، ويمرض لمرضي. أثابه الله، وجزاه عني وعن والدتي خير الجزاء وأوفاه.

الحارس الأعمى والبنات

عشتُ حياة القرية وحياة المدينة، فقد أمضيتُ أربعة عشر عاماً من عمري في منفوحة، حين كانت قريةً مفصولةً بفضاءٍ فسيحٍ موحشٍ عن مدينة الرياض، في حين صارت اليوم حياً قريباً من وسط المدينة. أنهيتُ تلك السنوات في منفوحة، ولم تصل بيوت سُكانها شبكات الكهرباء ولا الماء. كان في بيت الأخوال بئرٌ يمتحون منها ماء الشراب، ولم تكن الآبار موجودة في كل البيوت، إنما اقتصرت على بيوت الأثرياء

والوجهاء فقط؛ ولهذا يوجد السقاؤون يمتحون الماء من آبار عامة، مُوزعة في البلدة، ثم جاءت مياه الدولة، وجرى تمديد الشبكة العامة في منفوحة قُرابة عام ١٣٨٠ هـ في عهد الملك سعود رَحِمَهُ اللهُ، ولكن ليس في البيوت، وإنما مُفَرَّقة في عددٍ من المواقع بجميع الجهات، وعيّنت الدولة حارسًا لكل صنبور، ومن تلك المواقع يقوم السقاؤون بحمل المياه إلى المنازل. أذكرُ مشهدًا ما يزال حاضرًا بالذاكرة؛ إذ كنتُ خارجًا من مدرسة الأعشى الابتدائية ذات يوم، وعندما اقتربتُ من الصنبور القريب من بيت أخوالي، وإذ بي أسمعُ جلبةً وأصواتًا، وعندما اقتربتُ رأيتُ حارس الصنبور، وهو رجلٌ أعمى، والدم يسيلُ من رأسه، وهو يتمتم ويسرع إلى بيته رَحِمَهُ اللهُ، وما يزال اسمه الرباعي محفورًا بالذاكرة (ع، س، م، أبو س)، وعلمتُ أن بنتًا قذفتُ بحجرٍ وأدمتُ رأسه رَحِمَهُ اللهُ وذلك أن بعض البنات الصغيرات كُنَّ يسقين لذويهن، وكان الحارس الأعمى يجلس بالقرب من الموقع، فشعر بعبثهنَّ بالماء فنهرهنَّ، ولكن البنات سخرنَّ منه، وقالت إحداهنَّ في معرض التحدي كلمة ذات دلالة جنسية نابية، فقال الرجل الأعمى: تعالي، تفضلي، أنا جالس، فاقتربتُ منه، ورمتهُ بحجرٍ في رأسه فشجّته، وقالت: هذا فعل البنات.

ومع ارتفاع سنّي، بدأت أعرف أن هناك شبكات كهرباء ومياهًا

تتوفر في البيوت، وأن العاصمة الرياض تتميز بهذه الخدمات، وعلمت الفرق بين المدينة (الرياض) والقرية (منفوحة)، وذلك حين تزور الوالدة وأنا برفقتها، أختها الكبرى خالتي لطيفة عند ابنها عبدالعزيز ومحمد أبناء عبدالله بن سعد المرشد رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعاً بيت عبدالعزيز قرب سكن الوالد في حي مُليحة، وبيت محمد في حي الظهيرة. في تلك الزيارات شاهدت الفرق بين المدينة والقرية، وعرفت الكهرباء والماء في البيوت، ثم توسَّعت الدولة في توفير الخدمات، وكان لمنفوحة نصيب من التنمية، فجرى تعبيد الطريق إليها من جهة الشرق، من امتداد طريق البطحاء إلى (المنصورية) مزرعة الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ وجرى إيصال الماء إلى بيوت الأهالي وأنا في نهاية المرحلة الابتدائية. وأذكرُ تدخُّل المركز الصحي الحكومي في منفوحة (صحة البيئة) وتوفيره كراسي المراحيض المجانية، وتكليفه عمالة لتركيبها في البيوت؛ لتنتهي بيوت الخلاء الجانبية من المساكن. وبعد أن انتقلتُ إلى بيت والدي عام ١٣٨٤هـ، وصلتُ بيوت الأهالي في منفوحة شبكة الكهرباء، ففرح الأهالي، وتبادلوا التهاني.

بين زمن وزمن

وتعودُ بي الذاكرة اليوم لأقارن كيف بدأتُ الدراسة والذاكرة

تحت ضوء السراج و(الأتاريك)، كانت هديتي من الوالدة رَحِمَهُمُ اللَّهُ عندما التحقت بمدرسة الأعشى عام ١٣٧٦ هـ، سراجاً خاصاً بي للمذاكرة، ومروحة خوصٍ أُحرِّكُ بها الهواء يمنةً ويسرة، ودِدْتُ لو احتفظتُ بذاك السراج الأزرق، وتلك المروحة للذكريات.

ويشَاءُ الله أن أختَمَ حياتي الدراسية الرسمية في شهر شعبان عام ١٤٠١ هـ؛ إذ جرت المناقشة، ومُنحتُ درجة الدكتوراه في قاعة المحاضرات بالمربّع المتلألئة بالكشافات الكهربائية المتعددة، والمزدانة بأجهزة التكييف المركزي. وبعد المناقشة بأيام، أُلقيتُ كلمة أهالي الرياض أمام الملك خالد رَحِمَهُمُ اللَّهُ في احتفال اكتمال مشروع وصول المياه المُحلّلة من الشرقية للرياض. سَتَرِدُ الإشارة لذلك الاحتفال في فصل (معرفةُ الملك).

أي نعم، خمسةٌ وعشرون عاماً بين أن يكون مصدر المياه للرياض آبار المنازل إلى أن يكون مصدر المياه الرئيس تحلية المياه من الخليج العربي، وهي المرحلة ذاتها، ما بين المذاكرة بضوء السراج والتكييف بمروحة الخوص، إلى المذاكرة بكشافات الكهرباء والتكييف المركزي. تطورٌ سريع، وتنميةٌ أسرع. أثاب الله ولاية الأمر في بلادنا الغالية؛ إذ خُصّوا التنمية باهتمامهم، فتوالت المنجزات، فله الشكرُ والمنّة.

قِصَّةُ الْجَحْشِ

يَخْتَرُقُ وادي حنيفة مدينة الرياض من الشمال إلى الجنوب، وكان للمزارع والزراعة ذاك الزمان شأنٌ ومقام؛ إذ تمتد المزارع على ضفاف الوادي في الدرعية والرياض ومنفوحة، وكان لأخوالي في منفوحة - كما أشرتُ سابقاً - مزرعة اسمها (الملاح)، وهي من أغلى وأهم مزارع منفوحة، كما كان لوالدي وأعمامي وقبلهم أجدادي رَحِمَهُمُ اللَّهُ أثمن المزارع في الرياض، واسم نخلهم (الرفيعة) في منطقة صياح، التي هي الآن على طريق الملك فهد، قُرب مقرِّ الإفتاء، وغرب سوق الخضار بعتيقة.

كان أصحاب المزارع والحقول من أهم الوجهاء والأثرياء، ينظر إليهم المجتمع بتقديرٍ واحترام، فلديهم من خيرات الأرض والدَّواب؛ من التمر، واللبن، والزروع ما كان له معنى كبير في تلك الأيام، وكان الناس يفرحون إذا تقدم لخطبة ابنتهم أحد أبناء ذوي المزارع، وما زلتُ أذكر حصاد القمح وتجفيفه خارج الحقل، ثم جمع الأبقار والحمير، وربط بعضها إلى بعض، والهرولة بها دوران

على تلك الحصائد؛ حتى تُطحن السنابل، ويتمنى الفلاح هبوب الرياح؛ ليفرز حَبَّات القمح، ويُنقىها من الشوائب، ويرفع الرجال القمح المخلوط بالقش إلى أعلى، ليدفع الهواء القش بعيداً عن حَبَّات القمح الصافية، وهكذا. وكأني أرى الأسر وهي تستنفر جميع أفرادها؛ رجالاً ونساءً، أطفالاً وفتياناً، يجمعون ثمار النخيل، ويُحَفِّفونها في الأحواش، ثم بعد ذلك ينقلونها إلى أحواضٍ صغيرةٍ في البيوت بارتفاع مترين تقريباً تسمى (الجِصَّة)، وبعد أن تُمَلَأ تلك الأحواض بالتمر، تُغَطَّى بالأكياس وسعف النخيل، ثم تُضَغَط بالحجارة التي يعجز عن حملها أنشط الرجال، ويكون في أسفل تلك الأحواض مخرجٌ صغير يخرج منه (دبس التمر).

يُحَدِّثُنِي أَحَدُ الثَّقَاتِ أَنَّ لَدَى جِيرَانِهِمْ نَخْلًا كَبِيرًا، وَتَمَرًا كَثِيرًا، وَأَنَّهُمْ ذَاتَ عَامٍ شَرَعُوا فِي نَقْلِ التَّمْرِ مِنَ الْأَحْوَاشِ إِلَى الْأَحْوَاضِ الْإِسْمَنْتِيَّةِ، وَكَانَ النُّقْلُ بِزَنَابِيلٍ تَحْمِلُهَا الْحَمِيرُ، وَافْتَقَدُوا جَحْشًا صَغِيرًا، وَظَنُّوا أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْمَزْرَعَةِ وَافْتَرَسَتْهُ الْكِلَابُ، وَلَكِنْ حِينَ بَدَأَ فَصْلُ الشِّتَاءِ، وَشَرَعُوا فِي كَشْفِ حَوْضِ التَّمُورِ، وَبَدَأُوا فِي سَحَبِ التَّمْرِ لِأَكْلِهِ، وَجَدُوا ذَاكَ الْجَحْشَ مَطْمُورًا بِالتَّمُورِ، وَأَخْرَجُوهُ كَمَا هُوَ لَمْ يَتَعَفَّنْ، وَلَمْ يَتَحَلَّلْ، وَكَأَنَّهُ مُحْنَطٌ، وَحِينَ تَقَرَّرْتُ ضِحْكَ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ جَمَعُوا مَا حَوْلَ هَذَا الْجَحْشِ مِنَ التَّمُورِ، وَأَعْطَوْهُ الْبَقْرَةَ الْحَلُوبَ،

وربما شحّوا به على البقرة وأكلوه، وما كأن شيئاً حدث. حياة سهلة، وعيشة هنيئة. وتذكرتُ مقولة (عندهم تمر يتصارخ من زينه)؛ إذ يتداول الناس في هواتفهم رسالة كتبت منذ ثمانين سنة من أحد أهالي نجد، أرسلها ذاك الرجل من الزبير جنوب العراق إلى أهله في سدير، يقول فيها بأسلوبه العامي اليسير:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته. مشينا من عندكم خبركم حادرين مع الربع، نمشي في البراد، ونُقِيل وقفة الشمس، ونَمْشي إذا بَرَدْنَا، ونسري أول الليل، ثم نَمْرَحْ، وإلى تَرْيَقْنَا عُقْب الفجر سر حنا، وما وصلنا الزبير إلَّا عقب عشرين يوم. مَشِي على رجلينا؛ حيث الرحايل ضعيفة، يا الله تشيل الزهاب ما تنطح نركبها، والمرعى قليل، ولقينا ديرةً عجبية، عندهم شيء يسمونه خبز؛ لا هو قرصان، ولا مراصيع. ولا تزيّنه الحريم في البيوت، يزيّنه رجال بعضهم عجم في دكاكين فيها تنور كبير، ويبيعونه على الناس، زين يأكلونه ويُغَطُّونه؛ إما على بُلُول، وإلا على حليّيه، وإلا على حلوى يسمونه شاي، والطبخ رُز، أسامي عجبية، والي أعجب ويُهول سُرج تُشَبّ بلياً قاز، وحديد في الجدار يصبُّ الماء، وحديد في السقف يهَبُّ الهواء، ونشدنا مُطوعهم عسى مهوب هذا سحر؟

وقال: لا، هذا كرهب، وفي ذمته.

واشتغلنا من يوم وصلنا، وعندهم نَعَمٌ كثيرة، عندهم تمر
يتصارخ من زينه».

وبعد أين أولئك الذين أكلوا التَّمرَ المُتلاصِقَ بالجحش؟! وأين
النَّجديُّ المُتغرَّبُ صاحب الرسالة الساذجة؟! أين هُمُ الآن؛ ليروا
نعيمنا الحالي، والخيرات التي يسعدُ بها جيلُ اليوم؟! لله الشُّكرُ والمنَّة.



الْكُتَّابُ وَالْأَعَشَى وَالْقِبْلِي

ثلاثةُ مقاعدٍ تعليميةٍ جُلسْتُ في رَحابِها في أثناءِ مرحلةِ طفولتي وفتوّتي، ففيها محوتُ أُمِّيَّتي، ومنها أخذتُ تعليمي الأول؛ هي كُتَّابُ الشيخ إبراهيم الجُمَيْزِي رَحِمَهُ اللهُ مُعَلِّمي الأول، ومدرسةُ الأعشى النظامية، والمسجدُ المعروف بالقبلي، ولكلٍ مقعدٍ من هذه المقاعدِ ذكرياتٌ ومواقفٌ عُلِقَتْ بالذاكرة، وتستحقُّ الرواية.

فهنالك في منفوحة كانت بداية تعليمي، فقد التحقتُ عام ١٣٧٦ هـ بمدرسة الأعشى الابتدائية. وتاريخُ منفوحة قديم، فهي بلدةُ الشاعر الأعشى صاحب المعلقة الشعرية المشهورة؛ إحدى المعلقات السبع التي يفاخر بها العرب في عصورهم الأولى:

وَدَّعْ هَرِيرَةَ إِنْ الرَّكَبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ

غَرَاءُ^(١) فَرَعَاءُ^(٢) مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجِي^(٣) الْوَحِلُ

(١) الغراء: البيضاء الواسعة الجبين.

(٢) الفرعاء: الطويلة.

(٣) الوجي: الحفا؛ أي غير منتعل.

كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارِيهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ
لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِرَانَ طَلَعَتْهَا وَلَا تَرَاهَا لِسِرِّ الْجَارِ تَخْتَلُ
يَكَادُ يَصْرَعُهَا لَوْلَا تَشَدُّدُهَا إِذَا تَقَوُّمٌ إِلَى جَارَاتِهَا الْكَسَلُ^(١)

كانت منفوحة، كغيرها من مدن المملكة وقرائها، مجموعة من البيوت الطينية، يحوطُ بها سورٌ طيني، وقد شُيِّدت تلك الأسوار وقتَ الخوف، وقلة الأمن. كنّا نرى تلك الأسوار في طفولتنا، وقد تهدّم أغلبها، ولكنها باقيةٌ شاهدةٌ على الماضي، نراها ماثلةً أمامنا من كل الجهات، تكادُ تنطقُ بالتاريخ؛ فكم رَحَل عنها من راحِل، وكم صَدَّت تلك الحيطان من غُزاة! وطالما استوقفتنا بوابات تلك الأسوار؛ فبجوار كل بوابةٍ غرفةٌ صغيرةٌ للحُرَّاس، ودَرَجٌ مُراقبةٍ يرتفع لأعلى البوابة؛ للمراقبة ومشاهدة القادم، ورؤية الطارق، وكان في الشمال الشرقي لمنفوحة خارج السور مبنى أثريٌّ قديمٌ مرتفعُ الأسوار، أحسبه خمسة أمتار في سبعة أمتار، كنّا نسمع في طفولتنا أنه دارة الشاعر الأعشى، وإذا مررنا به ونحن أطفال، أغمضنا أعيننا وهرولنا؛ خوفاً من خرافة يردّها سكان المنطقة، وهي أَنَّ سَكَّانها من الجنِّ. وفي الشمال الغربي من البلدة تقع مدرسة الأعشى، وبنّاؤها أرقى

(١) ديوان الأعشى، تحقيق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، (ص ١٠٥-١١٢).

من بيوت الأهالي؛ أسقفها من الخشب المربع والألواح المستوردة، وحيطانها مطليةً بالجبس الأبيض. وقد أنهيتُ المرحلة الابتدائية في تلك المدرسة، ولم تكن الكهرباء متوفرة في منفوحة آنذاك.

إن قصة التنمية والتطور في المملكة أشبه بالخيال، سنوات يسيرة وتوفر في كل القرى والأرياف، المدارس الحديثة البناء وكافة التجهيزات.

هذا، وتبقى في ذاكرة الصغير مواقف ما تزال منحوتة في ذهنه، يستعيدها حين ترد مناسبتها. كنت كغيري من الصغار يتهيئون من المدرسة الأسبوع الأول، لكن والدتي على الرغم من رقتها رَحِمَهَا اللَّهُ، كان لها موقفٌ حاسم، فقد ذهبتُ للمدرسة اليوم الأول برفقة الخال عثمان، وعُدتُ معه، وفي اليوم الثاني عند وُصُولي للمدرسة تهيئتُ من الدخول وعدتُ للوالدة، فأمرتني بالعودة للمدرسة فرفضتُ، وأحسبُها أرسلتُ لمدير المدرسة تشتكي تمنّعي، فأرسل المدير حارسَ المدرسة ونادى عليَّ فأخرجتني الوالدة، وأمسك بي وأسرع، فرفضتُ وجلستُ على الأرض، ولكن الحارس حملني على كتفه، وصرتُ أصيحُ وأصرخُ، ورقّتِ الأمُّ، فجاءت تجري خلفنا، وتطلب من الحارس إنزالي، ولكنه رفض وأسرع بي للمدرسة، وما زلتُ أحفظُ نهره لأمي رَحِمَهَا اللَّهُ ومقولته: «ارجعي للبيت، الرجال ما يُرييهم إلا الرجال».

و حين وصلتُ للمدرسة، استقبلني المدير، وربّت على كتفي، ومن ذلك اليوم صرتُ أبادرُ بالإسراع للمدرسة؛ خوفاً من مجيء الحارس. وانتظمتُ في الدراسة وألِفْتُها، وكنتُ أنا وزُملائي في المدرسة نشارك وجبة الإفطار؛ كل فصلٍ يُشكّلون مجموعةً تشارك فيما بينها، يدفعُ كلُّ طالبٍ أربعةَ قروش كل يوم، ويقوم زميلنا في الفصل الطالب حسين بن محيش -يسكن بجوار المدرسة- بإحضار إبريق حليبٍ وخبزٍ، وتلذّذ بتلك الوجبة الصحية النافعة.

وهذه صورة تلك المدرسة بعد أن أُعيدَ بناؤها، كما في لافتتها التعريفية، أُفتِحت عام ١٣٧٢ هـ؛ أي قبل التحاقني بها بأربع سنوات!



مدرسة الأعشى

وكنا ندرس القرآن في الإجازة الصيفية عند المعلم الكفيف إبراهيم الجميزي رحمة الله فيما كان يُعرف بالكتاب؛ غرفة طينية نجلس على الأرض مُترَبِّعين، والمعلم أمامنا، وكأني أراه الآن يُحرِّك عصاه نحو الباب ولا يملّ؛ كي لا نهرب وندعه لوحده؛ ولهذا يُردّد أسماءنا، يقول: سَمِّعْ يا عبدالعزيز، اقرأ يا سعد، رَتِّل يا فهد، وهكذا.

والأمر العجيب أن تلك الغرفة (الكتاب) ما تزال قائمة، وأحسب أن عمرها حالياً يزيد عن سبعين سنة، تأملوها لتعرفوا كيف وأين درس الأباء والأجداد؟!



الكتاب الذي بدأت التعلم فيه، ما تزال بقاياه قائمة.

وكان بجوار تلك الغرفة ممرٌ مسقوف، يجلس به كبارٌ في السن،
 كأني أراهم يُمسكون بعصي يتوكؤون عليها، ويتبادلون الأحاديث
 فيما بينهم، ويُسمّى بالعامية (مُجَبَّبُ حَسَن).

دروس المسجد القبلي

أتذكرُ ذاك المسجد الذي طالما صلَّينا فيه، والمعروف بمسجد
 القبلي، يُقال: إنه تأسس عام ١١٠٠ هـ. مرفق صورته بعد ترميمه!



مسجد القبلي

هذا المسجد الذي كُنَّا نُصلي فيه غالبًا، إمامه الشيخ عمر بن محمود رَحِمَهُ اللهُ، كفيفٌ وقور، طالما وعظَ وذَكَرَ. وفي رمضان تُوجد قَرَبُ الماء بالمسجد، كأني أراها معلقةً يشرب منها المصلون، وطالما عبثنا وشربنا نحن الصغار منها. والقربةُ تُصنع من جلد ماعزٍ أو جلد كبش، يخيطنها الخِرَّاز بخيوطٍ جلدية، وقبل الخياط هناك دابغ الجلود؛ أي الذي يزيل الشعر منها، وينظفها ويجهزها للخِرَّاز.

لقد كان بداية تعليمي في هذا المسجد (القبلي) نقرأ فيه القرآن ونتهجى حُرُوفَه، وفي كُتَّاب الجميزي، ومدرسة الأعشى. ومضت السنوات، ووصلت للصف السادس الابتدائي، وكانت وزارة التعليم تجمعُ طلابَ الصف السادس الابتدائي آخر العام في لجانٍ عامة لأداء الاختبارات، وفي آخر العام الدراسي جاءت أرقام الجلوس إلى مدرسة الأعشى من إدارة التعليم، وكأني أرى ذاك اليوم الذي وزَّعت فيه المدرسة أرقامَ الجلوس، وهي عبارة عن أوراقٍ خضراء مُقَوَّاة مستطيلة، وحينها عرفنا أن الاختبار سيكون في المدرسة المحمدية بالرياض، وتقع في طريق سلام على مقربة من مقر المحكمة الكبرى الحالي، وكان لابد من رحلة لاستكشاف مقر الاختبارات، وكانت الرحلة قُبَيْلَ إجازة الحج من عام ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م؛ ولهذا ذهبت سيرًا على الأقدام إلى مقر المركز بصحبة الخال عثمان رَحِمَهُ اللهُ وذلك بُعيد صلاة الفجر.

تحرّكنا نجتاز ذلك الفراغ الفاصل بين بلدة منفوحة ومدينة الرياض،
وحين وصلت إلى المدرسة المحمدية، تجوّلت في أرجائها أبحث عن
اسمي في أي صالة سأكون، ووجدت عددًا من طلاب المدارس
الأخرى يشدون أماكنهم؛ فالاختبارات بعد إجازة الحج مباشرة.

وكانت الاختبارات في كامل المقرر الدراسي، فالعام الدراسي
واحد، ولم يُقسّم إلى فصلين كما هو الحال الآن، وتحدثت مع بعض
الطلاب والنفس مزهوّة؛ فقد شعرنا بالرجولة والاهتمام. فهذه
الاستعدادات التي تقدّمها الوزارة، وإن كان التربويون يرون فيها
ترهيبًا وتخويفًا للطلاب، فإن الجانب الإيجابي فيها هو إشعارنا
بالمسؤولية، وإعلامنا بدورنا في الحياة، وأنه لا بد من الحزم والجِدِّ؛
ولهذا حين التقيتُ في المركز بأقراني كان الزهو والاعتداد بالنفس قد
ملا جوانحنّا، ونقلنا من عالم الصغار والفتوة إلى عالم الكبار والرجولة.

وبعد الانتهاء من رحلة الاستكشاف، تسوّقنا، وفي أثناء العودة
كانت الأحلام باجتياز المرحلة الابتدائية تداعبني، وخيالات ما بعد
المرحلة الابتدائية تمرّ بي، فيا ترى في أي مدارس المرحلة التالية سأختار
وسأكون؟! هل أواصل في التعليم العام بإحدى المدارس المتوسطة؟
أم أتحوّل للمعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام؟ وهكذا كنت أفكّر،
ولكن لا بد من أخذ رأي أخي الأكبر ثنيان في الأمر.

تجربة الألم الأولى

عُدنا مشياً على الأقدام إلى منفوحة قبيل غروب الشمس، ومررنا في طريق عودتنا بمدرستي الحبيبة، غير أنني بعد أمتارٍ يسيرة من المدرسة، وبصورة مفاجئة شعرتُ بألمٍ شديدٍ في قدمي اليمنى، كأن طَلقة رصاصٍ أصابتها، وكِدْتُ أسقط على الأرض، وبدأت أتلوى من الألم على الأرض تارة، وأقفز إلى أعلى تارةً أخرى، وذُهل الخال من حالتي؟!

وفي اللحظات الأولى للألم، لم يكن الخال يدري ماذا يحدث لابن أخته؟ أهو عائنٌ شدَّته نضارة الفتى وقفزاته، أم هو حاسدٌ لمح قرين أبنائه وغازته نجابته وفتوته، أم هو مهمومٌ وجد أمامه يافعاً فرماه بسهامه وهمومه، أم هي لسعةٌ أفعى أو لدغةٌ عقرب لم نرها؟ لست أدري؟ فأخذ الخال يسمي ويحوقل ويتعوذ!

أدركت ما أصاب الخال من الفزع؛ فتحاملتُ على نفسي، وطمأننته على سلامتي بوصف ما حدث عارضاً يسيراً، حتى إذا ما وصلتُ الدار، ارتميتُ في أحضان والدتي رَحِمَها اللهُ، وشكوتُ لها ألمي؛ فعَوَّذَتْ، وسمَّتْ، ومسَّحتْ، وضَمَّدَتْ، وطمأننتْ، وقرأتْ، وطَبَّبتْ، وجاءت بالدقيق وعجنته بالزيت، وربطت موضع الألم بتلك العجينة.

وبتُ تلك الليلة المؤلمة بين اليقظان والنائم جالساً وراقداً، متأوهاً

حينًا، وصامتًا ذاهلاً حينًا آخر، أرقبُ النجوم، وأسكبُ الدموع،
وأرقبُ أُمي، وأنشدُ هدايتها، وأتصبرُ حين أشعرُ بحركتها، وأطمئنُ
لقربها ودعائها الذي تلهجُ به وتردِّده. وقبل أذان الفجر رأيتها تتوضأ،
وتستقبلُ القبلة، وتصلِّي وتجهشُ بالدعاء والبكاء؛ وكأنها وهي تسهر
مع ولدها المتألم وحبیبها المتوجع، تُطبِّبُ ألمه، وتُرفِّهُ عنه؛ تتذكرُ
إخوتهُ الراحلين وأطفالها الثمانية السابقين، وتخشى ما لا تنطقُ به.

وفي الصباح رأيتُ القدمَ وقد تورَّمت، وصار الألم يشتدُّ أكثر،
وأصبحتُ طريح الفراش، وأصبحتُ الحركةُ تؤذيني، والألمُ يزداد،
والآهاتُ تتصاعد، وصارت راحتي في الهدوء وعدم الحركة...



حكايةُ قَدَمي

وبدأتُ قصَّةُ قدمي اليُمْنى مع الألم والمعاناة، فبعد أسبوعٍ من بداية الألم، ازداد انتفاخ القدم، ووصل للساق والفخذ، وأصبحتُ رجلي كأنها رقبةٌ بعير، وتكوّر الورم بين الكعب وأسفل القدم، ولم تُفلح خلال أسبوعٍ جميع محاولات العلاج الذاتي داخل البيت... وبسبب الألم والأنين؛ رَقَّ لحالتي الصغار والكبار، وبكتُ لبكائي الأمُّ والخالة، وكانت والدتي رَحِمَها اللهُ ترمُقني وعيونها تدمع، وترقبني وقلبها يخفق، وأحسبها تودُّ لو أنها تحمّلت آلامي، وأجزمُ أنها تمتُّ لو قاسمتني أنيني؛ فهي سريعةُ البكاء، رقيقةُ الحشا، نديَّةُ العواطف.

وبينما كنت طريح الفراش؛ إذ بي أسمعُ صوت أخي الأكبر (ثيَّان) بالباب، وقد جاء ليطمئنَّ على والدته وأخيَّ الصغير، كما كان يفعل بين الحين والحين.

وحين رأى الأخ (ثيَّان) حالتي، وحالة أُمي رَحِمَها اللهُ التي وهنتُ ألمًا وحسرةً على وليدها الصغير، صار يسأل عما حدث، ومتى، وأين؟

وأدرك على الفور أسي الوالدة، ولمح عبرتها، وتجلّد، ولكنه لم يستطع مقاومة نسيج الوالدة ودموعها، فرق قلبه، وغلبته عواطفه، فبكى لبكاء أمّه، ونحب لنحييها، وسالت دموعه على وجنتيه، ثم أسرع على الفور يبحث عن سيارة أجرة لينقل أخاه إلى الطبيب، فلم يكن يملك سيارةً لا هو ولا الوالد ولا الأخوال. وجاء السائق (علي الجريسي) على عجلٍ بسيارته (الفلكا)، وكأني أراه الآن بعد تلك السنين الطويلة، وأكاد أسمعه يقول: سوف أحمله إلى السيارة، دلّوني عليه، أين هو؟ وحين اقترب وحرّكني من مكاني صرخت بأعلى صوتي، فارتدّ مذعورًا لا يدري ماذا يفعل؟ وتجمّعوا حولي يتشاورون كيف يحملونني، وأنا أرجوهم أن يتعدوا عني، فكلّ نسمةٍ تؤلمني، وكلّ حركة تبكينني، فرحمني الحضور، وتخيروا كيف ينقلوني إلى السيارة، ثم كيف سأركب، ثم كيف سأنزل، وأنا بهذه الحال الحرجة، ورقّت قلوب الجميع، وغلبتهم الرحمة والشفقة على الصغير المريض.

وأخيرًا قرّروا أن يذهب أخي لعلّه يجد طبيبًا يحضر بنفسه ليتفحص الحالة، ويعطي الدواء، وبعد بُرهةٍ من الزمان، جاء الطبيب الذي فحصَ وطمأنَ وصرفَ أدويته، وكنت أنظر لأخي وهو يترفق مع الوالدة، ويحاول أن يخفّف عنها وعني، ولكنني كنتُ أخالسه النظر،

وأشعرُ بوجَلِه، بل أكاد أسمعُ خفقاتِ قلبه؛ أسيَّ على والدته وأخيَّ المريض، وآتتِ المسكّناتُ أثرها، ولكن الألم كان يعاود، والسهر يلازم، والورم يزداد انتفاخًا. وبعد أيامٍ، ذهبنا لطبيبٍ آخر، ثم إلى المستشفى المركزي بمدينة الرياض، وهناك، وبعد سبعة عشر يومًا، قرّر الطبيب الجراح ضرورةَ فتح الورم المتكوّر، وذكر أن الصديد الذي بداخله هو مصدر الألم، ولا بد من إخراجِه من الجسم، واستسلمنا لقراره.

وبينما كان الطبيب في مهمته تلك؛ سقطتُ بين يديه مغشيًا من شدّة ما أصابني من الإرهاق، فقد كانت أيامًا وليالي أليمة ما تزال عالقةً بالذاكرة، وبعد تنظيف الجرح في المستشفى، عاد بي شقيقي -مدّ الله في عمره- إلى المنزل، وأنا أغطُّ في نوم عميق، ولم أستيقظ إلا في اليوم التالي.

لم تتوقف المعاناة بعد زيارة الأطباء، ولم يندمل الجرح باستخراج الصديد، بل استمرّ النزيف، وطال أمده، واستأنفت الرحلة إلى الأطباء، ثم العودة إلى المكوث في الفراش... ومَرّت الأيام، ومع انتهاء عطلة عيد الأضحى عام ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، كانت الاختبارات النهائية التي كنت أحلمُ بها، وكان من العسير أن يتحقّق الحلم تلك السنة مع هذه الآلام... كنت أنظر إلى كتبي وكُرّاساتي فأحزن؛ لأنني لم أعد قادرًا على النظر فيها من شدّة الألم، وقد أبكي من اليأس حين

يقع بصري على الورقة الزرقاء المستطيلة التي تحمل رقم الجلوس، ولم أتمكن من أداء الامتحان تلك السنة!!

وصرت أتقل من طبيب لآخر، غير أن طبيباً من عشرات الأطباء ما زلت أذكره، فلا يغيب عني انقباض الصدر الذي كنت أستشعره في مراجعته حتى الآن حال ذكره، كان يدعى (الجراح يحيى شكري)، وكانت عيادته في شارع الثميري شرق ميدان الصفاء بوسط مدينة الرياض، وكان علينا أن نراجعته مرتين في الأسبوع الواحد، وما زلتُ أتألم من ذكر تلك المراجعات، فقد كان يضغط بكامل قوته على الجرح دون أن يعبأ بصراخي وتوسلي بين يديه أن يرحمني، فيخفف من ضغطه على موضع الجرح، حتى إنه كان يزجرني، ويطلب مني الصبر والتحمل، قائلاً بجفاء: إن الرجال يصبرون!

آه!! كم بين الأطباء، وهم سفراء الرحمة، من هم قساة الطبع، غلاظ القلب! طالت المعاناة، وضعفت القدم، واستمرَّ النزيف، وانتهت الإجازة الصيفية للطلاب، وجاءت اختبارات الدور الثاني، ولم أتمكن من أدائها، وأنا طريح الفراش، والرجل تنزف، والأطباء متحIRON من استمرار الالتهاب والنزيف، فلم تنفع المضادات الحيوية، ولا التنظيف المستمر للجرح، وبعد قرابة أربعة شهور تطوّر الألم، ووصل

الالتهاب إلى العظم، وبدأت العظام تتساقط من فتحة الجرح كحبّات الأرز، وكان في شقراء طبيبٌ جراحٌ مشهورٌ يُدعى (الشافعي)، فقرّر الأهل شدّ الرحال إليه في شقراء، وكانت الرحلة. ومن ذلك الوقت بدأت العلاقة والقرب بالوالد **رَحْمَةُ اللَّهِ**، صَحْبَتُهُ إلى شقراء، وبُتُّ أنظر إليه بإعجابٍ وإكبار؛ أراه كبيراً، أراه سمحاً وقوراً، تجلّدتُ وأشعرته أنني بخير، وأن العارض يسير، وتعرّفتُ على أخي فهد، وأبناء عمي ناصر (محمد، وثنيان)؛ حيث صحبونا في تلك الرحلة الشقراوية.

وحين نظر الطبيب في القدم، وفحص الجرح، أمرني بالخروج، وأخبر والدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** وأخي ثنيان أنه لا بد من الصبر والتحمل، ولا بد من بتر القدم، فقد وصل الالتهاب للعظام، وسوف يتطور إن لم نتدارك الأمر ونبتر الرجل سريعاً من أعلى الكعبين.

وتكذّر والدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** وبسملٍ وحوقل، وقال: اتركوها، اتركوها. وعدنا إلى الرياض، ولم أكن أعلم بقرار الطبيب، ولكنهم قالوا: إن الطبيب يرى الاستمرار في تنظيف الجرح ومراجعة أطباء الرياض، ولا جديد لديه، وعلمتُ فيما بعد بقراره، فحمدتُ الله أنا لم نقبل علاجه، ولم نسمع رأيه. زُرْتُ شقراء مؤخراً والتقطتُ صورة مستشفاهما الذي كادت قدمي تُقطعُ فيه!



مستشفى الذكريات؛ ذكريات الألم، والشكر لله أن نجت قدمي من البتر.

أنا والطبّ الشعبي

وطال مرض قدمي، فلجأنا للطبّ الشعبي؛ لعلنا نجد عنده العلاج، ومن طبيبٍ لآخر، ومن مُدّعٍ لآخر، وتطوّع المحبّون، وتوالت الأخبار عن ذلك المعالج، وذاك القارئ. ولا غرو فالمريض وأهله يتعلّقون بكلّ شيء، ويصدّقون كلّ شيء، فالمرض -وقاك الله أيها القارئ ونجّاك- همّ وحزن.

وكما قال الخبير: الصحةُ تاجٌ على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا

المرضى. إي والله، تاجٌ وجوهر. كنت أرقب أقراني وأغبط فتوتهم، وأنظر للأصحاء وأرجو مجاراتهم. كانت الهواجس تعصف، والظنون تتوالى، والهموم تتراءى من كل جانب.

في لحظةٍ ما، ومع استمرار الألم، وقلّة الحيلة، قد يسقط العقل، وتنزل القدم، وفي وقتٍ لم يكن للعلم فيه مكانٌ كبير، وقعت الأسرة فريسةً للخرافة، حين عبثت بعض النسوة برأس أمي، وأخبرنّها أن ما بي ليس سوى مسّ جانّ، أو حسدٍ كارهٍ، فاندفعنا معصوبي العقل إلى زيارة أحد المشعوذين، نبحثُ عن دواء لما أصابنا من الداء.

وتحدّثت بعض النسوة أن (السيد الزُعبي) -وهو نصف مشعوذ- قالوا: إن لديه القدرة -بإذن الله- على شفائي مما أصابني من بلاء، فانطلقنا إليه في رحلة البحث الطويلة التي ما تركتُ باباً إلا ولجته، ولا وسيلة إلا تقربّت منها.

وفي تلك الحجرة الكئيبة القائمة التي ينقبض الصدر لدى وُلوجها كان لقائنا. كان (السيد الزُعبي) أسمر اللون، طويل القامة، هادئ الصوت، يَضَعُ في أصبعه الخنصر خاتماً فضيّاً يتلألأ، وكأن في هذا الخاتم عفريتاً يساعده، وفي غرفته التي قابلناه فيها ملابس بالية، وأوانٍ مبعثرة، وأرائك ممزّقة. وحين دلفتُ إليه، وقصصتُ عليه

حالي، تبسّم وبدأ سنّه الذهبي، وصار ينفث، ولم أفهم ما يقول، ولكنه بعد عشر دقائق، قال: الأمر يسيرٌ ويسير.

وكأنّي أرى الزعيبي وقد بدأ يتمتم ويعلو نفسه حيناً، وينخفض حيناً آخر، وقد أطفأ أنوار الحجرة إلا شمعة خافتة في جانب الغرفة، ثم أشعل ناراً، وقرب صندوقاً خشبياً. نظرت إلى الصندوق، فإذا به مجموعة أدراج؛ في كل درج نوعٌ من الأدوية كما يزعم، وها هو ذا يأخذ منها قليلاً ويرميه في النار، حتى تتصاعد الأبخرة، ويهيج الدخان، وتسيطر على جو الغرفة رائحةٌ نفاذة، تضيفُ كراهةً جديدةً إلى كراهتها.

ظل الزعيبي يتمايل ويتمتم، ويطلبُ منّي أن أتشقّ ذلك الدخان، وفي نهاية جلسته؛ أعطانا بعض الأدوية، وأمرني أن أضعها في ماءٍ فاترٍ وأشربُ منه صباحاً ومساءً. ثم قال لنا: أرسل غداً أحد أثوابك، وسوف ترى الشفاء قريباً، وخرجنا ولم نرسل له الثوب، بل إن الوالدة سرعان ما قذفت تلك الوصفة العلاجية، واستغفرنا الله، وبحثنا عن القراء، وتحريّنا أيّهم أصدق وأصفى، وأيّهم أقربٌ للتقوى، ومن قارئٍ لآخر... حتى جاءت الأخبارُ عن السيدة (ردّاسة) رَحِمَها اللهُ.



ردّاسة

في الأسبوع الأول من شهر رجب عام ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م؛ أي بعد ثمانية شهور من الألم، ذكر الرواة امرأة تُعالج بالطبّ الشعبي تُدعى السيدة (ردّاسة) منيرة بنت هابس بن شبيب الرواسن رَحِمَها اللهُ، وأنها خبيرة، وسبق أن عالجَتْ حالات وُشِفِيت، ونصحونا بعرض القَدَم عليها، وتحيرنا يا ترى هل نذهب إليها أم نلازم الأطباء؟ والأطباء يرون القطع؛ والرجلُ تتناقص، والعظمُ يتفتّت، ولم تعد تحملني، فلا أتحرك إلا بالعكازة. وصرنا في حيرةٍ ووجوم، وترددٍ وتوقّف، وبتنا نسمع تزكيةً لهذا الطبيب، ومدحًا لذاك الحكيم، وتجربةً من هذه، وإطراءً لتلك. والعليلُ كالغريق يتشبّث بكل ما يراه، ويُصدّق كل ما يسمع. أسأل الله لك أيها القارئ، الصحة والعافية؛ فهي والله أجلّ النعم وأعظمها.

المهم أننا توكلنا على الله، وتوجّهنا إلى منزل المرحومة (ردّاسة) بوسط مدينة الرياض في حي (الوسيطاء)، ورافقتنا في المرة الأولى ابنة الخالة رَحِمَها اللهُ والدّة صديق الطفولة أخي عبدالرحمن بن فهد السويلم

-رعاه الله وحفظه- فقد سبق أن تعاملت معها، وحين وصلنا الدار وجدناه دارَ نعمةٍ ورخاء، وبيتَ فخامةٍ وبهاء، ووجدناها امرأةً حيَّةً فاضلةً ذاتَ خُلُقٍ ودين، وسمتٍ وحياء، آتاهها الله بسطةً في الجسم، وبسطةً في العقل، ونظرتُ في ملامح الدار، وصرتُ أربطُ بينها وبين دور أولئك المشعوذين؛ فهذا قصرٌ مهابةٍ ووقار، وبيتٌ نظافةٍ ورحابة، وشتانٌ بينه وبين دور أولئك الدَّجَالين، وأحسنا بالطمأنينة والثقة، وحين رأتِ القدمَ وفحصتِ الجرحَ طمأنت، ووعدتُ بالعلاج، وكانت واثقةً من نفسها، وذكرتُ أن العلاجَ سيكون بالكَيِّ وبأعشاب تُطبخ ويُشربُ ماؤها، وأخرى تُعجن وتُربط بالجرح.

وعُدنا بعد أن سمعنا رأيها، ولكن الوالدة ترددت في قرار الكي، وتخوّفت من تبعاته، فقد كانت تسمع أقاويل بعض المشعوذين بأن ابنك قد يكون مصاباً بعين جان، وكان النسوة يقلن لها: إن المصاب بمسّ الجان أو عينه إذا كُوي مات، ويُخوَّفونها من الكيِّ، ويحذرونها من تبعاته. وكانت الروايات تُروى عن موت هذا بعد كيِّه، وموت تلك بعد كيِّها. وصارت الوالدة حائرةً مضطربةً، ما تدري ماذا تفعل، وظلّت ذلك اليوم مستغرقةً في التفكير؛ تستشيرُ الأخ والأخية، وتتنظرُ الأخ ثنيان أن يأتي لتأخذ رأيَه، وكانت ترنو إلى تارةً، وتسرح في خيالها تارةً أخرى، وحين صلينا العشاء في الليلة التالية، وعلى ضوءِ القنديلِ

الْمُرْتَعَشُ صَارَتْ تُخَالِسُنِي النُّظْرُ، وَتَعَطَّلَتْ لُغَةُ الْكَلَامِ، وَبَاتَ الْوُجُومُ
سَيِّدَ الْمَوْقِفِ، وَظَلَّتْ شَمْعَةُ الْقَنْدِيلِ تَرْتَعَشُ؛ فَيَهْتَزُّ النُّورُ خَافِتًا،
وَيَرْتَجُّ الضُّوْءُ وَكَأَنَّهُ يَشَاطِرُنَا الْأَسَى، وَيَتَهَايَلُ وَكَأَنَّهُ يُبَادِلُنَا الْجَزَعَ،
ثُمَّ أَخَذَتْنَا سِنَةُ النَّوْمِ، وَلَكِنْ بَعْدَ مُتَتَصِفِ اللَّيْلِ، اسْتَيْقَظْتُ وَزَحَفْتُ
إِلَى الْقَنْدِيلِ، أَنْظُرِ الْجَرَحَ النَّازِفَ، وَأَمْسَحْ مَا حَوْلَهُ، وَأُدْلكَ قَدَمِي،
وَأَحْسِئْ أُمِّي رَحِمَهَا اللَّهُ بِحُرْكَتِي، فَهَبَّتْ مَذْعُورَةً تُعَوِّذُ وَتُسَمِّي، وَتَبَادَلْتُ
مَعَهَا نَظْرَاتِ التَّشَاكِي وَالتَّشَاوُرِ، وَتَحَاوَرَتِ عَيْنَايَ وَعَيْنَاهَا، وَتَخَاطَبَتِ
مَقْلَتَايَ وَمَقْلَتَاهَا، وَكَأَنهَا تَقُولُ: مَاذَا أَفْعَلُ يَا وَلَدِي، وَأَقُولُ: مَا الْقَرَارُ
يَا أُمِّي؟ وَتَقَاطَرَتِ دُمُوعُ الْحَيْرَةِ وَالْأَلَمِ، ثُمَّ هَبَّتْ لِمَصْلَاهَا تَسْتَخِيرُ
وَتَسْتَغِيثُ، وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَا، وَيَا كَاشِفَ
السُّوءِ، اكْشِفِ السُّوءَ عَنِّي وَلَدِي، ثُمَّ عَلَا صَوْتُهَا وَنَشِيجُهَا، وَنَسِيتُ
مَا حَوْلَهَا، وَصَارَتْ تَبْكِي وَهِيَ سَاجِدَةٌ، وَتَصِيحُ وَهِيَ مُطْرِقَةٌ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وَظَلَّتْ تَرُدُّ دَعَاءَ نَبِيِّ اللَّهِ ذِي
النُّونِ وَهُوَ فِي ظِلْمَاتِ الْبَحْرِ، وَظِلْمَاتِ الْحَوْتِ، وَظِلْمَاتِ اللَّيْلِ، ﴿فَكَادَى
فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ
مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأنبياء: ٨٧-٨٨]﴾. وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا مَنْ
اسْتَجَبْتَ لَذِي النُّونِ وَنَجَّيْتَهُ، أَسْأَلُكَ النِّجَاةَ لِصَغِيرِي، وَأَسْأَلُكَ
السَّلَامَةَ لِحَبِيبِي، وَنِمْتُ وَهِيَ غَارِقَةٌ فِي نَجْوَاهَا، سَابِحَةٌ فِي رَجَائِهَا.

ولا غرو، فهي أمٌ، وكم عند الأمهات من آهات، وكم لدى الأمهات من معاناة! يقول عصام العطار رَحِمَهُ اللهُ وقد فارق أمّه مُجبرًا:

وَأَدْمَعُ الْأُمَّ يَا لِلْأُمِّ هَلْ تَرَكْتُ لها دُمُوعًا وَأَجْفَانًا عَوَادِينَا

إِنْ أَسْعَدَ الدَّمْعُ فَاضَ الدَّمْعُ مِنْهُمْ أَوْ غَابَ مَدْمَعُهَا فَالْقَلْبُ يَبْكِينَا

إي والله، كان قلبها الباكي، وجسمها يرتجف، وكادت كبدها تلك الليلة تنفطر، ومضت ليلتنا بدموعها وأنينها، وفي الصباح وجدتها قد اتخذت القرار، وقالت: قد استخرتُ الله يا ولدي، وعلى بركة الله سوف نذهب إلى (ردّاسة) لتكويك، وعليك الصبر والتوكل على الله.

لسعات النار الأولى

في اليوم الموعد للعملية الشعبية التي لازالت ذكراها حاضرة، فمن ينسى لسعات النار! كان ذلك يوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر رجب عام ١٣٨٢هـ، كانت العملية الجراحية الشعبية، وأبطالها الطيبة السيدة (ردّاسة)، وثلاث نسوة أخريات يمسكن بالمريض، وجلستُ أرقبُ المشهد، وأنظر ماذا هي فاعلة، وإذ بها قد جهّزت مجموعةً من أسياخ الحديد؛ بعضها نصفٌ دائري والآخر ربع دائري، وقسمٌ مستقيم، وظلت تحرك

موقد النار، وتنفخ وتنفخ، وبين الحين والحين ترفع هذا السيخ ثم ذاك؛ لترى هل حميت أم ما زالت، وكانت تأمرني ألا أنظر إلى موقد النار، وكنت أخالسها النظر، وإذ بالأسياخ تحمر وتشتد حمرة حتى كأنها جهر يتوهج، وكنت كالعصفور الذبيح يتفص وقد أيقن بالمصير المؤلم، وأتى له الهرب، كنت أرقب المشهد، وأوقن بتلك النار الحامية، وتلك الأسياخ المتوهجة، وأنفص من هول ما سيقع، ومتى سينتهي، وأحسب أن والدتي رَحِمَها اللهُ أكثر حرقه والماء، وهي ترى النار وصغيرها يترقب. حالة رهبة، ولحظات مؤلمة؛ فالنار قاب قوسين أو أدنى. وفجأة أمرت (رداسة) والدتي رَحِمَها اللهُ بالخروج للغرفة المجاورة، ثم رمت على وجهي غطاءً لديها، وأمرتني أن أتمدد على بطني، وأمرت النسوة المرافقات أن يمسكن بي، فالأولى للرأس واليدين، والثانية للرجلين، والثالثة تضغط على ظهري، وبدأت (رداسة) في الكي، ولا مخدر، ولا مسكن، ولكن الصبر والتحمل والأنين والألم. وهاوت تلك الأسياخ على جسمي الناحل، وكلما وسمتني بواحد وخفت حرارته، استبدلته بالذي في النار حتى انتهى النصاب الذي حدّده، وأنا قد بلغ الجهد مني مبلغه. وحين انتهت، قالت: لقد حلقت على الساق، وعملت دائرة من الكي على الجرح،

ثم على الرأس، ثم الرقبة، وجاءت الوالدة بسرعة، وانكبّت
تقبّلني وتضمّني، وتقول: ليتني مكانك، ليتني تحمّلت عنك.
ما أصبرك يا ولدي! بشّريني، طمئنيني. ثم التفتت للمعالجة
تسألها، وقالت الطيبة: أبشري هو بخير، وسوف يبرأ -إن شاء
الله- من جرحه، وكنت أنتفض من شدة الألم؛ فلا مخدّر، ولا
مهدّي، وظللتُ مُلتصقًا بالوالدة رَحِمَهَا اللَّهُ، ثم تناولتُ (ردّاسة)
خلّطات من الأعشاب، وأمرتنا بوضعها على الجرح، وأحضرت
زُجاجةً فيها شرابٌ أسود اللون، أمرُّ من العلقم، وأمرتني أن
أشرب منه ملعقةً في كل يوم مرتين. وعُدنا إلى البيت، والوالدة
يخفق قلبها، وتدمع عيناها، ويلهج لسانها بالدعاء والتوسل
لصغيرها بالشفاء، وباتت أُمي رَحِمَهَا اللَّهُ تلك الليلة كلما نظرتُ إليَّ
أسبلت دموعها، وأحمرّت وجتها، ولعلها تتذكر لحظات الكي،
وكيف تحمل صغيرها، وكيف بكى كبدها. رحمك الله أمّاه: كم
حزنت وتألّمت، فاللهم اكتبها من عبادك السابقين، واجمعني بها
في الفردوس الأعلى.

وبعد عشرة أيام من الكي، بدأ النزيف يخفُّ ويخف، وأحسستُ
بالأمل، وبدأت الرجل تتعافى، وصرتُ أقفُ عليها متوكّئًا على العصا،
وخطوتُ بعض الخطوات، ثم صرتُ أقفزُ وأقضي حاجاتي في دورة

المياه، وأنتقل من غرفةٍ لأخرى، وكأني أنظر لذلك اليوم الذي خطوت فيه على رجلي الناحلة، وكيف هللت والدتي رَحِمَهَا اللَّهُ، فكأني طفلٌ بدأ يخطو، وضغطتُ على قدمي بعد تسعةٍ شهورٍ من رقدتي على الفراش وزحفي لدورة المياه...

شهورٌ تسعة، مضت من حياتي وأنا عليلٌ صابر.

شهورٌ تسعة، خلّت وأمي باكيةً داعية.

شهورٌ تسعة، انطوت من عمري وأنا حزينٌ؛ أرى قدمي يسيل صديدها، وتفتت عظامها، ولا حول لي ولا قوة. شهورٌ تسعة، وأمي تتحسّر وتنوح، وتهمُّ بين الحين والآخر بلعق قدمي، لعل الجرح يخفّ ويقف.

واستبشر الأهل كلُّهم، وهللَ الوالدُ ودعا، وهنَّائي الزملاء والأحبة.

الكَيُّ الغائرُ الثاني!

بعد أن استجابت قدمي للعلاج الناري وخفَّ صديدها، وتوقف تفتت عظام القدم، وفي الأسبوع الأول من شهر شعبان عدنا إلى السيدة (رداسة) رَحِمَهَا اللَّهُ، وحين رأت القدم وقد خفَّ الألم، وتوقف النزيف بنسبة ٨٠٪ تقريباً قالت: الحمد لله لقد استجابت

الرجل للعلاج، ولكن لا بدّ من وجبةٍ أخرى، وكَيّ جديد؛ لكي نقضي على النزيف ونوقّف الصديد. فقلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم صبرني. وقالت: موعدكم بعد غدٍ، وبدأت حكاية جلسة العلاج الأخرى. وحين جاء اليوم الموعود وجدتُ تلك النسوة، وإذ بالسيدة (ردّاسة) قد أحضرت عددًا من أسياخ الحديد، مختلفة عن سابقتها؛ إذ كل سيخ مُكوّرٌ رأسه، وكلُّ واحدٍ أكبر من الآخر؛ فهذا رأسه كحبة القهوة، والثاني أكبر منه قليلًا، والثالث أكبر، وهكذا قرابة سبعة أسياخ، وأعادت المشهد السابق؛ إيقاد للنار حتى صارت الأسياخ جمرًا يتلظى، وكانت تأمرني ألا أنظر، وأن أُغمِضَ عيني، ثم أمرتِ الوالدة بالخروج فتردّدتِ الوالدة رَحِمَها اللهُ، ولكن السيدة (ردّاسة) أمسكتُ بها وذهبتُ بها للغرفة المجاورة، وأجلستُها هناك ثم عادتُ، وأمرتني أن أنكبَّ على وجهي وأتمدّد كالمرّة الأولى، وقامت النسوة المرافقات فأمرتهنَّ أن يُمسكنَ بي، وقالت: أنتِ يا مريم، -وكانت أنشطهن- اجلسي واضغطي قدمه على الأرض، وأنتِ يا هند، امسكي برأسه وكتفيه، أما أنتِ يا فاطمة، فلكِ الفخذان وبقية الجسم، ونادت: يا علياء ناوليني الأسياخ من النار، وبدأتِ الأسياخ تنهاوى على قدمي العليّة، وكان الألم هذه المرّة أشدّ؛

كانت تكوي الجرح من داخله وتضغط بالحديد المكور بقوة،
وطار عقلي من شدة الألم، وصرت أصرخ بأعلى صوتي: أرجوك
ارحميني، أرجوك يكفي يكفي.

ومع الصراخ والتوسل؛ حنت النسوة الممسكات، ورقّت قلوبهنّ،
فالموقف رهيب، فتمكّنت من التدحرج من بينهن، فعلا صوت
الطبيبة (رداسة) وارتفع: أن أمسكوه، وإلا فسوف أكوكنّ بدلاً عنه،
يا لها من امرأة قوية وشجاعة! ويا لها من امرأة شديدة وصلبة رَحِمَها اللهُ،
وأسكنها فسيح جناته! وكانت والدتي رَحِمَها اللهُ تصيح في الغرفة الأخرى،
تقول: يكفي يكفي، ولم تتحمل صراخ ابنها، فجاءت والهة باكيةً
مسرعةً، وهي لا تكاد تشعر، وسقطت على وجهها، ثم قامت، ثم
سقطت، وكنت بين آلام الكيّ وآلام أمي، لكن إحدى النسوة أسرعت
إليها، وأمسكت بها، وكنت قد أعغمي عليّ من شدة الألم، وصحوت؛
وإذ بالنسوة يرششن بالماء على وجهي، وأنا في حضن الوالدة ودموعها
تساقط على وجهي، وأحسست ببرودة تلك الدموع، وكأنها مطرٌ
يطفىئ تلك النار المحرقة، ثم تلوّث بي وصارت تقبّلني، وتقول: ليتني
امتنعت، ليتني ما وافقت، ليتني كنت بدلاً منك، باسم الله عليك
يا حبيبي، باسم الله عليك يا قرّة عيني، باسم الله عليك يا كبدي.
وأذكر أن النسوة الممسكات بي تأثرنَ بالمشهد، وأجهشن بالبكاء؛

رحمةً بالأم وصغيرها، وقامت السيدة (رداسة) - ولعلها تأثرت هي الأخرى - وابتعدت داخل الدار بُرهةً من الزمن؛ ليهدأ المشهد.

ولقد ضاعف من كرب والدتي رَحْمَةُ اللَّهِ أَقَاوِيلُ النساء: بأن ابنك قد يكون فيه مسُّ جانٍ، وإذا اكتوى مات. لقد تحمّلت والدتي رَحْمَةُ اللَّهِ ذلك الموقف الرهيب، وتلك اللحظات الحرجة وصغيرها يصيح وهي تنظر، وطفلها يتوسّل وهي ترقُب، ولا حول لها ولا قوّة.

آه يا أمّاه! كم تألّمت! وكم تحسّرت! وليتك لم تشهدي ذلك الموقف، ولكن ما الحيلة، وما العمل؟! أسكنك الله فسيح جناته، وكتبك من عباده السابقين، وجمعني الله بك في عليائه.

وغادرنا منزل الكاوية، وارتمتُ بالسيارة، واحتضنتني الوالدة، وهي تُعوّذ وتسمّي، ودموعها تتقاطر طيلة الطريق، بل كأني أرى دموعها وقد خدّدت وجنتيها، وكأني أنظر لمقلتيها وقد احمرّت من البكاء والأنين، وأحسست وأنا في حُضنها أن قلبها يكاد يطير، وأن خفقانه يزداد، وخشيت عليها، وصارت يداي تتلمّس صدرها ونحرها، كأيدي الآمي يجسّ عليلاً، ونسيت آلامي وأوجاعي، وحين وصلت أنا ملي لنحرها انكبّت تلثم وتبكي وتدعو وتشهق، حتى إن السائق تأثر للمنظر الحزين، وأجهش في البكاء؛ رحمةً بالأمّ

وصغيرها، ودار الحوار الآتي:

أمّاه: يا أمّاه: أنا بخير، انتهى كلُّ شيء، ويكفي البكاء.

يا حبيبي: شفاك الله لقد كان المشهد مؤلماً، والمنظر مرعباً.

أمّاه: يكفي البكاء أرجوك، أنا بخير أرجوك.

يا ولدي: دَعْنِي أَنْفُسَ عَنْ نَفْسِي، دَعْنِي أَسْكُبُ دُمُوعِي، دَعْنِي أُرِيحَ نَفْسِي.

يا ولدي: أبكي لمنظرك وأنت بين يدي الكاوية.

يا ولدي: أبكي لحالك والنسوة يَجْثُمْنَ عَلَيْكَ، ولا حول لك ولا قوّة.

يا ولدي: أبكي لصراخك تحتهنّ.

يا ولدي: أبكي لمنظر النار المتوهجة والأسياخ المتهاوية على رجلك الناحلة وقدمك المتفتّنة.

يا ولدي: كأن تلك الأسياخ وهي تتهاوى على جسمك الشاحب، تتهاوى على كبدي.

يا ولدي: كأن النار في الموقد، والأسياخ وهي تلسع جسمك، كأنها تلسع قلبي قبل جرحك المهتري.

يا ولدي: تكاد نفسي تطير، وأحسب روحي تخرج، ولا حول لي ولا قوّة.

يا ولدي: لقد تمنّيتُ لو أن الكاوية أشركتني في التحمل عنك.

يا ولدي إنني أمّ، يا ولدي إنني أمّ.

ووصلنا إلى الدار، ورأى الأهل حسرة الوالدة، وآثار النار في قدم الصغير، فأسوها، ولكن أخت الوالدة خالتي منيرة رَحِمَهَا اللهُ أَجْهَشَتْ بالبكاء؛ رحمةً بأختها وابنها.

وفي المساء، وحين غارت النجوم، ونام السُّمَار، استيقظني الحنين والأنين، وإذ بأمي في مصلاها تحنّ بين يدي ربّها، لقد نسيّت نفسها، وتعلّقت بخالقها وباتت تُناجي ربّها وتدعوه، وأحسستُ بالطمأنينة والهدوء، وخلتُ الملائكة وقد حضروا واقتربوا وأنصتوا يسمعون الدعاء، ويؤمّنون مع المسكينة الحزينة. وما زلتُ أحفظ شيئاً من دعائها في تلك الليلة، وأحسبها تقول: اللهم لك الحمد، أنت نُورُ السماوات والأرض، ولك الحمد؛ أنت بهاء السماوات والأرض، ولك الحمد؛ أنت زين السماوات والأرض، ومن فيهنّ، ومن عليهنّ؛ أنت الحقُّ، ومنك الحقُّ، اللهم اشفِ حبيبي، اللهم اجعله هاديّاً مهديّاً، اللهم أبرئِ سقمه، واشفِ جرحه، وفكّ أسرهِ، اللهم وفقه في دينه ودنياه، اللهم اجعله وحيّاً في الدنيا والآخرة، اللهم أعزه وأعزّبه، اللهم زيّنه بين الأنام كما زيّنت الجمعة بين الأيام!

ورأيت آثار دعائها في دنيائي، فقد برئت رجلي، وتحسنت حالي.
وهنيئاً لمن رزقه الله أمماً حانية، وسعداً لمن كسب دعاء والديه.

وبعد الكيّ الثاني بأيام، توقّف الصديد، وفي نهاية الأسبوع الأول
من شهر رمضان المبارك عام ١٣٨٢هـ رميت العصا، ومشيت على
قدمي الجريحة، وفكّ الله قيدي، ونجوت من بتر رجلي. فله الحمد
والشكر، وللسيدة (ردّاسة) الدعاء والرحمة.

وحين رميت العصا، وتوقّف الصديد، زرنا السيدة (ردّاسة)؛
زيارة شكرٍ ودُعاء، وتناولنا وإياها رُطباً جنيّاً، وقهوةً بيدها الكريمة
رَحِمَهَا اللهُ، وتداخل الحديث، وكانت جلسةً سرورٍ وبهجة، بعد جلسات
الآلم والعناء، وعند المغادرة ضحكت -أسكنها الله وأمي الفردوس
الأعلى- وقالت: أنت ولدي وأول راتبٍ تستلمه من الحكومة هو
لي، فقبلت رأسها، ونعمت وأكّدت، وأحمد الله حين استلمت أول
مكافأة من معهد الرياض العلمي أسرعُ إليها، وقبلت رأسها،
وسلمتها لها، فضحكت وفرحت بسلامتي وعودتي لدراستي.

في مكة المكرمة لأول مرة

في شهر رمضان الكريم من عام ١٣٨٢هـ -١٩٦٢م؛ أي بعد
تسعة شهور من بداية مرضي، ودّعتُ آلامي، وطويتُ أحزاني،

واندمل جرحي، وشاركت قَدَمي اليمنى أختها اليسرى في حركتي.

وفي الأسبوع الثاني من الشهر الكريم، صَحِبْتُ الوالدة وأختها الكبرى خالتي لطيفة إلى مكة المكرمة، وكانت الرحلة المكيّة بسيارة (ونيت) مستأجرة، وكان الطريق إلى مكة في أغلبه تُرابيًّا؛ ولهذا ظَلَّت السيارة تمتحُ الطريق ثلاثة أيام حتى وصلنا إلى مكة المكرمة، وهناك استأجر أخي ثنيان - حفظه الله - أميرُ الرحلة، بيتًا شعبيًّا قريبًا من الحرم، بل أصبح الآن جزءًا من توسعة الملك فهد رَحِمَهُ اللهُ، وتلك هي السنة الأولى لزيارتي لمكة؛ حيث ما زالت بعض المواقف عالقةً بالذاكرة؛ كمنظر الساحات المحيطة بالكعبة وقد فرشت بالحصباء، ومُدَّت عليها السجاجيد الحمراء، وتلك الجِرات الفخارية وقد نُثرت أمام المصلين. ولا أنسى سُقاة زمزم بلباسهم المكاوي، وكأني أرى أحدهم وهو يعبث بصحونٍ صغيرة بين أصابعه يسكب فيها الماء من الجرة، ويتطلع لقروشٍ يجودُ بها الزوار. وقد أدَّيتُ العمرة طوافًا وسعيًّا على قدمي التي كادت أن ترحل قبل موعدها المقدَّر، وكُنْتُ أتحسّس القدم، وكذلك كانت أُمِّي رَحِمَهَا اللهُ تتحسّسها معي بين الحين والآخر. أحقًّا جفَّ صديدها، وتوقّف نزيهها؟ وهل عادت سوية كأختها؟ وأحمدُ الله أن صارت نظيفةً ومُعافاة، ولم يحدث خللٌ في الحركة والمشي، وإن بقي أثر الجرح غائرًا فوق الكعب.

وأمضينا ذلك الشهر الكريم في حرم الله؛ نسعد بالعبادة، ونشكر الله على العافية، وأحمد الله فقد كنت مولعاً بالقراءة؛ أنشدُ الكتبَ وأقرأؤها، وأبحثُ عن القصص وأسهر مع أحداثها، وصدفةً وأنا خارجٌ من الحرم ذات يوم؛ مررتُ بإحدى المكتبات التجارية، ورأيت الكتب معروضةً على قارعة الطريق، ولمحتُ المجلات مبسوطة في المدخل، وعلى جانبي المكتبة، استوقفني كتابٌ ظللتُ أقلبُه، وإذ به يتحدث عن الصحابي الجليل عروة بن الزبير بن العوام، وكيف بُترت قدمُه، وقُطعت رجلُه، فاشتريتُ ذلك الكتاب، وقرأتُ تلك القصة مرّةً تلو أخرى، وخشيت أن تكون قدمي كقدم ذلك الصحابي الوقور، وأين أنا منه، ومن صبره وإيمانه، وأين أمي من أمّه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين.

إن قصةَ قَدَمي شهادةٌ لمدرسة الطبِّ الشعبي ووسائله البدائية: الكي، والأعشاب، والجبائر، والعجائن، فقد كِدْتُ أفقد رجلي، وأصْحَبُ الرَّجْلَ الصَّناعية والعربة والعكَّازة، لولا عناية الله، ثم طبُّ السيدة (رداسة) رَحِمَهَا اللهُ وأسكنها فسيح جناته.

هذا، وشاء الله وقدر أن تمتدَّ علاقتي بوالدتي الأخرى السيدة (رداسة)؛ فبعد زواجي ومولد ابني الأول تركي، كان الطفل دائم البكاء في سنته الأولى، وبعد معاناة ومراجعة للأطباء، لجأنا لطبيبة

الأب السيدة (ردّاسة)، واستطاعت إقناع زوجتي بكَيِّ الصغير
كَيًّا خفيفًا، ومَسَّتْ يَدُهَا المباركة ولدي تركي، وبعدها برئ
الصغير بإذن الله.

إن آثاريـد الوالدة (ردّاسة) رَحِمَها اللهُ باقيةٌ خالدةٌ في قَدَمي ورأسي
ورقبتي، وخالدةٌ في بطن ابني تركي ورأسه ورقبته. جمعنا اللهُ
بها ووالدتي في الفردوس الأعلى.



عودة الألم

إِنَّ قَدَمِي، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ بَرِئْتُ وَسَلِمْتُ مِنَ الْبُتْرِ، فَإِنِّي بَتُّ
أَشْعُرُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ بِالْأَلَمِ فِي تِلْكَ الْقَدَمِ الضَّعِيفَةِ، وَمَا زَالَتْ
الْآلَامُ تَعَاوِدُنِي، وَأَحْمَدُ اللَّهَ أَنَّهُ لَيْسَتْ مَزْمَنَةٌ، وَلَكِنهَا تَرْوَحُ وَتَجِيءُ،
وَإِنِّي وَإِذَا أَكْتُبُ هَذَا الْفَصْلَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، أَحَسِسْتُ فِي الْأُسْبُوعِ
الْمَاضِي، وَتَحْدِيدًا آخَرَ اللَّيْلِ مِنْ فَجْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ٥ / ١١ / ١٤٤١ هـ أَنَّ
الْأَلَمَ قَدْ عَاوَدَنِي، فَتَحَامَلْتُ عَلَى نَفْسِي، وَأَمْسَكْتُ بِالْعَكَازِ حِينَ ذَهَابِي
لِدَوْرَةِ الْمِيَاهِ وَصَلَّيْتُ جَالِسًا، لَقَدْ مَكَّثْتُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَقَدَمِي بَيْنَ
يَدَيَّ تَدْلِيكًا وَمَسْحًا. هُوَ الْأَلَمُ وَرَحْلَتُهُ الَّتِي امْتَدَّتْ مَعِيَ سَتِينَ عَامًا،
فَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ مِنْ عَامِ ١٣٨١ هـ، كَانَتْ الْبَدَايَةُ، وَمَا زَالَ يَطْرُقُ
فُجَاءَةً دُونَهَا سَبَبٌ. لَقَدْ اسْتَمَرَّتْ حِكَايَتِي مَعَ الْأَلَمِ سَنَوَاتٍ؛ فَمَا أَنْ
أَحْسُ بِالْأَلَمِ إِلَّا وَتَتَوَقَّفُ الْقَدَمُ عَنْ تَحْمِلِ الْجِسْمِ، وَأَحْتَاجُ لِلْعَكَازَةِ،
وَأَجْلًا لِلنَّارِ، وَكَأَنَّ الْقَدَمَ أَلْفَتِ النَّارَ، فَأَرْتَاخُ لِلْمَاءِ السَّاخِنِ، وَأَقْرَبُهَا
مِنَ الْمَدْفَأَةِ، وَكُنْتُ مَعَ مَوَاعِيدِهَا الَّتِي تَأْتِي فَجَاءَةً، وَدُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ،
كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيُّ مَعَ حُجَّاهُ وَمَوَاعِيدِهَا:

وزائرتي كأنَّ بها حياءَ فليس تزورُ إلا في الظلامِ
 بذلتُ لها المطَّارِفَ والحشايا فعافتُها وباتت في عظامي
 أراقبُ وقتها من غير شوقٍ مُراقِبَةَ المشوقِ المُستهامِ
 ويصدقُ وعدُّها والصدقُ شرٌّ إذا ألقاك في الكُربِ العظامِ
 أبنت الدهرِ عندي كُلُّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ مِنَ الزَّحامِ^(١)

وتقدّم بي العمر، وصار الألم يعاودني، ولم يكن له موعدٌ ثابت؛ فتارةً أشعر بالألم وأنا مستغرق في النوم، وتارةً وأنا في المقعد الدراسي، ومرّةً في الشتاء، وأخرى في الصيف، وأحياناً تمضي السنة دون الشعور بأي آلام، وأحياناً يتكرر الألم في الشهر أكثر من مرّة، وهكذا...

وإذا شعرتُ بالألم ضعُفتُ قدمي عن حملي، وبحثتُ عن عكازةٍ أتوكأ عليها، أو صرتُ أنطِنطُ وأقفزُ على رجلي السليمة، أو أزحفُ زحفاً. وتتفاوتُ مدّة الألم بين ساعاتٍ وأيام، وحين تتوقف الآلام أعود لوضعي الطبيعي أمشي على قدمي، وأمارس بها الرياضة، ويكاد من يراني يتمنّى أن قدمه مثلي.

(١) ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري (١٤٦/٤).

وكانت الوالدة تسألني باستمرار عن قدمي فأخبرها بسلامتي،
وتنظر للجرح كلما زرتها، وتراه سليماً، فتبتسم وتدعو، وكنتُ
أقولُ لنفسي: تكفي آلامها الماضية، ولا أودُّ أن تعيش همّي من
جديد، وتقلق لحالتي.

وكنا ننام في الصيف في الأسطح العلوية، تلك حياة جيلنا؛ لا
ترف كالיום؛ إذ لا مكيفات تصحبنا في السيارة ولا في المكتب، ولا
في غرف النوم. وكنتُ إذا انتابني الألم فَرَعْتُ من نومي، وبدأتُ
أدلكُ وأضغطُ قدمي، وأنزل إلى الدور الأرضي إلى المطبخ، فأوقدُ
موقد الغاز، وأقربُ قدمي من ذلك الموقد، وأحياناً أضع في
الإبريق ماءً، وإذا علت حرارته سكبتُه في وعاءٍ حديدي، ثم
أضع قدمي بداخله وأستمرُّ نحو الساعتين والثلاث حتى تهدأ،
ثم أعود للنوم أو لصلاة الفجر. ومضت الأيام والليالي والآلام
تنتابني، وحين التحقتُ بالجامعة، وأمضيتُ سنتين تزوجتُ
شريكة العمر، وسلوة الحياة (أم تركي)، وبدأتُ تُطَبِّبني وتسهرُ
لسهري، وتأقلمتُ وإياها مع آلامي ومعاناتي، وعندما تشعرُ
بأنيني تُسرِّعُ للمدفئة وتجلِبُ الكمادات، وتشرِّعُ في التدليك حتى
أهدأ وأنام، ثم تنسحبُ برفقٍ وتغفو من بعدي. ثم جاء

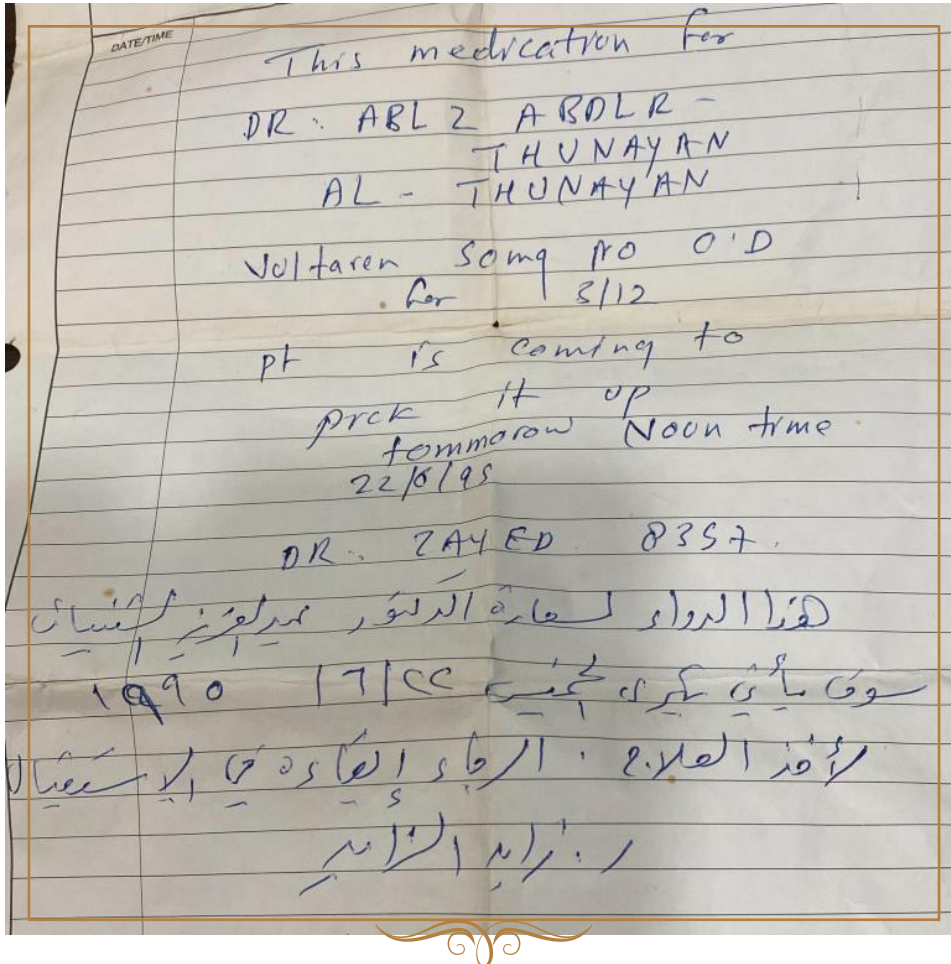
الأطفال؛ ابنتي عهد ثم تُركي وإخوانه، رزقني الله برّهم حيًّا وميتًا، وجعلهم قُرّة عينٍ لي ولوالدتهم. وللطفولة حقّها من الرعاية والعناية؛ إذ يحدث في بعض الليالي أن يمرض الصغير، فيسهر ويسهر، وتعود الآلام للقدم، ويرتفع أنين الزوج، ويتوزع قلبُ الزوجة بين تطيب الأب، وتطيب الأطفال، جزاك الله خيرًا أيتها الزوجة الوفيّة الصابرة الأبيّة.

وتمضي الشهور، وترحل السنون، وأنا في حيرة من أمر قدمي وآلامها التي تتابني بين الحين والآخر، وتوجهت للأطباء أبحث عن المسكنات والمهدئات، وأعرض قصّتي مع الطبّ الشعبي، وكيف نجوت بفضل الله، ثم بالكَيِّ وأعشاب السيّدة (ردّاسة)، وأتحدث إليهم عن المستقبل، وخوفي من أن يرجع الجرح من جديد، وأن يعود الالتهاب، والعود ليس بأحمد.

وصرف أحد الأطباء مضادًا حيويًا استخدمته شهرًا، ولكن عارضه طبيب آخر، وخوّفني من آثاره الجانبية على الكلى، ووظائف الجسم الأخرى، واقترح ثالثٌ حذاءً طبيًّا يخفف الضغط على القدم، ونصحني طبيب رابع باستخدام التدليك الكهربائي، وهكذا تنوّعت الآراء.

وفي يومٍ من الأيام، زرتُ أحد المراكز المتخصصة في علاج العظام بالقاهرة، وفحصوا القدم، وصوروها بالأشعة، وتحيروا ماذا يقدمون؟ القدم سليمة، والجرح نظيف، وقال أحد الأطباء المشهورين هناك: تصبّر على آلامك، وأتوقع أنها ستزول وتنقطع بعد سبعة عشر عامًا من إصابتك. ولست أدري لماذا حدّد هذه السنوات؟ ولكن مضت المدة التي توقّعها ومثلها معها، والألم كما هو يروح ويحيى. وتطور الطب الحديث في المملكة، وعرضتُ قدمي على الأطباء في المستشفيات المتخصصة: المستشفى العسكري، والتخصصي، ولم أجد جوابًا ولا علاجًا!

وحين كنتُ في العمل الرسمي، زارني في مكثبي بوزارة التعليم، وأنا وكيل للوزارة، الدكتور زايد الزايد، وذكر أنه مبتعثٌ إلى كندا للمزيد من التحصيل الدراسي، وبَيَّن أن تخصّصه عظام، وكان يرغبُ تصديق أوراق أبنائه؛ حيث سيذهب بهم إلى كندا... وكنتُ في ذلك اليوم أشكو من الألم، وقد شعر بالآلام حين رأيْتُ أتوكأ على المكتب عند وقوفي، ورويتُ له على عجل قصتي وآلامي، فنصحني باستخدام دواءٍ مسكّن (فولتارين) كتبه بهذه القصاصة التي يوثّق تاريخها ذاك اليوم السعيد الذي لقيتُ فيه ذاك الطبيب المفضّل.



لقد بقي ذاك اليوم من أيام المسرات في حياتي، فقد استخدمت الدواء (الفولتارين) واستفدت منه، ومن ذلك التاريخ صرتُ إذا شعرتُ ببيوادر الألم استخدمت ذلك العلاج، وارتحت له، فجزى الله ذلك الطبيب كلَّ خيرٍ، وبارك الله في بعثته، فرُبَّ صدفةٍ خيرٍ من ميعاد، وما زلتُ أستخدم هذا الدواء، ولم أعد أحتاج إلى التدليك والماء الساخن، وقد عرضتُ دواءه المسكن على كثير من الأطباء

في أمريكا وألمانيا والرياض، وأقروا باستخدامه عند الحاجة، دون إدمانه، وألا أتناوله والمعدة خالية.

هذا الطبيب المبارك أيده في استخدامي لهذا الدواء المُسكِّن البسيط كبار الأطباء في أمريكا وألمانيا. لقد أثبت أطباء المملكة السعوديون تميزهم، ونالوا ثقة المجتمع.

لقد كان مرض قدمي وعودة الألم بين الحين والآخر من الابتلاءات التي تستوجب الصبر والاحتساب، ولا يعني ذلك عدم بذل أسباب العلاج وطلب الشفاء، فقد يَمُمْتُ إلى أمريكا؛ لعلِّي أجدُ علاجًا استعصى، وهناك بأحد المراكز المتخصصة في فيلادلفيا بقيت أيامًا أراجع وأحلّل وأصور، وفي بوسطن كذلك تحاليل وأشعة، وكانت النصائح، اصبر على آلامك، وخذ المُسكِّن الذي استجاب له جسمك، وحين رويتُ للأطباء هناك، قصّة الكيّ، تعجبوا وتساءلوا كيف صبرت على آلام الكيّ وحرارة النار، وتحيروا في الموقف كله، وعجبوا من الحالة، وأيقنوا أنهم لم ينالوا من العلم إلا القليل.

قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: شرطة محجم، أو

شربة عسل، أو كية نار، وأنهى أمتي عن الكي»^(١)

(١) رواه البخاري (رقم ٥٦٨١) ومسلم (رقم ٢٢٠٥).

وفي ألمانيا جاء ثلاثة أطباء ليسمعوا حكايتي، بعد أن فحص
أحدهم وتحير مما هو أمامه، وسألوا وألحوا كيف نَجَتِ الرجل؟ وكيف
صبرتُ على الكيّ؟ وكيف؟ وكيف؟ إنها رحلةٌ عُمُر، وحكايةُ ألم،
وقصةٌ معاناة رافقتني طيلة حياتي، أسأل الله الأجر والثوبة، والمغفرة
والرحمة لوالديّ، وللسيدة الطيبة (ردّاسة)، وأن يجمعنا بهم في دار
كرامته. تلك الرحلة كَوَّنت لي دروسًا في الصبر، وشهادةً أدلي بها
كلّ حينٍ عن الطبِّ النبوي.



تربية اللّطيم

أنعم بها من تربية، وأكرم بها من مدرسة، ففي رحابها تعلمتُ الرجولة والثقة بالنفس، وبها انبنت شخصيتي، وعلى يد أستاذها المبارك كانت توجيهاتي، وبحكايات بطلها الصّبور الوقور كان تعليمي العميق، لقد وجدت في تلك المدرسة الحبّ والودّ، هي -والله قسمني- أحبُّ المدارس إليّ، وهي -تالله- المدرسة التي شربتُ ماءها العذب ورحيقها الصافي. رحم الله بطلها، وجمعني به في الفردوس الأعلى.

إنها بيتُ أبي ومتجره رَحْمَةُ اللَّهِ ها هي صورته كلما رأيتها قبلتها وترحمتُ عليه.



لقد نشأ والدي يتيمًا مع إخوته وأخواته، تُوفي والدّه ثنيان وعمّره خمس سنواتٍ تقريبًا، ثم تُوفيت أمّه بعد زوجها ثنيان بسنةٍ واحدة، عاش والدي لطيفًا، واللّطيمُ في قواميس اللغة: مَنْ يموتُ أبواه وهو صغير. لقد فقد والدي عطفَ الأبوة وحنانَ الأمومة، وذاق الجوعَ، وعاش التعبَ والمُعاناة، لم يتعلّم في المدارس النظامية، ولا جلس في الحلقات العلمية، ولكن عوّضه الله بالعقل الرّزين، وكَمّله بالخلق الحسن، ومنحه الرُّشدَ والأدبَ، ووهبه المعرفةَ والعلمَ اليسير، فكان خيرَ المُربيّن، وقُدوة المُؤثّرين.

إن قلمي قد اضطرب وارتعش حينما نويتُ أن أكتبَ عن أبي، فما بنفسي وخواطري أكبر وأكثر من أن تستطيع أناملي خطّه عن أبي؛ فلست أدري ماذا أكتبُ عن أبي؟

أأكتب عن مُروءته ونبله؟ أم أكتبُ عن بساطته وبشاشته ورُوحه الشبابية؟ أم أكتبُ عن سمره معنا ومُداعباته؟ أم أكتب عن عبادته ونوّجه في مُصلاه آخر الليل؟

أم يا تُرى أكتب عن إثارة ونسيانه ذاتِه، وكيف هو وصلةِ الرحم، وكيف تتسابق أدمعه عند ذِكْرِ أخيه عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ؟ هذا، ولن أستطيع وصفَ رفقه بخاله سليمان محمد الحسين وخدمته له؟ أمورٌ كثيرةٌ قلمي أعجزُ من أن يُحصي محاسن أبي، جمعني الله به في الفردوس الأعلى.

يقول والدي: - غفر الله له: - كُنَّا أربعة أولادٍ وأربع بنات؛ أنا أصغر الأولاد، وبعدي أختي الجوهرة، قضينا مرحلة الطفولة والفتوة في المزرعة التي ورثناها من أبي في (صياح). ويعرض الوالد قصة يُتمه وطفولته، فقد رعاه ورباه مع إخوانه وأخواته؛ أخوهم الأكبر عمّي عبدالعزيز، كان عمُرُ عبدالعزيز حين رحل والداه سبعة عشر عامًا؛ رُجولةً مبكرة، وعطفٌ أخوي، وتربطٌ أُسري، وكان بمثابة الوالد الحقيقي لإخوانه وأخواته، تحمّل مسؤوليتهم، حتى إنه تزوج امرأة تكبره بسبع سنوات؛ إذ اقتدى بجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد تزوج، فسأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أبكرًا أم ثيبًا؟». فقال جابر: بل ثيبًا. فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فهلّا جاريةً تلاعبها وتلاعبك، وتضحكها وتضحكك؟» فقال جابر: إن عبد الله هلك، وترك بنات، وإني كرهت أن أجيئن بمثلهنّ، فتزوجتُ امرأةً تقومُ عليهنّ وتُصلحهنّ! ^(١).

هكذا كان نخبرنا الوالد رَحِمَهُ اللَّهُ عن أخيه الحبيب، وأخلاقه الرفيعة، وعواطفه النبيلة التي ما غاب أثرها مع مرور السنين، وتعاقب الأيام... هذا، وكان والدي يجھش بالبكاء إذا تحدّث عن أخيه، والذي تشرّفتُ بحمل اسمه. يقول كان أخي عبدالعزيز والدًا، وكان صديقًا، وكان عطوفًا، عوّضنا فقد الأب والأم.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٦٧)، ومسلم في كتاب الرضاع (٢/ ١٠٨٧ رقم ٧١٥).

مرّت السنوات الطوال، ودموع والدي رَحِمَهُ اللهُ تنهمر من عينيه
كلّما تذكر أخاه الأب (عبدالعزیز)، ونسمعه دومًا يترحم عليه في كل
وقت، وفي كل مكان. وكان يقول لي: لو أن المجتمع يقبل أن أسمّي
كلّ أبنائي بعبدالعزیز لفعلتُ وحوّلتُ أسماء إخوتك: ثنيان، وفهد،
ومحمد، وعبدالله، وعمران، وجعلتهم كلهم عبدالعزیز.



هؤلاء إخواني وأعضادي -لا عدمتهم- الذين ودّ أبي أن يحملوا اسم أخيه (عبدالعزیز) رَحِمَهُ اللهُ.

إنه الوجدان العاطفي، والأخوة التي سمّت فوق كل الاعتبارات.
رَقَّتِ القلوب، وَرَفَّتِ الأجسام، وتناغى الأكباد.

آه.. أين هم أولئك الإخوة؟!

ويُحدّثنا والذي عن الماضي، وكيف عاشوا مشقّة العيش؛ يهرولون وراء رزقهم، يجوبون صحاري المملكة إلى الجنوب إلى بيشة، وإلى الشمال إلى حائل والكويت، وإلى الشرق إلى الجبيل والأحساء، ينشدون الرزق الحلال، قضوا سنوات فتوّتهم وشبابهم في مزرعتهم (الرفيعة) يزرعون ويسقون زروعهم، على الدواب التي تنزح لهم الماء، ويعيشون حالة كفافٍ وسِتر.

وها هي صورة بئر المزرعة (الرفيعة) لا تزال تحكي معاناة الأهل والأجداد في سقيا مزارعهم:



هذا الخشب الممدود -وفق ما أشير إليه بيدي- يعلّقون به (المحّالة) عجلات خشبية صغيرة لتسحب بها الدواب دلاء الماء من عمق البئر.

وهذه البئر مُشتركة؛ قسّمها الشمالي لمزرعة الوالد وإخوانه، والقسم الجنوبي لمزرعة محمد وناصر وعبدالعزیز أبناء صالح العبيكان. الخشبستان المتقاربتيان لمزرعة الأهل، والثالثة لمزرعة الأعمام. واليوم لم يبقَ من آثار مزرعة الأهل إلا هذه البئر، أما المزرعة فصار أغلبها ضمن طريق الملك فهد، وبقي جزءٌ يسيرٌ منها بات متاجر ومكاتب عامرة بالحركة التجارية، بعد أن كانت عامرة بالسكن والزراعة.

وتقع مزرعتهم هذه التي ورثوها من والدهم في جنوب مدينة الرياض في صياح، وصياح كان في الماضي أحد المواقع المهمة في مدينة الرياض، فهو منطقة الزراعة والفلاحة، ويحاذي وادي حنيفة من الشرق، وأراضيه خصبة، ومياهه وفيرة، ويمتلك أعمام والدي فيه عدّة مزارع. ويقول الرواة: إن صياح في الأصل بالسين؛ لأن الماء كان يسبح فيه، وقد أشار إليه ياقوت الحموي^(١) المتوفى سنة ٦٢٦هـ في معجمه، فقال: الصَّيَّاحَةُ نَحْلٌ باليمامة، وأورد قول الشاعر:

قلبي بصيَّاحاتٍ جوُّ مُرْتَهَنٌ إذا ذكرتُ أهلها هاجَ الحزنُ

واليمامة وحَجْرٌ يُطلقان على الرياض وما حولها، وصيَّاح أحد المواقع المشهورة في اليمامة.

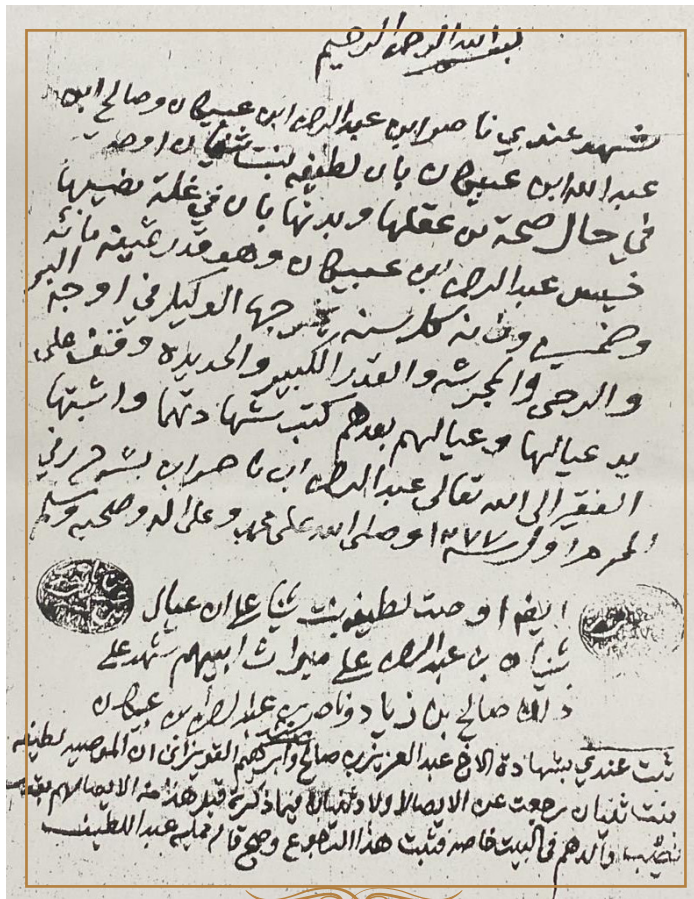
(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي (٣/ ٤٣٧).

حين يقصّ والدي حكاية طفولته تتقاطر دُموعنا رحمة بحالتهم التي عاشوها، مات أبوهم وأمهم وهم صغار يقول: كنا ننام في غرفة جميعاً، نفترش بساطاً ونتغطى بآخر، ويكدح أخي الأكبر عبدالعزيز، ويُساعده أخي عبدالله في المزرعة، التي ورثناها من أبي، وكبرنا في تلك المزرعة الغالية علينا، وأشارك إخوتي وأنا صغير بمساعدتهم في جمع أعلاف المنائح [الماعر والبقر].

لقد كانت المزارع فيما مضى أثيرة عند ملاكها لا يبيعونها ولا يُفَرطون في مُلكيتها، يتوارثونها جيلاً بعد جيل ويتقاسمون فيها بينهم، وإذا رغب أحد الورثة بيع نصيبه اشتراه منه الوارث الآخر، يستعيبون التخلي عن أملاك آبائهم وأجدادهم.

هذا، ومن اهتمامهم ومُحافظتهم على مزارعهم وعدم التفريط في بيعها أنهم كانوا يُوقِفون أجزاءً من مزارعهم ولا يُفَرطون فيها، ووثائق أوقافهم تُجسّد ذاك الحُب، فوصية الجدّة لطيفة بنت ثنيان بن إبراهيم آل سعود، زوجة الجد عبدالرحمن بن محمد بن محمد العمران المعروف (بعبدالرحمن العبيكان) تُؤكد ذاك الإعزاز للمزارع؛ إذ تقول في وصيتها رَحِمَها اللهُ المؤرخة في أول محرم عام ١٢٧٧ هـ بنصّها: «شهد عندي ناصر بن عبدالرحمن ابن عبيكان، وصالح بن عبدالله ابن عبيكان بأن لطيفة بنت ثنيان أوصت في حال صحة من عقلها

وبدنها بأن في غلّة نصيبها خيس عبدالرحمن ابن عبيكان، وهو قدر
ثمان مئة وخمسين وزنة، كل سنة يخرجها الوكيل في أوجه البر والرحى
والمجرشة، والقدر الكبير، والحديدة وقف على يد عيالها وعيالهم
بعدهم. كتب شهادتها وأثبتها الفقير إلى الله تعالى عبدالرحمن بن
ناصر بن بشر. حرّر في المحرم أول سنة ١٢٧٧ هـ، وصلى الله على
محمد وعلى آله وصحبه وسلم». مرفق صورة تلك الوصية.



إن صياح موقعٌ خصبٌ يقع في قلب الرياض على ضفاف وادي حنيفة الممتد من الشمال إلى الجنوب، وحوله نشأت الحواضر والإمارات. يقول ابن غنّام في تاريخه: «في سنة ١٢١١ هـ، أتى في فصل الصيف سيلٌ لم يجز قبله مثله في سابق الزمان، هدم من العينة والدرعية وغيرهما بيوتًا، وأغرق زروعًا، واستمرّ وادي حنيفة سنة يجري من غير مطر، فطابت البلاد، وحسُنَ العيش والحال»^(١).

والوثيقة المرفقة تعرض الحالة الاجتماعية لبلدي صياح ومنفوحة؛ بلدتيّ أبي وأُمّي، والخلاف بين البلديتين حول مجاري السيول؛ فالماء هو الحياة، هذه الوثيقة خلاصة حكم قضائي بين أهالي صياح وأهالي منفوحة حكم به القاضي عام ١٣٠٧ هـ، ونص الحكم.



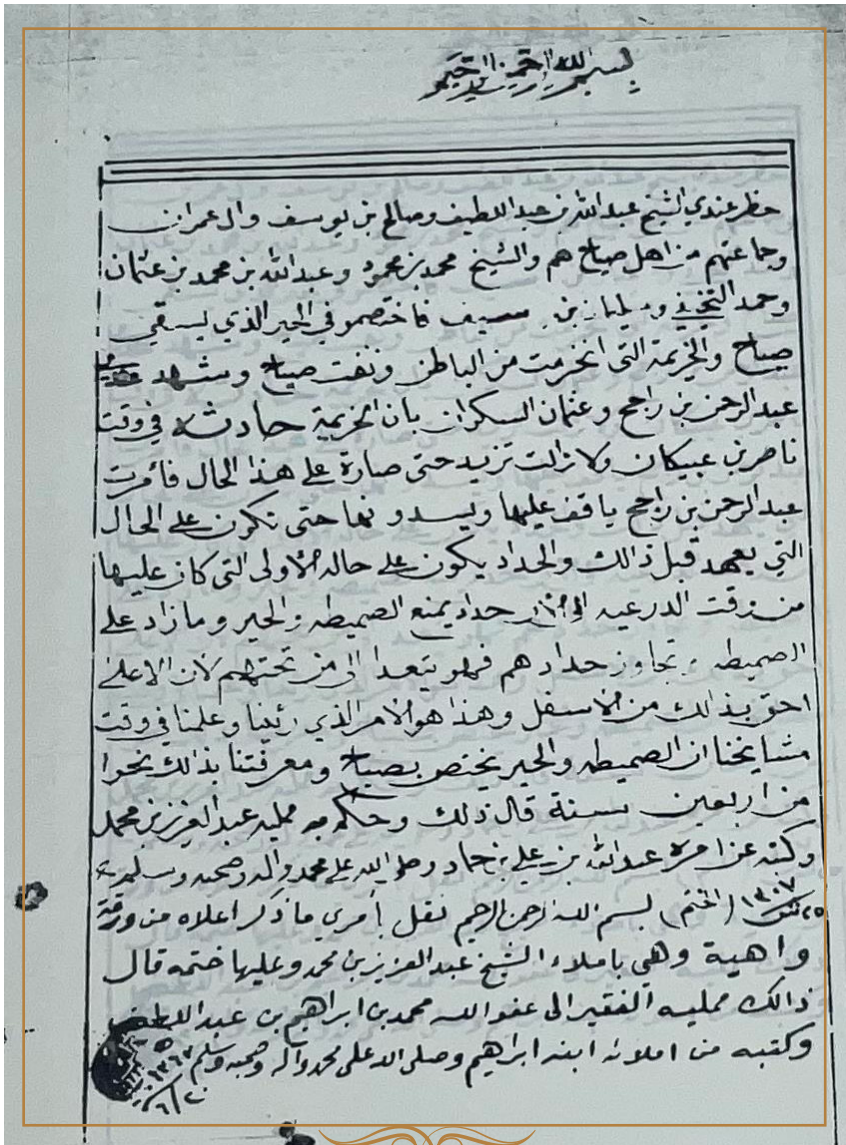
(١) تاريخ ابن غنّام، (٢/ ١٩٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

حضر عندي الشيخ عبدالله بن عبداللطيف، وصالح بن يوسف، وآل عمران وجماعتهم من [أهل صياح] هم، والشيخ محمد بن محمود، وعبدالله ابن محمد بن عثمان، وحمد التخيفي، وسليمان بن سيف [أهل منفوحة]، فاختصموا في الحَيْر^(١) الذي يسقي صياح والخريمة التي انخرمت من الباطن، ونَفَتْ صياح، وشَهِدَ عندي عبدالرحمن بن راجح وعثمان السكران، بأن الخريمة حادثة في وقت ناصر ابن عبيكان، ولا زالت تزيد حتى صارت على هذا الحال، فأمرْتُ عبدالرحمن بن راجح يقف عليها، ويسدونها حتى تكون على الحال التي يعهد قبل ذلك، والحِداد يكون على حاله الأولى التي كان عليها من وقت الدرعية، إلى الآن حِداد يمنعُ الصميطة والخير، وما زاد على الصميطة وتجاوز حدادهم، فهو يتعدى إلى من تحتهم؛ لأن الأعلى أحق بذلك من الأسفل، وهذا هو الأمر الذي رأينا وعلمنا في وقت مشايخنا، أن الصميطة والخير يختص بصياح، ومعرفتنا بذلك نحو من أربعين سنة. قال ذلك وحكم به مُمليه عبدالعزيز بن محمد، وكتبه عن أمره عبدالله ابن علي بن حماد، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ٢٥ / ٨ / ١٣٠٧ هـ (الختم). بسم الله الرحمن الرحيم نُقل بأمرني ما ذُكر أعلاه من ورقة واهية، وهي بإملاء الشيخ عبدالعزيز بن محمد وعليها ختمه، قال ذلك مُمليه الفقير إلى عفو

(١) الحَيْر: هو الماء المُتَبَقِّي بعد توقف السيول الجارية في المناطق المنخفضة: أي الحائر.

الله محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف، وكتبه من إملائه ابنه إبراهيم، وصلى
الله على محمد وآله وصحبه وسلم ١٣٦٧/٦/٢٠ هـ.



تعلّمتُ من والدي

ولئن عشتُ مرحلة الطفولة، وشيئاً من الفتوة لدى أخوالي،
فحين عدتُ إلى بيت الوالد، وجدته بستاناً وارف الظلال، ومدرسة
وفاء وبناء ونبل، لقد تعلّمتُ من والدي أشياء كثيرة؛ إذ كان رَحِمَهُ اللَّهُ
قُدوةً في التربية والتعامل، يعامل أبناءه وكأنهم إخوة، ويمازحهم
وكانهم أصدقاء، يسبقنا إلى إبريق الشاهي ليسكبّه ويقدمه لأبنائه،
وكنا نخجلُ من معاملته تلك، وكان يصحبنا مع أبناء العم في رحلات
السَّمرِ والنَّزهة، ويغرنا بالمشاكسة المرحّة، والنكات الجميلة، وكانت
مجالس والدي مدرسة علّمتني أموراً كثيرة؛ ففي متجره لبيع الأطعمة
(الأرز، والسكر، والشاي، والزيوت) الواقع وسط مدينة الرياض
قُرب قصر الحكم، كُنْتُ وأخي فهد -رعاه ربي وحفظه- نتعلّم كلَّ
يوم دروساً في تحمّل المسؤولية، واتخاذ القرار، نبيع ونشتري، ونُحاورُ
ونناقش، ونمتطي عربة الكرو (حمارٌ ضخْمٌ يسحبُ عربةً خشبية)،
نصحبُها إلى المستودع لنقل أكياس الأرز والسكر؛ جِدُّ وخُشونة،
ورُجولةٌ وتدريب، وتعليمٌ تجاريٌّ مُبكر. وكُنّا نسبِقُ الوالد إلى المتجر
في المساء، وفي الصباح والمساء في أثناء شهور الإجازة، وكان يزوره
باستمرار رفاقٌ يجلسون معه في بوابة المتجر، يستعرضون أخبار
المجتمع والغادي والرائح، ونسمعُ تعليقاتهم حول الشؤون المحلية.

وكان متجر الوالد وجيرانه، أشبه بمتنديات عامة يتهامسون فيها النقد الاجتماعي، وتسمع في تلك المتاجر الرأي العام، وتكادُ تقيسُ نبض المجتمع بالمرور العابر على تلك المتاجر، وكان للوالد صحبةٌ يلتقون في الأسبوع أكثر من مرّة، يتحدثون أحاديث عامّة في البيع والشراء، وحكايات الماضي، وقصص الأسفار. وتعلّمنا من تلك المجالس الرجولة، والآداب العامة، وتعرفنا على التُّجار، وأساليب البيع والشراء منذ الفتوة. رحم الله أبي، وسلامٌ على تلك المجالس العنبريّة العِبة. وتعلّمنا من والدي دروسًا في الرقة والحزم، والجِدِّ والانضباط. كانت نظراته مؤدّبة، وقسماتُ وجهه مؤثّرة، لا أذكر، وقد صحبتهُ خمسين عامًا، أنه رفع الصوتَ باللوم على أيِّ من أبنائه، ولا بالزجر لأيِّ من بناته، لكن صدّه وإعراضه يشعرنا بأنه غير راضٍ. يا لها من دروسٍ تُكتبُ بهاءِ الذهب!

لقد كان الوالد رَحْمَةُ اللَّهِ مدرسةً تطبيقية، تعلّمنا منه الرجولة وعلوم الرجال منذ فُتوتنا.



الجفرة

الحديث عن تربية والدي وما تعلّمتُ منه، يستدعي استحضار مجالسه ورفاقه ومتجره الذي أشرتُ إليه آنفاً، وتعرّضُ الذاكرة أسواقَ مدينة الرياض ذلك الوقت، وكيف كانت متقاربة في وسط المدينة قرب قصر الحكم، ونادرًا ما كُنّا نرى المرأة في الأسواق، فالأسواق للرجال، والنساء مشغولاتُ بشؤون البيت؛ تنظيف وغسيل وتربية أطفال، وفي بعض البيوت تتوفر حظيرة للبقر والماعز، فتقوم المرأة كذلك بتجهيز غذاء تلك البهائم، والحلب وترويب الحليب وخضّه ورجّه، واستخلاص الزبدة، وتبريد اللبن، فكانت المرأة منهمكة في العمل طيلة الوقت.

وكانت الأسواق متنوعة البضائع ومتقاربة، فعلى بضعة أمتار من متجر الوالد يوجد سوق الجفرة، والجفرة لها شهرةٌ كبيرةٌ في ذلك الوقت، فموقعها شبه دائري، صغير منخفض، أحسب أن مساحته تقلُّ عن ألف متر تقريباً، وفي سوقها يجد ذوو الحاجات المالية مبتغاهم؛ إذ يلقون المقرضين، وفيها ميزان حديدي لوزن قلال التمر،

وزنايل حَبِّ البُرِّ، وغير ذلك، وتتقاطع سوق الجفرة مداخل متعددة؛ فمن السوق الذي به متجر والذي يوجد منفذٌ إليه، وهناك مداخل أخرى؛ فمدخل من سوق الحساوية للملابس الجاهزة، والمدخل الثاني من وسط سوق الأغذية، والثالث من سوق الأقمشة، والرابع من سوق أشيقر. وجميع هذه الأسواق يمرُّ مرتادوها وأهلها بسوق المقيبرة للحوم والخضار والدواجن والطيور الحية، وعربات الخردة. هذا، وإلى الجنوب الشرقي من الجفرة يمتد هناك سوق السِّدرة من الغرب إلى الشرق بممرِّه المغطَّى الطويل، كأنه سوق الحميدية في دمشق أو سوق خان الخليل أو سوق الحسين في القاهرة، وفيه أغلب البضائع كالأقمشة والأواني المنزلية.

وهناك قيصرية الصرافة، وهي مجموعة من المتاجر يجلس بعض مَلاكها جلسة القرفصاء على قطعة زَلٍّ تملأ المتجر، وأمام البائع صندوق النقود، وبجانيبه مجموعة أدراج صغيرة مليئة بصغار النقود والعملات المختلفة، وبعض المتاجر كبيرة؛ الراجحي، والسبيعي، والشويرخ، ومتاجرهم واسعة، وفيها موظفون للاستقبال والتعامل مع العملاء.

وقريباً من الجفرة ومن تلك الأسواق، يربُض من الشرق قصر الحكم بهيبته ومهابته وشموخه، وساحة الصفاة برمزيتها؛ حيث تُنفَّذ فيها الحدود الشرعية، ومن الشمال الشرقي ترى مسجد الجامع

الكبير؛ أتذكّر ما أن يُؤذّن ابن ماجد رَحْمَةُ اللَّهِ بصوته العذب إلا ونبادر بإغلاق المتاجر، وطالما قضينا الساعات الطوال والأُمسيات نذاكر فيه بعد صلاة العصر من كل يوم إلى منتصف الليل.

هذا، وبعد صلاة الجمعة من كل أسبوع في شمال أبواب الجامع مباشرة تعلو أصوات المحرّجين على البضائع متعددة الأصناف، وعلى كل ما هبّ ودبّ من بضائع جديدة وقديمة، ويُعرف المكان بـ(حراج بن قاسم)، وكثيرًا ما قصدناه للترويح وتلمّس ما يستهويننا، وكانت الكتب المستعملة تستوقفني أكثر، وكنت أحرص دائمًا على اقتناء ما يروق لي منها.

وكان السوق الذي يقع متجر الوالد في وسطه متنوع البضائع؛ ففي أوّله المَطْلّ على المقبرة، متاجر الحضارم الذين يبيعون الأغذية بأصنافها الصغيرة مثل الأجبان والحلويات والعصائر والأغذية الثقيلة؛ الأرز، وتلك الزيوت، وأكياس السكر، وصناديق الشاي الكبيرة. وحين الدخول في وسط السوق تكون الأغذية الكبيرة؛ متجر الوالد، والعمران، والشعلان، وآخرون، ثم متاجر المقرضين؛ معزي، والسبتي، والغليقة، وبرغش، وابن منيف، وآخرون، وما يُعرفون في ذلك الوقت بالديّانة. أما وسط الجفرة فمتاجر مشكّلة وموازين للجميع، ومتاجر الإقراض للمبالغ القليلة؛ يقرضون خمس مئة وألف

وألقي ريال بفائدة قد تصل لضعف المبلغ. وهذا الإقراض القليل المبالغ، الكثير الفائدة، أعطى صورة شوهاة عن عموم المقرضين.

وكانت المتاجر منتديات لترجية الوقت، وتسقط الأخبار، ومواعيد المقابلات، وكنْتُ وأخي فهد وأبناء المتاجر الأخرى، نشارك ذويها في الخدمة وتحمل الأعباء المساندة، كُنّا نمارس البيع نيابةً عن الوالد، ونُرْتَبُّ البضائع في المتجر، ونجلبُ البضاعة من المستودع، ونهتمُّ بدراسة أسعار وبيع المنافسين، وخدمة زوار الوالد رَحِمَهُ اللهُ.

هذا، وهناك ثمة متاجر وأسواق أخرى ومعالم شهيرة؛ فسوق الأعلاف بقُرب منزلنا في حارة مليحة على شارع الريس أمام مسجد أم ماجد الذي نذاكر فيه ونصلي فيه الفروض الخمسة، وسوق الأغنام في شارع عثمان بن عفان قريب من المحكمة الكبرى في ميدان دُخنة، وأسواق البطحاء بمتاجرها المتنوعة، وفيها مُلتقى العمالة الوافدة، كما توجد المعارض الراقية في شارع الوزير وطريق الثميري.



والدي وحديثُ الذكريات

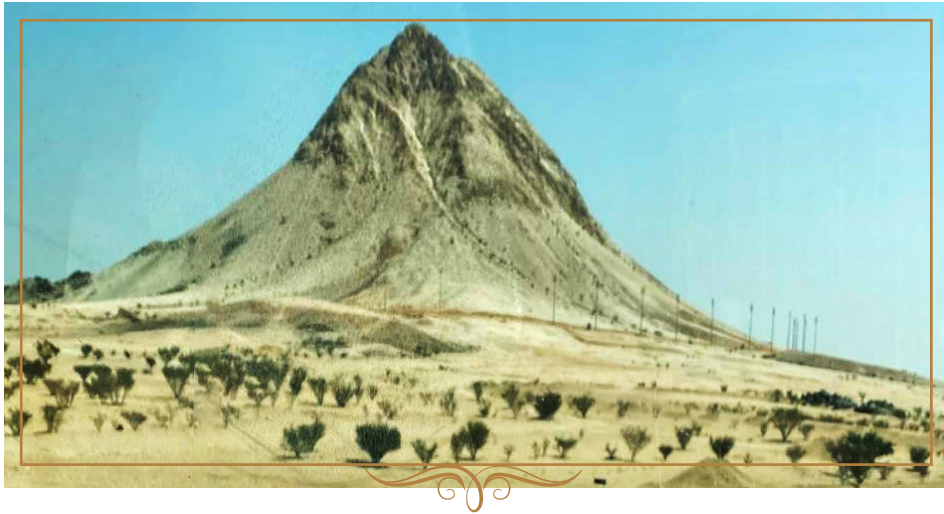
جرب والدي كل طرق المعيشة قبل أن يستقر به المقام في تجارة بيع الأغذية، عمل فلاحاً وروى كيف كانوا يسهرون وراء الدواب يمتحون الماء، وهرول في كل ناحية، وصار موظفاً حكومياً بُرهة من الزمن عند عمه محمد أمير الجبيل، صَحِبَ الجيولوجيين في البحث والتنقيب عن البترول في المنطقة الشرقية، ومارس تجارة استيراد وبيع الملابس والأغطية والبشوت، فسافر إلى الكويت مراراً، وأقام هناك شهوراً، وزاول تجارة الأغنام، وقصَّ كيف كان يتاجر بالأغنام، وأنه ذات عامٍ تسابق مع تاجرٍ آخر إلى بيشة؛ أيهما يسبقُ ليشترى قبل صاحبه، ثم يحركون قطيعهم سيراً على الأقدام، حتى الوصول إلى الرياض، ومن الرياض إلى الأحساء، ويقطعون رحلةً تزيد عن ألف وخمس مئة كيلو متر، في مقابل دراهم معدودة. يقول الوالد رَحِمَهُ اللهُ واصفاً إحدى رحلاته مع الأغنام: حين اكتمل شرائي في بيشة، حرَّكت القطيع إلى الرياض ومعِي عددٌ من الرُّعاة، ورواحلٌ تحملُ زائدنا، ونحملُ عليها مواليد الأغنام، ونمشي رويداً رويداً، نترقبُ

بها، ونشدُّ الكلاء، ونتحرَّى العُشب، كانت صحاري (الهضب) خالية من الحياة، مُحشَّةً تتقاطعُها جبالٌ وتلال، ولا تسمع فيها سوى أزيز الرياح وعواء الذئاب، نغفو بين الحين والآخر ونحن فوق رواحلنا، نتناوب النوم إذا أظلم الليل، نخشى هجمة الذئاب وافتراسها الأغنام.

وقال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: لا أنسى ذات ليلةٍ ونحن وسط ذاك الفضاء المخيف، وقد عدا ذئبان وافترسا نعجتين، وفرعنا نطلقُ أعيرتنا النارية؛ تحويِّفًا وترهيبًا، وظللنا نتلاومُ طيلةَ رحلتنا كيف غفلنا!، ووصلنا الرياض بعد جُهدٍ ومشقةٍ، ولكن ويا للأسف! وجدنا سوق الأغنام في الرياض ضعيفًا، فقرّرنا الرحيل بها سيرًا على الأقدام إلى الأحساء، وما أن وصلنا الأحساء إلا وعلتنا الفرحة، فقد علمنا بحاجة أمير الأحساء آنذاك؛ عبدالله بن جلوي لبعض ما لدينا من أغنام، وهناك كانت التصفية النهائية، وكان الربح يسيرًا. معاناة وكفاح وراء لقمة العيش. وحين شرعتُ في تدوين هذه الذكريات، صَحِبْتُ أصدقاء كرامًا، ورفقةً أخيارًا، واجتزنا ذاك الفضاء الرَّحْب الذي سلَّكه والذي **رَحْمَةُ اللَّهِ** وقد شقَّه الآن طريقٌ مُعبَّدٌ آمِنٌ -نسأل الله دوام نِعَمِهِ على بلدنا المِعْطاء- وطوَّل الطريق وأنا أتخيَّلُ والذي يسرُّحُ بأغنامه، ويجتاز هذا الفضاء المُمتد.



بل كأني أراه وغنيّاته قُرب هذا الجبل، وقد هجمَ الذئبُ وافترسَ
منها طعامه.

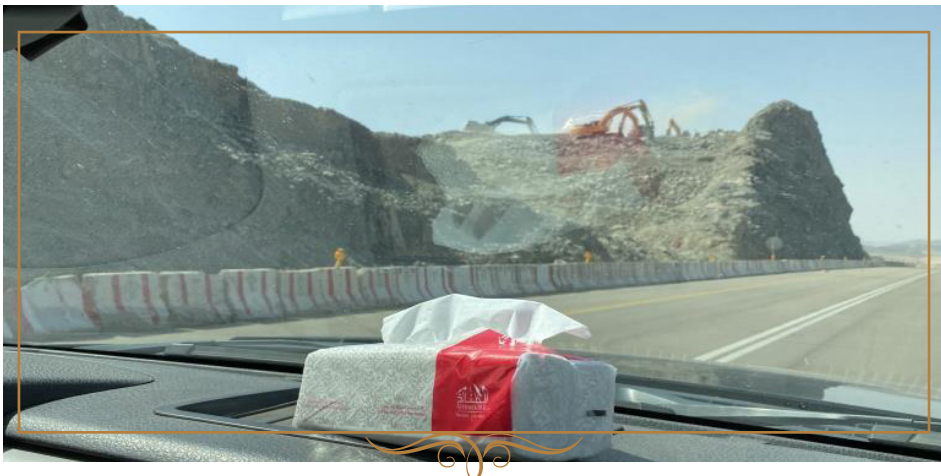


أو كأنه يرقُبُ أغنامه وهي تلتقط هذه الأعشاب جوار ذاك الجبل
الآخر الشامخ الذي ما أن حاذيته حتى تذكّرتُ قصيدةً حفظتها من
أستاذي الدكتور عبدالرحمن الباشا رَحِمَهُ اللهُ لابن خفاجة الأندلسي في

وصف الجبل، عاش في المرحلة من ٤٥٠ - ٥٣٣هـ؛ إذ يقول فيها:

وَقَوْرٍ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ طَوَالَ اللَّيَالِي مُفَكِّرٌ فِي الْعَوَاقِبِ
أَصَحْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ آخِرُ صَامِتٍ فَحَدَّثَنِي لَيْلُ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ
وَقَالَ: أَلَا كُمْ كُنْتُ مُلْجَأَ قَاتِلٍ وَمَوْطِنَ أَوَاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبِ
وَكَمْ مَرَّيْ مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤَوِّبٍ وَقَالَ بَظْلِي مِنْ مَطِيٍّ وَرَاكِبِ
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَيْتُهُمْ يَدُ الرَّدَى وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَابِ

أي نعم، كآني بوالدي رَحِمَهُ اللهُ وقد نامَ القيلولة بظلِّ هذا الجبل
الأشم، ورحل مع الراحلين، ثم طوته يدُ الرَّدَى مع الثاوين.
هذا، ولم تغبْ صورة أبي والسيارة تمتح هذا الطريق الذي يجري
استكمال تعبيد مساره الثاني.



وسبحان مُغيّر الأحوال! وسط ذاك المكان القفر الموحش قامت الحياة، واستتب الأمن، ونعم السكان بالتواصل والتنقل بين مناطق المملكة بيسر وسهولة. فها نحن؛ أنا في الوسط والشيخ الصديق الوفي فهد الفارس عن يميني، والأخ الكريم إبراهيم الدريس عن شمالي، نتناول طعام الإفطار وسط الصحراء، مُتجهين إلى بيشة التي تبعد عن الرياض قرابة تسع مئة كيلو.



(تاريخ الصورة أول شهر رجب عام ١٤٤٢هـ)

بل وتوفّرت خدمةُ المسافر؛ فالمسجد، ودورات المياه، وقهوة المسافر المجّانية على قارعة الطريق، وسيارات الأمن ومراكزه تراها كل ما بدا جبلّ أو ابتعدت عن سابقتها.



شَتَّانِ مَا بَيْنَ حَيَاةِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَحَيَاتِنَا الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْحَمْدُ
وَالشُّكْرُ.

أَبْتَاهُ: عَوَّضَكَ اللَّهُ بِنِعِيمِهِ عَمَّا أَصَابَكُمْ مِنْ جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ.

أَبْتَاهُ: أَنَا الْيَوْمَ أَدْخَلْتُ هَذَا الْمَقْهَى الْمَجَّانِي، وَأَقْضِي حَاجَتِي بِدَوْرَاتِ
الْمِيَاهِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَأَنْتَ وَرِفَاقُكَ قَدْ مَرَرْتُمْ بِهَذَا الْمَكَانِ سَيْرًا عَلَى
أَقْدَامِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَدْفَعُونَ أَغْنَامَكُمْ، وَتَحْشُونَ عَلَيْهَا الذُّبَّ، مَشَقَّةً وَعَنَاءً.

أَبْتَاهُ: لَكَ دَعْوَاتِي كُلِّ حِينٍ، فَصَوِّرْتُكَ وَرِفَاقَكَ الرُّعَاةَ مَا فَارَقْتَنِي
وَأَنَا فِي تِلْكَ الْفِيَا فِي الَّتِي تَحَوَّلَتْ بِفَضْلِ اللَّهِ آمَنَةً رَخِيَّةً مُطْمَئِنَّةً.

ذاك والدي رَحِمَهُ اللهُ تعلّمتُ منه تدريباً ومشافهةً، ما لم أجده في التعليم النظامي. لقد كان أبناء جيلي قريبين من والديهم وأُسْرهم؛ يشاركونهم في طلب الرزق الحلال، ويخدمون ضيوفهم، ويُلازمون مجالسهم، فيتعلمون ويقتدون. إنها مدرسةٌ تطبيقيةٌ عمليةٌ كَوَّنت جزءاً كبيراً من ثروتي المعرفية والمالية والشخصية.

إن تجربتي مع مدرسة البيت، تؤكد أهميتها وأثرها في تكوين شخصية الإنسان، ونصيحتي لأبنائي وللقراء هي الاهتمام بالأبناء وتدريبهم وتحميلهم المسؤولية منذ البداية، دعمهم يخطئون ويُصيبون، فالعاقبة حميدة.



عمي ومأساة العراق

اشتدَّ مرضُ عمي عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ الأَخُ والأَبُّ لإخوانه وأخواته، وصَحِبَهُ والدي في رحلة علاجية إلى الكويت، ثم إلى البصرة، ثم إلى بغداد. وحينما كان الوالد يقصُّ تلك الرحلة، كُنْتُ أرى مقلتيه وقد اغرورقتا بالدموع. لقد صَحِبَهُ أبي بقلبه قَبْلَ جسمه، حُبُّ زادته الأيامُ وَجَدًا وشوقًا. جمعهما الله في الفردوس الأعلى.

لقد كانت العراق قبل سبعين عامًا وما قبلها قِبْلَةً سَكَّانُ المملكة؛ ينشدون فيها الرزق، ويطلبون فيها المعيشة، فكانت البصرة والزبير وبغداد مهوى الأسر النجدية، ومكان التجمعات السعودية، كان فيها الأمن والرخاء، وفيها الطبُّ والعلم، فسبحان مغيِّر الأحوال! يقول الوالد: بعد أن وصلنا البصرة، توجهنا منها إلى بغداد بالقطار، ورأيتُ هناك على امتداد الطريق الخيرات، شاهدت المزارع وأكوام القمح، وكأنها تلال، والأبقار ترعى يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وحين أبصرتُ تلك المناظر دَمَعَتْ عيني أسىً على حالنا في الرياض؛ قطار وكهرباء وخيرات أين نحن منها؟!!

وعاد الوالد مع أخيه المريض من العراق، غير أن الله شاء أن يرحل هذا الأخ الأب في زهرة شبابه التي قضاها في رعاية إخوته وأخواته، وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين!

وحين كنتُ أتحَدِّثُ بقصة رحلة والدي إلى العراق للشيخ عبدالعزيز العساكر رَحِمَهُ اللهُ وهو في عمر الوالد قال: حدِّثكم أبوك عن الزراعة وما رآه؛ لأنه كان مزارعاً يحبُّ الزراعة. أمّا أنا فتاجرٌ يمارس البيع والشراء، ولهذا حين زرت العراق قبل سبعين عاماً استوقفتني أسواق (عباس إخوان)، والسلام الكهربائية المتحرّكة، التي تنقل الزوار للأدوار العليا، في حين كانت وسيلة النقل التي تنقلنا في الرياض هي الدواب، ووسيلة الزراعة الدواب، ووسيلة الإضاءة الشموع وأشباهاها. ورويتُ هذه الشهادة للسيد العراقي حسن العلوي -يزيد عمره عن ثمانين سنة- مؤلّف كتاب (عُمر والتَّشْيِيع)، كان من ضيوف مهرجان الجنادرية باستمرار، فقد استضافته في بيتي عام ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م، وحدَّثته بشهادة والدي والسيد عبدالعزيز العساكر رَحِمَهُمَا اللهُ عن حالة العراق، فقال العلوي: لقد صدق والدك وصاحبه، إن العراق في ذلك الوقت تنعم بالخيرات والأمان، فالقطار والسيارات والمتاجر، وأنا شخصياً اشتريت ثلاجة نوع (وستنج هاوس) من أسواق عبّاس إخوان عام ١٩٥٣ هـ قبل الثورة في العهد الملكي.

تلك العراق فيما مضى ازدهارٌ وثراء، ونحن في المملكة فقرٌ وضنى، وسنوات وجيزة وتغيّرت العراق، وجاءت الثورة ضد ملوك العراق من الأشراف، وطبّل لها الإعلام، وانخدع الشباب، وظنّوا النّعيم قادمًا، والمجد باسمًا. وما زلتُ أذكر خطابات عبدالكريم قاسم قائد الثورة الأولى وخطبته، وهو يقول: «إنني أنا البطل، إنني أنا الزعيم، إنني... إنني...». ثم تلاه ثوارٌ قتلوه، ومن قاتلٍ لقاتلٍ، حتى حلّ الخراب والدمار بعراق الخيرات، عراق الأنهار. ردّ الله له أمنه وأمانه، وحفظ الله لبلادنا عزّها، ومجدها، وولاة أمرها، فقد تغيّرت الحال في بلادنا، وتطورت من حسنٍ إلى أحسن، وعمّت الخيرات، وكثرت البركات، وبَدَّلَ اللهُ العسرَ يسرًا، وصارت مهوى الأنظار، وأمل القُصّاد.



بيتنا الأول

كان سكن الوالد في هذا البيت الطيني في حي مليحة وسط مدينة الرياض، حينما كنت في المرحلة المتوسطة.



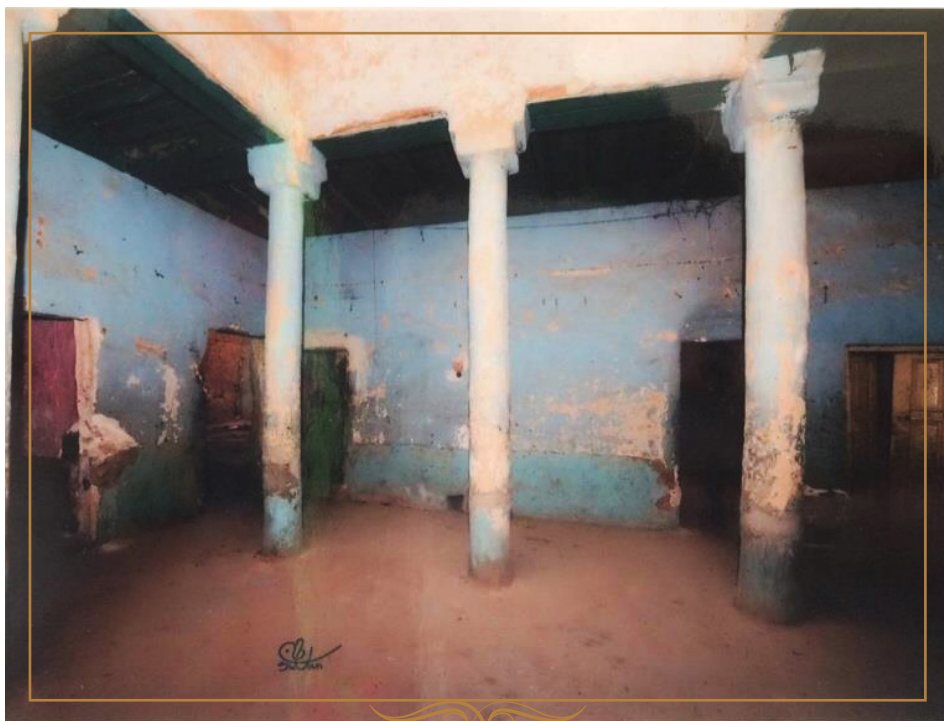
ما يزال البيت قائماً، وقد أخذت له هذه الصورة ضُحى يوم الثلاثاء ٢٧/٦/١٤٤٢ هـ، ويبدو جزؤه الشمالي (حوش البقرة) في الصورة متهدماً، وأمام السيارة واقفة مستودع متجر الوالد، وطالما صحبتُ عربة الكرو ذات العجلتين والحمار يسحبها لنقل أكياس السكر والأرز، كأني أرى بعد نيفٍ وخمسين عاماً تلك العربات وهي

تغدو وتروح ناقلة الأحمال. سنونٌ تمضي، رحم الله الوالد، وجمعنا به في دار عليائه.

وكان يسكن في مقابل هذه الدار من الشرق سماحة المفتي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ رحمه الله، وأخوه عبدالمملك رحمه الله وعبدالمحسن الذي يقاربنا في العمر، وكنا نذاكر معاً في مسجد أم ماجد القريب منّا.

يتكون ذاك البيت من دورين؛ الأرضي، وفيه مجلس للضيوف، ومدخلٌ بجواره درجةٌ للروشن مخصصٌ كذلك للضيوف [الروشن: مجلس يتوسط بين الأرضي والأول]، وفي الدور الأرضي ثلاث غرف نوم، ومستودع ومطبخ، وحوش البقرة. كانت الأبقار والماعز في ذلك الوقت تتواجد في بيوت كثيرين. ثم الدور الأول، وفيه مجموعة غرف، ثم الأسطح، وفيها يكون النوم، وفي ذاك البيت مروحةٌ سقفيةٌ في المجلس، وفي المصباح الغربي لفناء الدار مروحةٌ أخرى، هذا ويتوسط المساكن القديمة فناءً مفتوح، وتحيط به من الجهات الأربع مساحة مسقوفة عرضها أقل من ثلاثة أمتار، تُسمى مصابيح ثم الغرف.

وهذه صور البيت من الداخل تُوضح حالة مساكن الأُمس.





وحين استغرقت متأملاً صور تلك الدار المهجورة، تذكّرت تلك المرحلة العمرية من حياتي وفي فتوّتي؛ إذ كُنت أدرس في معهد الرياض العلمي، وهاهي صورتي في تلك المرحلة. إنها صورة تعرض حال الإنسان وهو يتنقّل من ضعفٍ إلى فتوّة وقوّة، ثم إلى شبابٍ ونضارة.



وفي استرجاع تلك الذكريات، وقراءة تلك الصور قراءةً اعتبارية،
تَذَكُّيرٌ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ وَعَلَى جِيلِي، فقد تنقَّلنا من خيرٍ إلى خيرٍ، وعشنا
حياة السعادة والرخاء، فاللهُمَّ لك الحمد والشكر!

إننا في المملكة نتقلَّبُ في النعيم والأمن والأمان منذ توحيد المملكة
على يد الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ونعيش التطور رُويْدًا رُويْدًا. ورسالتي
لقراء كتابي المُتأخرين أَنْ اقرؤوا واسمعوا شهادتنا، وحافظوا على
نِعَمِ اللَّهِ المُتَحَقِّقة في وطننا المعطاء، واحذروا دُعاةَ الفرقة وكُفر النعم.

هذا، وكان لنا في هذه الدار تعليمٌ وتربيةٌ، فضلًا عن التعليم
النظامي؛ فخدمةُ ضيوف الوالد، وشراء حاجات البيت، مسؤوليةٌ
مشتركةٌ بيني وبين أخي فهد رعاه الله، فهو يصغرنِي بستتين تقريبًا.
لم يك لدينا في تلك الأيام خدمٌ ولا سائق، فكان على الأقدام ذهابنا
وإيابنا للمعهد والمتجر، وعلى رؤوسنا نحمل الأغراض وعلَفَ
البقرة، وكان أخي ثِيَّان حين تحوَّلْتُ من بيت الأخوال إلى بيت
الوالد، قد تخرَّج في كلية الشريعة، وتعيَّن مديرًا للمعهد العلمي في
الخرج ببلدة الدُّلم، بداية عام ١٣٨٤ هـ، وصحِبَتْهُ الوالدة رَحِمَهَا اللَّهُ مدة
عمله في الخرج، سبع سنوات وكُنْتُ أمتطي السيارات الذهابية للخرج
عصر الخميس، وأعود فجر السبت إلى المعهد العلمي مباشرة، كانت
السيارات المتوفرة هي (ونِيَّات) تنقل محاصيل الخرج الزراعية،

بخاصة أعلاف البرسيم، وكانت الأجرة ريالين في كينة السائق،
وربّالاً في صندوق الونيت المٌظلل بشراعٍ يحمي من الهواء.

أَوَّلُ سَيَارَةِ

في أثناء بقاء الأخ ثنيان في الخرج، كُنْتُ وأخي فهد قرييّن من
الوالد، ومعه في متجره كل عصر، وفي المساء نُسامرُه في البيت، وطلبنا
من الوالد شراء سيارة، وبمشورة ابن العم فهد بن عبدالله الثنيان
تملّكنا أول سيارة (جيب شاص)، كان ابن العم عصامياً مكافحاً،
لم يتعلم في المدارس النظامية، ولكنه تعلم في مدرسة الحياة، لديه
معرض لبيع السيارات وشرائها، يذهب إلى ألمانيا ويشترى سيارات
مستعملة، ويأتي بها سيراً من دولة إلى دولة، يقطع المسافات وهو لا
يعرف اللغات الأجنبية، وتعليمه محدود. هي الإرادة والهمة.

وتعلّمت القيادة وأخي فهد في ذاك الجيب، وفي حوضه المٌغطّى
بشراع كُنّا ننقل إخواني الصغار (محمد، وعبدالله، وعمران) لمدرسة
المحمّدية الابتدائية.

هذا، وبمناسبة شراء السيارة، أتذكر قصةً طريفةً حكاها للوالد
أحد رفاقه رَحِمَهُمُ اللهُ.

وَلَدُ الْمُخْبَأْ

في ذات يوم ونحن في متجر والدي رَحِمَهُ اللهُ زارنا كهْلٌ من أصحاب الوالد، عرَكَتُهُ الحياةُ بتجارِها، وبعد أن تحدّث أبي مع صاحبه، قال له الوالد: الأولاد: عبدالعزيز، وفهد، يُلحُّون عليّ لشراء سيارة خاصة، ماذا ترى يا أبا سعد؟ فتبسّم ونظر إلينا، وقال: لا تزعلون يا أبنائي، اسمعوا قصّتي مع سيارتنا. لقد اشتريتُ سيارة، وفرح بها ابني سعد وإخوانه، لكن تبين أن ولدَ الجيب أكثر خدمةً وأطوع.

قال: تعلم أبا ثنيان، أن مزرعتي في وادي حنيفة بعرقه، وحدث منذ أيام أنه كان يتردّد عليها آخر الليل حرامية يسرقون البطحاء، يأتون بناقلاتهم للقسم القصي من المزرعة مع عمالٍ لهم، ويحمّلون السيارات بالبطحاء، ثم يهربون قبل طلوع الشمس، واشتكت على الشرطة وطلبوا مني أن أراقب المزرعة، وقالوا: إذا أتوا وبدؤوا التحميل، أسرع إلينا، وسوف نرسل معك جنودًا للإمساك بهم وهم يسرقون! يقول أبو سعد: وفي الأسبوع الماضي استيقظتُ آخر الليل وناديت: يا سعد، هيّا شغل السيارة فالخرامية يسرقون المزرعة، وبعد

الصياح أجبني: حاضر. وانتظرت ولم يستيقظ، وناديت على ابني الثاني، فكان مثل أخيه سعد حتى أذن الفجر وأنا في عراقك وصياح مع الأبناء، ولكن دون جدوى، وكل يوم يقولون: غداً ويعدون، ولكن يغلبهم النعاس والكسل. وحين تعبت منهم، فكرت في ولد الجيب الولد المطيع، فأسرعتُ بالأمس للخروج من البيت قبل صلاة الفجر، وفي الشارع العام لقيت سيارات الأجرة تتخاطف، فأشرت لواحدة فتوقفت سائقها، واتفقت معه أن نذهب للمزرعة والشرطة، ونعود وأشتري الخبز والفل، ثم العودة للبيت، بأجرة قدرها خمسة ريالات، وذلك ما كان. فذهبنا وأمسكنا بالحرامية، وعدت للبيت والأولاد يغطون في نومهم، في حين كانت أم سعد قد جهزت القهوة والحليب وأفطرت وإياها، وتركت الأبناء ومعاناتهم - وأحسبكم مثل آبائي - ويختم حديثه بكلمة عامية قال: أبا ثنيان، احرص على (ولد المخبأ) - يقصد النقود - هو الولد البار اللي ما يعصي.

هذا درس عملي تطبيقي لهذا الأب مع أبنائه، كان يرويه بحزن وألم، فتأثرت أنا وأخي فهد، وتعاهدت وإياه ألا نكون كذلك، وأحمد الله أننا تعلمنا من تلك الدروس، فما أن يهتف الوالد إلا ونتسابق إليه.

وبقي درس (ولد المخبأ) حاضرًا معنا، فحين أجد ما أنعم الله به عليّ من خير، بعد أن تقدّم بي العمر، أتذكر ذاك الدرس، فريالكَ ولدٌ حاضرٌ لا يتأخر، مُطيعٌ لا يتردد! زادنا الله من فضله.

الخطلاء والرافعي

ما هي حكاية الخطلاء؟

وما هو دور الرافعي في هذا السياق؟

تلك الحكاية وذاك الكاتب أسهما في تربيتي وتعليمي مرحلة الفتوة والبلوغ.

بعد سلامة قدمي، عُدتُ للمدرسة الابتدائية؛ مدرسة الأعشى، وقد مضى أغلب العام الدراسي، وكانت إدارة المدرسة والمدرسون يعلمون بمرضِي؛ ولهذا أبدوا تعاطفهم، وأعدتُ السنة السادسة الابتدائية مرةً أخرى، وجاءت الامتحانات واجتزتها، ثم التحقتُ بمعهد الرياض العلمي عام ١٣٨٣هـ، وها هو مبناه وقد تحول إلى مدرسة هندية. دُنيا تتغير، كأني بهذا المعهد وهو عامرٌ بطلابه السعوديين؛ إذ كان عدد طلاب دُفعتنا في أربعة فصول يزيدون عن مئة طالب.



معهد الرياض العلمي بطريق البطحاء قُرب مقر بلدية الرياض سابقاً

كان المعهد ذلك الوقت كأنه جامعة، منهجنا في الدراسة الجِدُّ والحزم، نُذاكِرُ بالمساجد، ونقضي الساعات الطوال في جنباتها، لقد كُنَّا نُذاكر بمسجد حيِّنا مُليحة (مسجد أم ماجد بن عبدالعزيز) قُرب ميدان دُخنة وسط مدينة الرياض، وأحياناً نذهب إلى المسجد الجامع الكبير بالرياض للمذاكرة فيه، وذلك قبل إعادة بنائه، وكان الوقت يمتدُّ بنا طويلاً؛ حيث كُنَّا نُصَلِّي العصر والمغرب والعشاء، ونستمرُّ إلى منتصف الليل، أحياناً في هذا المسجد، وأحياناً في ذاك، وإذا بدأت الامتحانات سهرنا حتى الفجر.

كُنَّا نبدأ المذاكرة بالمساجد قبل الاختبارات بشهور، فالعام الدراسي متواصل، والاختبارات في آخر العام، وفي كامل المقرر. بل كأني أرى الآن عشرات الطلاب في تلك المساجد بين جالسٍ متكئٍ

بأحد الأعمدة، وآخر يغالبه النُّعاس، وثالثٌ يذرُع المسجد طولاً وعرضاً وهو مُركَّزٌ في كتابه، ويكاد يَرْتطمُ بالحائط، وأحياناً نخرجُ إلى الشارع المجاور للمسجد نذاكر على ضوء الطريق، وندفع الملل، ونلتقي آخر الليل برجال العسّة، ونحدث وإياهم؛ رجالٌ آمنٌ تبدأ مهمتهم بعد منتصف الليل، يتجولون على أقدامهم ذلك الوقت.

ويُوجد في بعض المساجد غُرْفٌ يسكن بها الطلاب القادمون من خارج الرياض، فلم يكُ هناك سكنٌ للطلاب في التعليم الجامعي كما اليوم، وكان في وسط مدينة الرياض بيوتٌ طينيةٌ في منطقة تُسمَّى (الوسيطي) مُوقَفَةٌ لسُكنى طلاب العلم، يسكنُ بها عددٌ آخر من زملائنا القادمين من القرى والهجر، وفي تلك البيوت وتلك الغرف يقوم الطُّلاب بخدمة أنفسهم؛ فالمطاعم شحيحة، والطلاب أنفسهم يوفِّرون من مكافآتهم للصرف على ذويهم. كانت تلك المرحلة من حياتنا سهلة، وتكاليفها يسيرة، ودخلها شحيحاً.

وكان من الأساتذة الذين درّسوني في المعهد العلمي، وظل اسمه محفوظاً بالذاكرة، الشيخ عبدالله المنيف - رَحِمَهُ اللهُ وأسكنه فسيح جنّاته - وحكاية الخطباء عرفناها منه، وهي يدُ اللاسعة التي يُسميها (الخطباء) درّس دفعتنا مادة الأدب العربي، ويطلب أن نحفظ المعلقات، ونقف أمام زملائنا نقرأ تلك المقطوعات الشعرية، والويل لمن لا

يحفظ، وإذا تكرر الإهمال أمسك كفَّ الطالب بيده اليمنى، وبأصابع يده اليسرى يتتبع الضرب، لكنه ضرب مودّة وأبوّة؛ إذ يصحب ضربَه كلماتُ إطراءٍ وثناءٍ تجعلنا نتقبّلُ حزمه، ونبتسم ونعده بالحفظ. أسلوبُ تربويٍّ حازم، ومنهجُ أبوّةٍ حانية؛ ولهذا نحفظ بجِدٍّ وحضورٍ ذهني، وقد ظلّت تلك المواد الشعرية والنثرية في الذاكرة، وبقِيَتْ تلك المحفوظات في اللا شعور زادًا لغويًّا نمتحُّ منه، وزادت به ثروتنا اللغوية، كما تمكّنا بتلك المحفوظات من الخطابة والإلقاء والكتابة؛ فلم نشكّ جفاف اللغة، ولا تلعثم القول، بل تنهال علينا الألفاظ كال مطر. جزى الله أولئك الأساتذة كل خير.

وكانت مادة النحو من أصعب المواد، فالكتاب المقرر هو شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك التي يلزمنا المعلمون بحفظها:

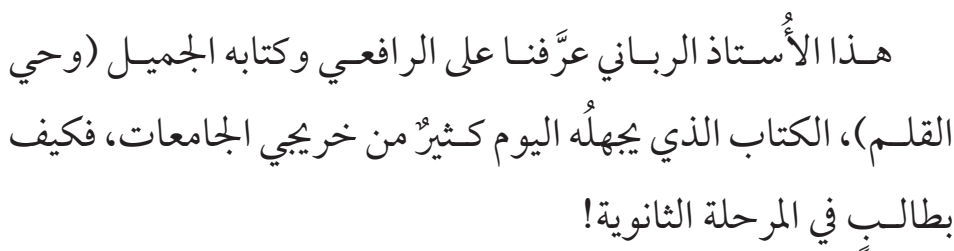
كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَأَسْتَقِمَّ وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمَ
وَاحِدُهُ كَلِمَةٌ وَالْقَوْلُ عَمٌّ وَكَلِمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمُّ

ورزقنا الله أستاذًا في الصف الرابع لمادّة النحو أحييناهُ، وجعلنا نتذوقُ مادة النحو، وهي من أقدس المواد، هو الأستاذ محمد العجلان رَحِمَهُ اللهُ نال فيما بعد درجة الدكتوراه، وتدرّج في المسؤولية حتى صار مديرًا لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية آنذاك، ذلك الأستاذ؛

سَهَّلَ الحَزْنَ، وطَوَّعَ الصَّعْبَ، فكانت تلك المادة من أمتع المواد وأحبّها إلى النفوس على الرغم من جفافها وصعوبتها؛ ولهذا حين انتقلنا للمرحلة التالية في السنة الأُخرى تشوّقنا للأستاذ العجلان ليُدْرِسنا مادة النحو، ولكن جاءنا أستاذ آخر فتشاورنا نحن الطلاب، وتقدّمنا لإدارة المعهد بخطابٍ رسمي كُنْتُ من الموقعين عليه، وقدّمناه لمدير المعهد الشيخ عبدالعزيز العبد المنعم، وعندما نظر فيه قال: بارك الله فيكم وفي حرصكم على العلم، لكن كل الأساتذة فيهم بركة، وعدنا بخُفْي حُنين، ولكن لم نياس فذهبنا لوكيل المعهد الشيخ علي الغيث، ورجوناه المساعدة في تكليف العجلان لتدريسنا، وذكرنا له أننا في أهم المراحل، فنحن طلاب المرحلة النهائية، ونحن الأحق بذلك الأستاذ، ووعد ببحث الأمر، ولكن لم يتحقق طلبنا، ومضى أسبوع ولم تستجب إدارة المعهد لرغبتنا، وعند ذلك اتَّفَقنا كلنا نحن طلاب المرحلة النهائية في المعهد الأربعة فصول، على عدم الحضور عند المعلم البديل للعجلان، والخروج من الفصول إلى الساحة فور دخوله؛ ولهذا حين جاء ذاك المدرس، وقفنا وتحدّثنا إليه بأدبٍ أننا لا نرغب فيه لتدريس النحو، ونرغب بالأستاذ العجلان، وخرجنا من الفصل، وتبعنا زملاؤنا طلاب الفصول الأخرى، خرجوا معنا للساحات الخارجية، وجاء إلينا وكيل المعهد يُنادي: ادخلوا فصولكم. فقلنا:

لن ندخل ما لم تُغيّروا لنا أستاذ النحو. وترجّانا للدخول، فرفضنا، وذهب لمدير المعهد، ثم رأيناهم استدعوا الأستاذ العجلان، ودخل معهم غرفة المدير، وبعد نصف ساعة عاد الوكيل، وأخبرنا أنهم استجابوا لرغبتنا، وسوف يُدرّسنا الأستاذ العجلان، وتحقّقت رغبتنا. إن هذا الموقف يُجسّد جدّيتنا وحرصنا على التعليم، ويعرض مكانة المعلم الربّاني وكيف يتعلّق به طلابه ويبقى في ذاكرتهم.

أما الأستاذ عمر الحصين رحمه الله فكان يُدرّسنا مادة البلاغة عام ١٣٨٦ هـ، وكان عاشقاً لمهنته، أميناً في رسالته، وفياً لطلابه، حازماً في مادّته، جاداً في عرضه، أحسبه يقضي الوقت الثمين في تحضير درسه والاستعداد لطلابه، فيبحر في معلوماته، ويتوسّع في استطراده، فيشدّنا للمادة، ويدفعنا للتنافس العلمي والقراءة الحرّة، وكان يصرف جزءاً من راتبه الشهري لشراء الكتب التي يهديها لطلابه، وأنا واحدٌ منهم. والراتب في ذلك الوقت محدود، فقد كان راتب المعلم في حدود ألف ريال فقط، كان الأستاذ عمر يشتري من هذا الراتب كُتباً يهديها إلينا، وتدفعنا تلك الكتب للمزيد من التحصيل العلمي. وأذكرُ أنه أهداني كتاب (وحي القلم) للرافعي المكوّن من ثلاثة مجلدات، وهو كتابٌ ما زلتُ أحتفظُ به في مكتبتي الخاصة، وأطلعتُ أبنائي عليه وعلى ما كتبه أستاذي عمر الحصين -أسكنه الله فسيح جناته - من إهداءٍ عليه كتبه بخطّ يده؛ إذ يقول:



هذا المعلم الكريم الذي عَلَّمَنَا القراءة في أمثال هذا الكتاب، كان له الأثر في صياغة شخصياتنا وتكوينها. وفي السنة التالية دَرَّسَنَا هذا الأستاذ عمر مادة التاريخ، فأبدع وتألق وشَدَّنَا لمادته، وطوَّرَ طريقته، واتخذ أسلوباً تربوياً لبناء شخصياتنا، وصقل مهارتنا القيادية، فصار يُشجّعنا على أن نُدرِّس بعض الموضوعات بدلاً منه، فكان هو يجلس

مكان الطالب، والطالب يقف ويشرح الدرس، ويناقش الطلاب، وما زلتُ أذكرُ أنني كُنْتُ من أولئك الطلاب المدرسين الذين وقفوا بكل اقتدار يشرحون المادة، والأستاذ الحصين يُشرف من بُعد، ويرقبنا ونحن نشرح الدرس، فيبتسم ويشجع، ويرفع معنوياتنا. وكان لذلك المنهج أثره في بناء شخصياتنا.

والأستاذ الشيخ محمد الصالح -مَتَّعَهُ اللهُ بالصحة والعافية- وهبهُ اللهُ النِّباهةَ والفطنة؛ فلئن انطفأ بصره فقد استنار قلبه، عَوَّضَهُ اللهُ عن غاليته بقلبٍ فطن، وسمعٍ حاد؛ يُحَسُّ بأدنى حركة، ويُمَيِّز الأصوات، بل يعرف الطالب من يده ولو لم يتكلم. دَرَّسْنَا باقتدار وإخلاص مادة التاريخ في الصف الثاني، وكُنَّا نهأبه ونحترمه ونستعدُّ لدرسه، فنذاكرُ المادة قبل شرحه لها وبعده، ونستوعبُ المعلومات؛ ولهذا بقيتُ معلومات تلك السنوات منقوشة بالذاكرة.

بارك اللهُ في أولئك الرجال الأخيار، وكان الشيخ صالح الأطرم رَحِمَهُ اللهُ سَمَحًا؛ نستشعرُ طيبةَ قلبه، وصفاءَ فؤاده، وحرصه على طلابه وكأننا أبناءه من صُلبه. أساتذة استحضروا الأمانة والمسؤولية. كان يُدَرِّسنا مادة الفقه، ويطلب منا حفظ المتن الذي هو كتاب (زاد المستقنع)، وكأني به رَحِمَهُ اللهُ يقتربُ مني، ويمسكُ بيدي أن أقوم، ويقول: عبدالعزيز: سَمِّ بالله؛ أي اقرأ مادة الدرس الذي سوف

يشرحه. متابعةً لنا قبل الشرح وبعده، أساتذةً لن يجود الزمان بمثلهم. وكان الأستاذ محمد الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ يهزنا ويُطربنا بإلقائه بعض القصائد الشعرية كقصيدة ابن زيدون النونية في ولادة بنت المستكفي:

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِيَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لَقِيَانَا تَجَافِيَا
بِتُّمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِيَا

هذه القصيدة حفظتها منذ أكثر من خمسين سنة على يدي ذلك الأستاذ النبيل، وها أنذا أدوُّنها من ذاكرتي بعد تلك السنين الطويلة. ولن أنسى أستاذنا محمد البراك وانحناءات رقبتة، وهو يُلحُّ في الشرح والتوضيح لمادة البلاغة والأدب.

ألا بُورك في أولئك الرجال وَرَحِمَهُمُ اللَّهُ، كم كانوا دروسًا وقُدوةً لطلابهم، ولمن جاء بعدهم.

إنهم أساتذتنا الأوائل، أصحابُ همٍّ ورسالة، وذوو أمانةٍ ومسؤولية. تلقينا العلم على أيديهم بجِدٍّ وحزمٍ وسعةٍ مداركٍ، وترغيب في القراءة، وزيادة لثرائنا اللغوي، تعليمٌ رَمَزُهُ، الخطباء، ووحى القلم للرافعي، وفيض الخاطر بمجلداته العشرة لأحمد أمين، والعبرات والنظرات للمنفلوطي، وغيرها.

عنتره وعبله

قد يتساءل القارئ فيقول: وما علاقة عنتره وعبله بلؤلؤك وحصاك، ورجائي الصبر الصبر، فسوف تعرفون السبب فيما بعد! فعنتره صبر وصبر وانتصر! قبل أن أعرض لحكايتي مع عنتره وعبله، أشير لارتباط ثقافي وفكري مبكر مع قريب، ربطتني به علاقة رحم وصداقة بدأت منذ الطفولة؛ فقد كنت أسعد بقضاء بعض الأيام في داره برفقة الوالدة رَحِمَها اللهُ هو ابن خالتي محمد بن عبدالله المرشد رَحِمَهُ اللهُ كانت أمي وأمه رَحِمَهُما اللهُ صديقتين قبل أن تكونا أختين، فرّقهما الزواج، ثم بعد سنوات من العمر وانتهاء العلاقة الزوجية لكل منهما، عادتا للصحبة والرفقة الدائمة؛ إذ غادرت أمي رَحِمَها اللهُ بيت الوالد بعد سنوات من العشرة، وتلك سنة الله في خلقه فليس كل زواج يدوم. أما خالتي فسبقها زوجها للآخرة، وكثيرا ما كان الشوق يدفع الأختين للاجتماع مرة في بيت الأخوال، ومرة في بيت ابن الخالة عبدالعزيز أو أخيه محمد رَحِمَهُما اللهُ جميعا، وقد تكونت بيني وبين ابن الخالة محمد مودة وصحبة نشأت مبكرة حين كنت والوالدة ننام عند الخالة لطيفة، في بيته ومع أسرته. زوجته الجوهرة بنت الخال

عثمان، جوهرةً على اسمها -متَّعها الله بالصحة والعافية- نعم هو يكبرني بقرابة عشر سنوات، لكن جمعتني وإياه هوايةُ القراءة، ثم النقاش حول ما نقرأ، بخاصة بعد أن بلغت مرحلةَ الفتوة، وصار لدي اهتمام بالقراءة والاطلاع، لقد كانت قراءتي مع ابن الخالة محمد امتدادًا لما تلقَّيته من أساتذتي في معهد الرياض العلمي، فقد فتحوا لنا في المعهد نافذة على الأدب والفكر؛ حفظنا قصائد المعلقات وغيرها من عيون الشعر العربي، واستهوتنا كُتب الأدب واللغة، وكُنَّا نَتَلَقَّى من أساتذتنا في تلك المرحلة التشجيع، فأستاذي عمر الحصين رَحِمَهُ اللهُ كما أشرت سابقًا أهداني عام ١٣٨٦ هـ، كتاب (وحي القلم) للرافعي في ثلاثة مجلدات، وقرأته بالكامل. واستهوتني القراءة والشغف باقتناء الكتب والمجلات وقراءتها، وما زلت أحتفظُ بكتاب (فيض الخاطر) لأحمد أمين الذي اشتريته وأنا في الصف الأول الثانوي، ويتكون من عشرة مجلدات، وقرأت تلك المجلدات العشرة، ومادَّته هي مجموعة مقالاته الأدبية والاجتماعية التي نشرها في تلك المرحلة. وأحمد أمين كاتبٌ وأديبٌ مصري يجذبُ قلمه الأدبي القُرَّاءَ لمتابعته، يقول في مقدمة كتابه: «بعض هذه المقالات وليدُ مطالعات هادئة، وبعضها نتيجة عاطفةٍ مائجة، وكلُّها تعبيراتٌ صادقة».

وبعد انتقالي لبيت الوالد رَحِمَهُ اللهُ كُنتُ أزور ابن الخالة محمد

رَحْمَةُ اللَّهِ فِي بَيْتِهِ بِاسْتِمْرَارٍ، فِي الْغَالِبِ كُلِّ جُمُعَةٍ بَعْدَ الصَّلَاةِ نَلْتَقِي فِي بَيْتِهِ. كَانَ يِعَاتِبُنِي إِذَا تَأَخَّرْتُ، وَكَانَ يَعْمَلُ مَوْظَفًا إِدَارِيًّا فِي جِهَازِ حُكُومِي بِهَيْئَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُنْفِقُ بِسَخَاءٍ فِي شِرَاءِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ وَالْكَتَبِ، وَكَانَ سَابِقًا لِعَصْرِهِ، يَعِيشُ الْمُسْتَقْبَلَ، وَقَارِئًا نَهْمًا، نَقَلْتَهُ قِرَاءَتُهُ وَثِقَافَتُهُ مِنْ مَجْتَمَعِ الْهَيِّئَاتِ؛ الْمَحْدُودِ الْمَعْرِفَةِ، الْمُتَخَوِّفِ الْحَذِرِ مِنَ الْجَدِيدِ وَمِنْ عُلُومِ الْعَصْرِ، إِلَى التَّطَلُّعِ نَحْوَ الْمُسْتَقْبَلِ، وَمَعْرِفَةِ الْجَدِيدِ.

فِي تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ كَانَتْ مَجْلَةُ الْعَرَبِي الْكُوَيْتِيَّةُ نَافِذَةً لِلْقَارِئِ الْعَرَبِي نَحْوَ عُلُومِ الْعَصْرِ وَالثَّقَافَةِ وَالْفِكْرِ، كَانَتْ مِنْ أُمُيزِ الْمَنَابِرِ الثَّقَافِيَّةِ فِي تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ؛ كَانَتْ وَجْهًا آخَرَ لِمَجْلَةِ الرِّسَالَةِ الْمِصْرِيَّةِ الَّتِي تَوَقَّفَتْ عَنِ الصُّدُورِ عَامَ ١٩٥٣ م، بَعْدَ عَشْرِينَ عَامًا مِنَ الْحَيَاةِ الْأَدْبِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ الْجَزَلَةِ. كَانَ رَئِيسُ تَحْرِيرِ الرِّسَالَةِ وَصَاحِبُهَا الْأَدِيبُ أَحْمَدُ الزِّيَّاتِ، وَمِنْ كُتَّابِهَا عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ الْعِقَادِ، وَطَه حُسَيْنُ، وَالشَّيْخُ عَلِيُّ الطَّنْظَاوِيِّ، وَالشَّيْخُ مُحَمَّدُ شَاكِرٍ، وَمُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِيِّ، وَمُحَمَّدُ عَبْدِ اللَّهِ عَنَّانٍ، وَأَحْمَدُ أَمِينٍ، وَأَحْمَدُ زَكِيٍّ، وَالدَّكْتُورُ عَبْدِ الْوَهَّابِ عَزَامٍ. فَهَمَّ عَمَالِقَةُ الْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ذَاكَ الزَّمَنُ! وَجَاءَ أَحْمَدُ زَكِيٌّ مِنَ الرِّسَالَةِ لِلْكُوَيْتِ، وَرَأْسُ تَحْرِيرِ مَجْلَةِ الْعَرَبِي، وَاسْتَكْتَبَ كِتَابَ الرِّسَالَةِ؛ طَه حُسَيْنُ، وَنَجِيبُ مَحْفُوظٍ، وَإِحْسَانُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُمْ.

هذا، وإن كانت مجلة العربي دُون الرسالة المصرية في الجانب الثقافي والفكري، فقد نَحَتْ نَحْوَ العلوم، فمن أبوابها؛ ركن الذرة والفضاء، وطبّ وعلوم، ورئيس تحريرها أكاديمي شغل وكيل كلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم مديراً للجامعة نفسها. كانت افتتاحيتهُ جوهرة مقالات المجلة. لقد عرفتُ مجلة العربي من ابن الخالة محمد رَحْمَةُ اللَّهِ، وتعلّقت بتلك المجلة، وكُنْتُ ألتقي به ونقرأ معاً تلك المجلة الكويتية كلما صدر عددها الجديد، ونَتَطَلَّعُ لمقال رئيس تحريرها أحمد زكي وكتاباته العلمية، كما نقرأ الصحف والمجلات السعودية كمجلة (العرب) لمؤسسها الشيخ حمد الجاسر رَحْمَةُ اللَّهِ وقد طالت صحبتي لهاتين المجلّتين (العربي، والعرب). وحين كُنْتُ أدوّنُ هذه الذكريات عُدْتُ لمكتبتي الخاصة، فوجدتُ أعداداً من مجلة العربي والعرب، وأتذكر حوارِي وابن الخالة، ونقاشنا حول المواد العلمية لتلك المجلات، فضلاً عن جريدة الرياض، ومجلة اليمامة، وما يصل للمملكة من المجلات والصحف المصرية. وكان حوارنا ونقاشنا يطول بشأنها، وأحياناً نُصلي العصر ونعود للقراءة والحوار!

وقد فتحتُ لي تلك القراءات الآفاق المعرفية، وتنوعت ثقافتي، وكانت تلك المجلات، وكتب المنفلوطي؛ العبرات، والنظرات، وإهداءات أساتذتنا من الكتب، نواة مكتبتي الخاصة، كما بحثُ فيما بعد عن أعداد مجلة الرسالة واقتنيْتُها.

ومضت الأيام وفي عام ١٣٨٥ هـ وأنا في الصف الثالث متوسط، بدأ البث التلفزيوني في المملكة، وكان الوضع الاجتماعي محافظاً وبقوة، وكانت هناك مقاومة ناعمة؛ ففئة من الأسر ترى حُرمة استخدام التلفزيون، فمنعته من بيوتها، يقول أحد الأصدقاء: اشترى أخي الأصغر تلفزيوناً وخبَّأه في غرفته بالدور الثاني، وعلم أبي فصعد إليه ووبَّخه، وأخذ التلفزيون وألقاه من السطح، فتكسَّر وتقطَّع إرباً. وقال آخر عن أمِّه: إذا فتحنا التلفزيون غطَّت وجهها!

وفئة ثانية من الناس، لا ترى الحرمة، لكنها تتجنب القيل والقال، وفئة ثالثة استخدمت التلفزيون فور بدء البث! وكان ابن الخالة محمد من أول مُستخدمي التلفزيون، في حين تمنَّع الوالد رَحِمَهُ اللهُ تحوطاً.

دُنْيا تتغير ومُجتمعٌ يتشكَّل ويتماشى مع الواقع. وفي أثناء زيارتي المتكررة لابن الخالة محمد، شاهدت لأول مرة التلفزيون في بيته، واستمعت لبرامجه، وإن كانت والدته الخالة ترفض دخول غرفة التلفزيون! وتطور البثُّ، ومضت السنة الأولى، وبدأت المُسلسلات التلفزيونية، وحدثني ابن الخالة محمد عن مسلسلٍ ليلي موعده بعد صلاة العشاء جميل هو (عنتره وعبله)، ودعاني لمشاهدته، كان بيته قريباً من منزل الوالد، وأخبرتُ أخي فهذا فجاء برفقتي، ووجدنا محمداً في استقبالنا، وكان رَحِمَهُ اللهُ يهتمُّ بالترتيب والنظافة والذوق، فما

إن دخلنا المجلس؛ وإذ بالشاي والقهوة، ثم صحن الحبيب البارد، وسمرنا ليلة مُمتعة نرى ذاك المسلسل الجاذب! وجئنا عدة ليالٍ متتالية، ولكن استحيينا واعتذرنا عن الحضور؛ بحجة أن الوالد سأل عنا ولا نودُّ تكدير نفسيته. لقد اعتذرنا ونحن نودُّ الحضور لمشاهدة بقية مسلسل عنتره وعبله، ومع أن البث دون ألوان؛ إذ كان أسود وأبيض، لكنه كان ممتعاً، وما تزال الذاكرة تستعيد في الذهن بعض تلك المقاطع.

وانطوت الأسابيع، وكنت على عادتي مع محمد رَحِمَهُ اللَّهُ نلتقي في الأسبوع مرّة ومرّتين! وذات أسبوع كُنت عنده حتى قبيل المغرب وودّعته، وما كُنتُ أعلمُ أنه الوداع الأخير!

ففي ليلة ذلك اليوم الحزين فاجأه الموت، وهو في فراش نومه بعد منتصف الليل، وفاضت روحه، وهو في حضن أمه رَحِمَهَا اللَّهُ، وذلك في اليوم الثالث من الشهر الخامس لعام ١٣٨٧ هـ. وكُنتُ على عادتي في الصباح في أثناء الإجازة الصيفية، إما أن أسبق الوالد للمتجر أو هو يسبقنا، وفي صباح ذلك اليوم توجّهتُ للسوق، وعند وصولي للمتجر أخبرني الوالد بوفاته، فأسرعت نحو بيته مذهولاً مما جرى، حتى إنني فقدت تركيزي ولم أعد أعرف أين بيته، وصرتُ أدورُ بحثاً عنه ولا أدري أين هو؟ وبعد أن تعبْتُ وكلّتُ قدماي من الدوران،

سألتُ صاحبَ بقالةٍ على شارع السبالة عن بيت محمد بن عبد الله المرشد، فردَّ عليَّ: الذي تُوفي البارحة. قلت: نعم. فقال: هو ذاك! ورحل رَحْمَةُ اللَّهِ وترك أطفاله، والحمدُ لله كبرُ أبنائِهِ وبنائِهِ وتزوجوا جميعاً وأنجبوا!

لقد كان رَحْمَةُ اللَّهِ مدرسةً في السياسة والثقافة وعلوم العصر، مدرسةً مُبَكَّرَةً، وكان نِعَمَ الصديق والقريب، هو من المدارس التي تعلَّمتُ منها. جمعني الله به في الفردوس الأعلى.

هذا، وقد عُدْتُ لذكريات الماضي أسترجعُها وأتأسَّفُ أن لم أهُتِدِ لنصيحة الشيخ علي الطنطاوي رَحْمَةُ اللَّهِ وأدوِّنُ ذكرياتي أولاً بأول، فلو كنتُ مسجلاً تلك الحوارات مع محمد وغيره في مراحل العمرية، لرأيت عقلي وفكري في مرحلة فتوّتي، وفيما تلاها.



أساتذتي في الجامعة

بعد النجاح في المعهد، انتقلتُ لبيئةٍ أخرى؛ إلى مصنع الشباب، إلى خطوط الإنتاج المتأخرة، إلى كلية اللغة العربية، وفيها قضينا حياةً تعليميةً جادةً منذ الشهور الأولى، كنا نروح ونغدو إليها كل يوم سيرًا على الأقدام، حتى تغيّر السكن، وابتعد المكان، فصارت السيارة رفيقةً الذهاب والإياب.

كان عميد الكلية هو معالي الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، كان الرجل وقورًا له مهابةٌ واحترامٌ في نفوس الطلاب، وكان باب مكتبه مفتوحًا باستمرار، نشعرُ حين مقابلته بالاحترام والتقدير، يسمعُ بتركيز؛ من ذلك أنه في الشهر الأول من أول يوم لنا في الكلية، جاءنا شيخٌ أزهرِيٌّ يشرح مادة التوحيد، وعندما استرسل في شرح المادة استوقفناه في عددٍ من المسائل العقدية، وكانت خلفيتنا الشرعية جيّدة، فقد درّسنا في المعهد العقيدة الواسطية، ولهذا استنكرنا على الأستاذ تقريره بعض الأمور، وتقرّر لدينا أنه أشعري المعتقد، ولهذا تشاورنا في الفصل أن نُنكرَ عليه، ونطلبُ إليه

الكفّ عن الشرح، والخروج من الفصل، وعندما صار حناه استنكر قولنا، واستخفّ بموقفنا؛ ولهذا عندما جاء إلينا في الحصة التالية أسرّنا وأغلقنا الفصل، وصار يطرقُ بابَ الفصل لنفتح له، ولكننا رفضنا دخوله، وعند ذلك عاد وتبعته أنا وزميلان آخران، ورأيناه قد ذهب إلى غرفة المدرسين وجلس، وأسّرنا لعميد الكلية معالي الدكتور عبدالله التركي، وتحدّثنا إليه أننا منَعنا الأستاذ من شرح مادة التوحيد، وأخبرناه بملاحظاتنا، وأوردنا له نماذج من آرائه، وأنه أشعري المعتقد، ولذا لا نقبل أن يشرح لنا مادة التوحيد، ووعدنا معاليه خيرًا، واختفى الرجل. وأحسبُ أنهم ألغوا عقده، وجاءنا بديل عنه هو الدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الربيعة رَحِمَهُ اللهُ الذي زاملته فيما بعد في مجلس الشورى، وكان نعم الأستاذ؛ استيعابًا، ووقارًا، واحترامًا للطلاب، فكُنّا نستحي منه، ونمنحُ مادته التركيز والاهتمام.

لقد ازدانت كلية اللغة العربية تلك المرحلة بقامات علمية رزينة، بدءًا بعميد الكلية معالي الدكتور التركي الذي كان له الفضل على دُفْعَتنا في تبنيه للبحوث العلمية التي يُشرف عليها الدكتور عبدالرحمن الباشا رَحِمَهُ اللهُ. لقد صنعت تلك البحوث فينا الجدّ، وفتحت عقولنا لآفاق المعرفة، وولجت بنا السياحة العقلية في عقول العلماء، وما نزال نقطفُ ثمار ذاك الغرس. أجزل الله له الأجر والثوبة.

وقد تدرج ذاك العميد المبارك في المسؤولية فيما بعد، وصار وزيراً من وزراء الدولة، وارتبط بكثير من طلابه، وصارت له معهم صلات عمل ومشورة واحترام وتقدير، لم أكن من ضمنهم، أخذتني الحياة العملية للتعليم العام بعيداً عنه، لكن بقيت علاقتي به علاقة طالب بأستاذه، وعلاقة مسؤول يرى في عبدالله التركي رجل الدولة المخلص، رجل الدولة الأملعي. زاده الله توفيقاً.

وابتلينا في الكلية بأستاذ في السنة الثانية أو هي الثالثة؛ إذ كَرَّهنا في مادة التاريخ التي يُدرّسها، اسمه زهير، ونسيت بقية اسمه؛ إذ كان ينظر إلينا بريبةٍ وشك، ويعتقد أننا ثوريون نؤيِّدُ دُعاة القومية العربية، وما زلتُ أذكر ما كتبه ذات يومٍ على السبورة، كتب بين قوسين جملة (الثورة، الثور)، ثم صار يشرح أن كلمة الثورة مشتقة من كلمة الثور، وأن الثور ينطح ولا عقل له، وأولئك دُعاة الثورة، وصار يُحذِّرنا ويُخَوِّفنا، وصبرنا عليه على مضض، وحينما جاءت الاختبارات خشيانه؛ ولهذا حفظنا مادته عن ظهر قلب، ولكنه جاء بأسئلةٍ إنشائيةٍ يستطيع من خلالها ترسيب الطلاب، أو تخفيض درجاتهم، وذلك ما كان؛ إذ ركّز على الطلاب الذين يناقشونه ويحاورونه، فرسَّب بعضهم، وبعضهم الآخر خَفَضَ درجته؛ لينخفض معدله، وكنت ممن خَفَضَتْ درجاتهم، وعندما تحدثتُ إليه قال: خيرٌ أنك لم ترسب.

نعم كان لذاك الأستاذ رأييه في الحذر من دعوة الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر، ففي تلك المرحلة كانت المنطقة العربية تعيش صراعاً بين دُعاة القومية العربية والوحدة العربية، يقودهم الرئيس المصري آنذاك، ويقابلها دعوة الملك فيصل رَحِمَهُ اللهُ للوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وكان كثير من الشباب مخدوعين بخطابات عبد الناصر وعنترياته؛ إذ كانوا في حيرة واضطراب تتجاوزهم الأطراف، وكان طلاب كلية اللغة العربية يُوسَمون بأنهم ثوريون، وطلاب كلية الشريعة محافظون، ولهذا كنا نسمعُ ونحن في المعهد العلمي تقييحاً لكلية اللغة العربية، بل وصل الأمر ببعض الأساتذة في معهد إمام الدعوة العلمي كما سمعنا، أن يكتب على السبورة اسمي كلية الشريعة واللغة العربية، ويضع تحت كلية الشريعة كلمات: عود، زعفران، ذهب، ألماس. في حين يضع أمام كلية اللغة العربية كلمات: ثوم، بصل، حجر، فخار، وهكذا. وجاءنا ذلك الأستاذ المُتعاقد بتلك الصورة القائمة، ولم نكن كما كان يتوقع.

لقد عاش جيلي مراحل من الصراع السياسي شهدتها المنطقة العربية، ونحمد الله أن كان المجتمع مع الدولة، فطالما سمعنا برامج إذاعة صوت العرب المصرية وهي تشتم المملكة، وتصفها بالرجعية والتخلف والتبعية لأمريكا، وكان المذيع المصري الشهير أحمد سعيد

عَبَّرَ برنامجه (أعداء الله) كل ليلة يتفنَّن في الشتم والسبِّ لقيادة المملكة السياسية؛ حيث كان الملك فيصل رَحْمَةُ اللَّهِ يتنقل في الدول الإسلامية، مُطلقاً دعوة التضامن الإسلامي، تلك الدعوة التي رَسَّخت في أذهاننا الهمَّ الإسلامي، ورسالة المملكة الحضارية للعالم الإسلامي، ومن ثمَّ كانت البحوث التي أقرَّتْها علينا الجامعة آنذاك.

هذا، ونحمد الله، فقد مضت الأيام، وأثبتت سلامة المنهج السعودي، ونجاح مسار المملكة السياسي، وفشلت تلك الدعوات الخادعة. فالرجعيون صارت بلادهم في مصافِّ الدول الحديثة، وباتت شعوبهم تتطلع للصدارة والريادة.

ومن أساتذتنا في كلية اللغة العربية الذين بقوا خالدين في الذاكرة الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي الذي درَّسنا مادة الأدب، وكان سمحاً قريباً من الطلاب. والأستاذ عمر عودة الخطيب الذي درَّسنا مادة الثقافة الإسلامية، والأستاذ محمد فوزي فيض الله الذي درَّسنا مادة الحديث. علماء أجلاء نشعر معهم بجلال العلم، وجدِّية التحصيل. رحم الله الميِّت منهم والحي.

أما سيِّد الأساتذة وشيخهم فيما أراه، والذي تعلَّمنا على يديه كثيراً، فهو شيخي وأستاذي الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا

رَحِمَهُ اللهُ ذلك الأستاذ الذي قلَّ أن يجود الزمان بمثله، ولنا معه حكاية طويلة في كلية اللغة العربية التي كانت سنواتها حافلة بالجدِّ والحزم والتطلع للتفوق والتميز.

لقد تعلَّمنا على يديه شيئاً كثيراً، وبهرنا بأسلوبه الأدبي، وجذبنا لمادته؛ بروعة إلقاءه، وسعة معارفه وجمال أسلوبه، حبِّينا للأدب والنقد الأدبي، ورعَّينا في القراءة، وأغرانا بالبحث والإبحار في كتب التراث، وكان هو المشرف على البحوث العلمية للطلاب التي أقرَّتها الكلية في تلك المرحلة، وقد كنا نتدافع للمكتبات العامة في مدينة الرياض، وكنا نقضي الساعات الطوال في تلك المكتبات؛ إذ وزَّع رَحِمَهُ اللهُ الطلاب إلى مجموعات، وجعل بين كل مجموعة تسابقاً وتنافساً في البحث، فكُنْتُ ضمن الفريق الذي يكتب عن شعر الدعوة الإسلامية في عهد الراشدين. وبلغ التدافع أن كنا نقضي طيلة العام الدراسي في تلك المكتبات، ووصل التنافس فيما بيننا نحن الطلاب، أن كان بعضنا إذا وجد كتاباً فيه مادة علمية تفيد بحثه حاول إخفائه عن زملائه الآخرين، وذلك بإيداعه بين كتبٍ مختلفة عن التخصص ذاته؛ فإذا كان في الأدب أودعه في كتب الفقه، وإذا كان في التاريخ أخفاه في أدراج كتب علم الاجتماع، أو علم النفس؛ تنافس بين الطلاب، وتسابق حول المزيد من القراءة.

لقد شجّعنا رَحْمَةُ اللَّهِ على المزيد من القراءة، والمزيد من التنقيب، وبلغ التعلّق به وبمادته أن كنا نخرج من المواد الدراسية السابقة لمادته لنجتمع في القاعة الكبرى للكلية؛ حيث هي المقر الذي يلتقي فيه بطلابه، وعددهم أكثر من مئة طالب. كنا نتسابق على الصفوف الأمامية في تلك القاعة؛ للقرب منه، والاستماع إليه، والكتابة عنه، وكنا نتمنى أن يواصل الشرح ولا يسكت، ونودّ أن الوقت المخصص لمادته لا ينتهي.

لقد رَبَطْنَا بالتراث الأدبي نصوصًا وقصصًا وأشعارًا ومآثر خالدة، لم يزل بعضها عالقًا في الذهن، وقادتني المطالعات إلى المزيد من الغوص في كتب الأدب والتاريخ والسّير، وما زالت بعض الصور التراثية التي كان يعرضها علينا منذ خمسين عامًا عالقة بالذاكرة. وكأني أكاد أسمعه وهو يحدثنا عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، ويستعرض فيه أقسام الشعر، وكأني أسمعه يقرأ قول المعلّوطة السعدي:

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبُلبك غَادَرُوا وشلاً بعينك ما يزال معينا

غِيضَنَ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقَلْنَ لِي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ألا ما أجمل إلقاءه! وأبهى فصاحته وبيانه! بل كأنّ صوته رَحْمَةُ اللَّهِ يرنُّ في أذني الآن وأنا أدوّن هذه الذكريات.

لقد وجدنا في أستاذنا الباشا المثالية والكفاءة، فهو يعطي العمل

كل وقته، حتى إن الطلاب يزورونه في منزله في وقت راحته ويوم الإجازة، ويعرضون عليه بحوثهم، وينشدون توجيئه، وصار يتحرّج من كثرة زائريه، ويخصّص أوقاتاً محدّدة في بيته لاستقبال الطلاب. وأذكر أننا في بعض المرات نلتقي في داره، وربما يصل عددنا إلى أكثر من عشرة طلاب، حتى كادت شقّته في عمارة العزيزية بطريق الملك فيصل، أن تكون فصلاً رديفاً للكلية.

هذا، ومن أراد معرفة ذلك الأستاذ فيني أنصح به بقراءة كتبه، لاسيما كتابيه (صور من حياة الصحابة)، و(صور من حياة التابعين). فمن يقرأ تلك السلاسل يعرف من هو الدكتور الباشا، ويعرف كيف يترحم عليه طلابه، ويعرف كيف أبقى رَحْمَةُ اللَّهِ أبناءً من غير صُلبه يدعون له بين الحين والآخر.

وبعد، فإن الفئة التي تتلمّذت على يد أساتذتنا، قادها ولعُها بالكلمة الرصينة إلى الركض خلف المنتج الثقافي المعاصر، فلا تقع أيدينا على كتاب للزيّات، أو محمود شاكر أو أحمد أمين إلا اشتريناه، وربما تبارينا في حفظ بعض النصوص ومحركاتها فيما نكتب. وبالجملّة، فإن أساتذتنا، وبالأخص الباشا رَحْمَةُ اللَّهِ كان المأذون الشرعي الذي عقد لنا مع التراث ميثاقاً لا ينفصم إلا بالموت إن شاء الله، وتعلّقنا بالكتب والقراءة، وتكونت لدينا المكتبات المنزلية، وصارت المكتبة في المنزل

روضةً غناءً نجدُ فيها السلوةَ، ونعيش فيها السباحة العقلية مع العلماء، وما احتوته كتبهم من كنوز خالدة، وجواهر مضيئة، وأحرفٍ ندية، فلا نشعر بفراغ، ولا حاجة لتزجية الوقت عند هذا أو ذاك. كانت سعادتي وبهجتي -وما أزال والله الحمد- حين أخلو مع كتب العلماء؛ أزيد معرفتي، وأتلذذ بالتنقل بين هذا الكتاب وذاك المؤلف، ولكني أتحمس وأتألم على أبنائي حين أرى صدودهم عن المكتبة وتذوق القراءة، ويزداد دعائي لأساتذتي الربانيين الذين دفعوا بي لهذا المنهج.

هذا، وقد كانت الكلية مجاورة للمعهد العلمي ولمقر الإدارة العليا للمعاهد والكليات في وسط مدينة الرياض بين طريقي البطحاء والملك فيصل قُرب (مسجد العيد الكبير) بمدينة الرياض.

وحين كتابة هذه الذكريات زرتُ تلك المربع، أستعيدُ الذكريات، فألفيتُ تلك المباني ما تزال قائمة، وما أن وقفت التقطُ صوراً لها حتى كادت تبثّ شكواها، بأن العلم والعلماء الذين أضاءت بهم فصول تلك المباني قد رحلوا، ورحلت معهم تلك الكتب، وحتى لغة العلم والتعليم تغيرت، وحلت اللغة الأردية والإنجليزية محلّ اللغة العربية في هذه الربوع، صارت تلك الصروح العلمية مدرسةً هندية. هذه الدنيا تتغير وتتبدل. سبحان الدائم.



هذه الفصول الدراسية لكلّيتيّ الشريعة واللغة العربية حين كنّا ندرس في رجايبها عام ١٣٨٨ هـ، ولمدة أربع سنوات.



وهذه الإدارات العليا للمعاهد والكليات.



صارت هاتيك المرباع مدرسة هندية كما تقول اللوحة المعلقة.

وحين وقفتُ أُصور تلك الصروح العلمية استعدت الماضي، واستذكرتُ يوم تخرجي من كلية اللغة العربية بهذه المباني التي رَحَلَتْ عنها كليتنا الحبيبة، لمباني أرقى وأحدث، واستغرقتُ متأملًا مُتفكرًا في حال الدنيا وتقلبها، فلئن تجددت مباني كليتنا وتغيرت وتطورت، فقد ضَعُفَتْ أجسامنا، فهذه صورتي تلك السنة التي تخرّجت فيها من الكلية ١٣٩١-١٣٩٢ هـ.



أين رحل شبابي وقوتي وجسدي ذاك اليوم؟ وأين هو الآن قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. لقد تناقص الجسمُ وضعف، في حين أن مباني الكلية الجهادية تجددت وتطورت، تلك سنة الله في بني آدم ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

أَوَّلُ إِطْلَالَةٍ لِعَقْلِي

يُروى لعبد الملك بن مروان قوله: «ما شَيْبَ ناصيتي إلَّا عَرُضُ عَقْلِي على الناس كُلِّ جُمُعة»؛ إذ كان هو الخطيب في الجامع الأموي بدمشق. وفي كلية اللغة العربية مصنع العقول، وبمرجعية ثقافية تَكُونَتْ لديَّ في مراحل الدراسة السابقة، ملكة الكتابة وبتشجيع من أستاذي الباشا رَحِمَهُ اللهُ الذي كان يدفعُ طلابه للكتابة والنشر، وله الفضل في انطلاق أقلامنا بالكتابة في الصحف والمجلات، ومن ثمَّ التدوين والتأليف، كتبتُ بتشجيع منه مقالاً نشرته مجلة كلية اللغة العربية وأنا في السنة الثالثة عام ١٣٩٠هـ؛ أي قبل أكثر من نصف قرن بعنوان: (الشعر في عهد النبوة والراشدين). ^(١) وتلك أول مرة أعرض فيها عقلي للقراء، والحمد لله أن كان فكري تلك المرحلة قد تدرج فوصل لهذا المستوى، فلو كتبت هذا المقال اليوم ما أظنني أزيد عليه، ثم لولا المجلة واحتفاظها به لما تذكَّرتُ، فقد رحل في عالم النسيان، لكن وأنا أدوّن هذه الذكريات وصلني المقال من بعض المحبين الذين

(١) مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع ١، (ص: ١٠٧-١١٢).

يُنْقَبُونَ فِي الْمَاضِي، وَيَعُودُونَ لِلزَّادِ الْفِكْرِيِّ الْقَدِيمِ، وَنَصُّ الْمَقَالِ هُوَ:

عن صخر بن عبدالله بن بريدة عن أبيه عن جدّه
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنْ مِنْ
 الْبَيَانِ سَحْرًا، وَإِنْ مِنْ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنْ مِنْ الشَّعْرِ حَكْمًا،
 وَإِنْ مِنْ الْقَوْلِ عِيَالًا»^(١).

كان للشعر في نفوس العرب منزلة عالية لا تساميتها
 منزلة، ومكانة رفيعة لا تدانيها مكانة، ولعظم شأنه؛
 كانت القبيلة في الجاهلية إذا نبغ فيها شاعرٌ أقامت
 الأفراح والولائم، وتَبَاشَرَ أفرادُها، وأتت القبائل
 تُهنئها، فالشاعر هو لسان القبيلة الناطق القائم بحماية
 الأعراس، وتخليد المآثر، ومدافعة الأعداء. ولفضل
 الشعر عند العرب وعلو منزلته؛ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 يستمع الشعر ويستحسنه متى كان حقًا بريئًا من العبث،
 بل كان يستنشده ويتمثل به ويُثيب عليه.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِي إِلَى النَّبِيِّ

(١) أخرجه أبو داود (٤/٣٠٣ رقم ٥٠١٢) بهذا اللفظ، بينما أوله عند البخاري، «إِنْ

مِنَ الْبَيَانِ لِسَحْرًا» (رقم ٥٧٦٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعل يتكلم بكلام فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ الْبَيَانِ سَحْرًا، وَإِنْ مِنْ الشَّعْرِ حَكْمًا»^(١).

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: اسْتَنْشَدَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِعْرَ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، وَأَنْشَدْتَهُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «هَيْه هَيْه» حَتَّى أَنْشَدْتَهُ مِئَةَ قَافِيَةٍ، فَقَالَ: «إِنْ كَادَ لَيْسَلَمُ»^(٢)، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحَرِّضُونَ شُعْرَاءَهُمْ عَلَى الرَّسُولِ لِيَنَالُوهُ بِالْهَجَاءِ، وَلِيَمَسُّوهُ بِالشَّتْمِ وَالسَّفَاهَةِ، وَمَنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا النَّبِيَّ بِالْهَجَاءِ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَضَرَّارُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَقَدْ عَزَّ ذَلِكَ عَلَى الرَّسُولِ فَقَالَ لِلْأَنْصَارِ: «مَا يَمْنَعُ الْقَوْمَ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ بِسِلَاحِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ»^(٣). فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: أَنَا لَهَا، وَأَخَذَ بِطَرْفِ لِسَانِهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا يَسِرُّنِي بِهِ مَقُولُ بَيْنِ بَصْرَى وَصَنْعَاءَ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعْتَهُ عَلَى صَخْرٍ

(١) صحيح أبي داود (٥٠١١).

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٧٦٧ رقم ٢٢٥٥).

(٣) الطبقات الكبرى (٤/٣٢٤)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/٣٤٢)، وأسد الغابة في معرفة الأصحاب (١/٤٨٢).

لفلقه، أو على شَعْرٍ لحلقه، وقد شاركه في هجاء المشركين كعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وكان حسان أشعر الثلاثة، ولعظم شأنه عند النبي؛ بنى له منبرًا في المسجد لينشد عليه الشعر^(١). فهذه الصور دلّت بوضوح على عناية النبي بالشعر وتقديره له.

وفي رحاب الخلفاء الراشدين لم تذو أزهار الشعر، ولم يجفّ عوده. فكان لأبي بكر بَصْرٌ بالشعر وإدراك له، فهو يقدّم النابغة على غيره من الشعراء، ويقول: «هو أحسنهم شعرًا، وأعذبهم بحرًا، وأبعدهم غورًا»^(٢). ولقد خلّفت حروب الردّة في عهده أشعارًا كثيرة تراشق بها الفريقان، فبعضها كان إنذارًا وتخويفًا ووعظًا كقول الحارث بن قرة في وعظه لبني عامر:

بَنِي عَامِرٍ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ تَنْصُرُوا

وَإِنْ تَنْصِبُوا اللَّهَ وَالَّذِينَ تَحْذُلُوا

(١) رواه أبو داود (رقم ٥٠١٥) وحسنه الألباني.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ١٠٩)، العمدة في محاسن الشعر (٩٥/١).

وَأِنْ تُهْزِمُوا لَا يُنْجِيكُمْ عَنْهُ مَهْرَبٌ
وَأِنْ تَثْبُتُوا لِلْقَوْمِ وَاللَّهُ تَقْتُلُوا

وبعضها كان حماسة دينية يهتف بها المحاربون من
المسلمين، كقول أوس بن بجير الطائي في موقعة بزاخة:

فَلَيْتَ أَبَا بَكْرٍ يَرَى مِنْ سُيُوفِنَا وَمَا تَحْتَلِي مِنْ أَدْرُعٍ وَرِقَابِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ يَصُبُّ عَلَى الْكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابِ

كما وُجد بجانب هذا الشعر الذي يمثل الأفكار الدينية
والسياسية شعرٌ يعبر فيه أصحابه عن عواطفهم وخلجات
نفوسهم. يقول عبدالله بن أبي بكر متغنياً بحنينه إلى زوجته:

يَقُولُونَ طَلَّقَهَا وَخَيْمَ مَكَانَهَا
مُقِيًّا تُمْنِي النَّفْسَ أَحْلَامَ نَائِمِ
وَأِنْ فِرَاقِي أَهْلَ بَيْتِ جَمِيعِهِمْ

عَلَى كَثْرَةِ مَنِّي لِإِحْدَى الْعِظَائِمِ

وكان عمر بن الخطاب عالماً بالشعر، ذا بصر فيه،
فكانت له مواقف كثيرة ومتعددة إزاء الشعر والشعراء،

وكان أشهر الصحابة ميلاً للشعر ونقداً له وحكماً عليه وتمثلاً به، حتى قيل: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يكاد يُعرَض له أمرٌ إلا أنشد فيه بيت شعر، ولحرص عمر على الشعر الجيّد الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق والمحامد والفضائل؛ كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول: «مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلّم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب»^(١). كما أن المعنى الجيّد يُعجبُه حتى ولو كان قائله نصرانياً جاهليّاً، رُوي أنه قيل له: قيل للأوسية: أي منظرٍ أحسن؟ فقالت قصورٌ بيض في حدائق خُضر، فأنشد عند ذلك عُمر بيت عدي بن زيد العبادي:

كُدْمَى العَاجِ فِي المَحَارِيبِ أَوْ كَال

بِيضٍ فِي الرُّوضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرٌ^(٢)

وكان أحب الشعر إلى نفس عمر شعر زهير بن أبي سلمى؛ وذلك لما فيه من حِكمٍ ومواعظ قيمة، ومجانبة للغلو والإسراف في المديح والهجاء.

رُوي أن عمر سأل ابن عباس فقال: «هل تروي

(١) العمدة (٢٨/١).

(٢) البيان والتبيين (٦٠/١).

لشاعر الشعراء؟ قال ابن عباس: فقلتُ ومن هو؟ قال
الذي يقول:

ولو أَنَّ حَمْدًا يُخْلِدُ النَّاسَ أُخْلِدُوا
ولكن حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدٍ

قلتُ: فذاك زُهير. قال: فذاك شاعر الشعراء. قلتُ:
وبِمَ كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه كان لا يعاظم في
الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحداً إلا
بما فيه»^(١).

وكان لشخصية عمر وملاحظاته أثرٌ بالغٌ في توجيه
الشعر في أيامه والسير به على جادة الحق والطريق السوي،
فقد منع الشعراء من التشبيب بالنساء، وتوعدهم بالجلد،
كما حرّم الهجاء ومنعه؛ لأن فيه إثارة للأحقاد والضغائن.
وموقفه مع الخطيئة مشهور، فقد هجا الخطيئة
الزبرقان ابن بدر، فقال:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا
وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

ورفع الزبرقان إلى عمر، فحكم حسان بن ثابت فيه
بأنه هجاء، فحبسه وبقي في السجن إلى أن استعطفه بأبيات
مؤثرة يقول فيها:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرخٍ
زُغِبَ الحَواصِلُ لا ماءً ولا شَجَرُ

أَلَقَيْتَ كاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ

فلان له قلب عُمر، وأطلق سراحه بعد أن أخذ عليه
العهود ألا يهجو أحداً.

وهكذا، فكل ما تقدّم يدلُّ بجلاءٍ ووضوحٍ على
احتفال عمر بالشعر، وذلك في حدود المثلث الإسلامية
الشريفة.

حتى إذا كان عهد عثمان بن عفان، وجدنا له مواقف
مع الشعراء تشبه مواقف عمر مع الخطيئة وغيره، فقد
منع الهجاء وأباه وعاقب عليه، وعمل على توجيه الشعر
إلى أسمى الغايات وأنبّل الصفات، وقصته مع ضابئ بن
الحارث البرجمي مشهورة، فقد كان شاعراً هجّاءً خبيثاً،

استعار كلبًا من بعض بني جرويل بن نهشل فطال مُكثه
عنده فطلبوه فامتنع عليهم، فعرضوا له فأخذه فغضب
ورمى أمهم بالكلب واسمه قرحان، فاستعدوا عليه عثمان
بن عفان، فحبسه، وقال: «والله لو أن رسول الله ﷺ
حيٌّ لأحسبته نزل فيك قرآن، وما رأيت أحدًا رمى قومًا
بكلبٍ قبلك»، ولم يزل في حبس عثمان حتى مات^(١).

وقد نُسب إلى عثمان شعر، فقد رُوي له قصيدة في
رثاء الرسول، كما رُوي عنه قوله^(٢):

غِنَى النَّفْسِ يَكْفِي النَّفْسَ حَتَّى يَكُفَّهَا وَإِنْ عَضَّهَا حَتَّى يَضُرَّ بِهَا الْفُقْرُ
وَمَا عُسْرُهُ فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ لَقِيَتْهَا لَكَائِنَةٌ إِلَّا سَيَتْبَعُهَا يُسْرُ

ونقف عند علي بن أبي طالب، فنجدته في الذروة من
البلاغة والفصاحة والبيان، بارعًا في خطبه وأقواله لا يُشَقُّ
له غبار، يُقدِّم امرئ القيس على غيره من الشعراء، ويقول:
«هو أحسنهم نادرةً، وأسبقهم بادرةً»^(٣). وقد نُسبت له

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٢٦٨).

(٢) العمدة (١/ ٣٤).

(٣) العمدة (١/ ٤٢).

أشعارٌ كثيرة، فمن ذلك قصيدته التي مطلعها:

أَلَا طَرَقَ النَّاعِي بَلِيلَ فَرَاغِنِي وَأَرَقَّنِي لَمَّا اسْتَقَرَّ مُنَادِي

وروي له قصيدة في رثاء الرسول منها:

أَمِنْ بَعْدَ تَكْفِينِي النَّبِيَّ وَدَفْنِهِ بِأَثْوَابِهِ آسَى عَلَى هَالِكِ ثَوَى؟
رُزْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِينَا فَلَنْ نَرَى بِذَاكَ بَلَاءٌ مَا حَيِّنَا مِنَ الْوَرَى
لَقَدْ غَشِيْنَا ظُلْمَةً بَعْدَ مَوْتِهِ نَهَارًا، فَقَدْ زَادَتْ عَلَى ظُلْمَةِ الدُّجَى
وَكُنَّا بِرُؤْيَاهُ نَرَى النُّورَ وَالْهُدَى صَبَاحَ مَسَاءٍ، رَاحَ فِينَا أَوْ اغْتَدَى

انتهى

لقد عُدْتُ لهذا المقال الذي اختفى ونسيته، ورأيت أن أعرضه لأحفادي وغيرهم؛ لكي يتشجعوا ويروا تجارب السابقين، فهي مرآة للمتأخرين يهتدون بضوئها، ويتشجعون ولا يتهيبون.

هذا، وقد شاركت بعدُ تخرجي من الجامعة بالرأي والمشورة الكتابية، فكان لي زاوية أسبوعية في جريدة الجزيرة بعنوان (مساحة للتفكير)، وفي مجلة المعرفة كتبت فيها بعنوان (مجالس المربين)، وفي جريدة الرياض نشرت عددًا من المقالات، ثم في قنوات التواصل الجديدة (سبق) وأخواتها. وأخيرًا آثرتُ التأليف، فهو الأبقى والأخلد.

زواجي

تزوجت مبكراً عام ١٣٨٩هـ، وكنت قد اجتزْتُ المستوى الثاني بكلية اللغة العربية، وفي الإجازة الصيفية لعام ١٣٨٩هـ كان الزواج، تزوجتُ وفق عادات الأهل والأجداد، يُقرَّر الأبُّ زواج ابنه أو ابنته، ولا خيار للزوجين في اختيار الشريك ولا في وقت الزواج!

أتذكر ذات يوم.

قال أبي: عبدالعزيز.

قلت: لبيك أبتاه!

قال: الآن يجب أن تتزوج.

قلت: كما ترى.

قال: تلك ابنة عمّتك الجوهرة تُناسبك.

وبتُ تلك الليلة أفكّرُ في توجيه والدي!

وكانت ابنة عمّتي قد زارت بيت والدي رفقة والدتها عمّتي

الجوهرة منذ أسبوعين، فتذكرتها وشكلها الخارجي.

وفي اليوم الثاني بلغت الوالد بالموافقة.

وفي متجر الوالد كَتَبَ الوالدُ رسالةً مختصرة لوالدها يخطب فيها ابنته لابنه عبدالعزيز!

وبعد أسبوعٍ بَلَّغَنِي الوالدُ استجابة والد العروس، وأن الزواج سيكون خلال شهر! وجرى الزواج، والتقى الزوجان دون رؤية شرعية ولا مغازلة ولا مهاتفة سابقة!

وقد وجدتُ الزوجة في الليلة الأولى وقد غلبها الحياءُ، لا تنظر إليَّ، سارحةً في هواجسها مع هذا الشاب الجديد!

ومضتِ الأيام ونحن كالنهرين التقيا، وتأخر اندماجهما بُرهةً!

كانت عاداتٌ قاسية، لكن نهايتها محمودة! عاداتٌ وإن بدت اليوم صعبة، لكنها - فيما أرى - أفضل من واقع اليوم؛ إذ قلَّ أن نجد عنوسة، فما يَحْنُ مَوْعِدُ زواج الشاب والشابة إلا ويسارع الأبوان بتزويجهما، وأحسبهما يمثلان لقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

وبعد أن امتزج الزوجان عبدالعزيز ونورة، وصارا جسداً واحداً، مضت حياتهما في حبٍّ وسعادة!

سألتُ رفيقةَ الدرب وبهجةَ الحياة ذات يوم: كيف تلقَّيتِ خبر

الزواج؟ قالت: أنا أصغر منك بثلاث أو أربع سنوات، كنت فتاة لا أملك من أمري شيئاً، لم أفكر في الزواج، ولكن ذات عصرية قالت أُمِّي: لقد قرر والدك أن تتزوجي بولد خالك عبدالعزيز بن عبدالرحمن، ومضت أُمِّي رَحِمَهَا اللَّهُ تقول: الحمد لله أنه شاب، لقد كنت أخشى أن يزوجك أبوك وأنت وحيدتي زوجة ثانية لأحد رفاقه، ممن يرضى دينهم وأخلاقهم!

يا بنتي، الحمد لله نجوت من كبير في السن تشقن برعايته!
يا بنتي، الحمد لله ابن خالك شاب، وهو في بيت والده بيت أخي، بيت يماثل بيت والدك رزانة ووجاهة وثراء!

وداع الصغيرة

بعد سنة ونيف من زواجنا، رزقنا الله طفلةً أسميناها (عُهود)، ودرجت الصغيرة ونطقت بعدوبة القول وطراوته، وكل شهر تزداد حلاوتها، وتحلو مناغاتها! وتخرجت في الجامعة، وبعدها جاءت أختها عادة، ولكنها توفيت في شهرها الأول، ثم جاء الابن تركي!
وحقاً كان الصغيران عهداً وتركياً سلوةً ومسرةً وبهجةً وحلاوة!
حين أطرق الباب تُسرّع عهد عهد لفتح الباب، ولكنها لا تستطيع

سحبَ مزلاجَهُ، فتنادي بلثغتها (دُرّ الباب، دُرّ الباب) أي اسحبهُ
إليك ليخف الضغط وتفتح الباب!

ومضت الأيامُ ولا نعلم ما تُخبئه الأقدار، لكن صارت طفلي
عهود قلبي الآخر، عند النوم تترك أمها وتقفز نحوي، وتسحب يدي
لتجعلها مخدّةً لنومها! وأطرب لأنفاسها الرقيقة وحركتها اليسيرة.
لبدوي الجبل:

وسيمًا من الأطفالِ لولاهُ لم أخفُ	على الشيبِ أن أنأى وأن أتغربا
يجورُ وبعضُ الجورِ حلُّو مُحَبَّبٌ	ولم أرَ قَبْلَ الطِّفْلِ ظُلْمًا مُحِبًّا
وإن ناله سُقْمٌ تَمَيَّتُ أَنِّي	فِدَاءً لَهُ كُنْتُ السَّقِيمَ الْمُعَذِّبَا
يزفُّ لنا الأعيادَ عيدًا إذا خطا	وعيدًا إذا ناغى وعيدًا إذا حبا
وأُسْدِلُ أَجْفَانِي غِطَاءً يُظْلُهُ	ويا ليتها كانتَ أَحَنَّ وَأَحَدَا
وحَمَلَنِي أَنْ أَقْبَلَ الضَّيْمَ صَابِرًا	وأرغبُ مُحَنًّا عَلَيْهِ وَأَرْهَبَا
ويا رَبِّ مِنْ أَجْلِ الطُّفُولَةِ وَحَدَا	أَفِضْ بَرَكَاتِ السَّلَامِ شَرْقًا وَمَغْرِبَا
وَصُنْ ضِحْكَةَ الْأَطْفَالِ يَا رَبِّ إِنَّهَا	إِذَا غَرَّدَتْ فِي مُوَحِّشِ الرَّمْلِ أَعْشَبَا

ويا ربَّ حَبِّ كُلِّ طِفْلٍ فَلَا يَرَى وَإِنْ لَجَّ فِي الْإِعْنَاتِ وَجْهًا مُقْطَبًا

وَهَيَّيْ لَهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ صَبَابَةٌ وَفِي كُلِّ لُقْيَا مَرْحَبًا ثُمَّ مَرْحَبًا

أي والله مرحبًا ومرحبًا.

وفي الصباح تستيقظ الصغيرة وتهمُّ بصُحْبتي للعمل، فأتوسل
إليها أن تتركني، وتأذن بشرط إحضار هدية، ويا ويلى إذا نسيت!
وبعد أن قاربتِ الصغيرةُ خمسَ سنوات، وأوشكت على الالتحاق
بالروضة، صرْتُ أنا وأُمها نفكر أين سَنَدْرُسُها؟ وهل نستطيع تركها
في المدرسة؟! عاطفةٌ جياشة، وتفكيرٌ عاطفي غالب!

هي الطفولة نُعومة وعُدوبة، وحلاوة وزينة، يقول شوقي:

أَحْبَبَ الطِّفْلَ وَإِنْ لَمْ يَكُ لَكَ إِنَّمَا الطِّفْلُ عَلَى الْأَرْضِ مَلَكٌ

هُوَ لُطْفُ اللَّهِ لَوْ تَعَلَّمَهُ رَحِمَ اللَّهُ امْرَأًا يَرْحُمُهُ

عُطْفَةٌ مِنْهُ عَلَى لُعْبَتِهِ تُخْرِجُ الْحَزُونََ مِنْ كَرْبَتِهِ

وَحَدِيثُ سَاعَةِ الضِّيقِ مَعَهُ يَمْلَأُ الْعَيْشَ نَعِيمًا وَسَعَةً

وذاث صباح تأخر استيقاظ الصغيرة، وحين أَسْرَعْنَا إليها شعرنا

بارتفاع حرارتها، وذهبت للعمل والقلق ينتابني، وبقيت أمها تطببها
وتترفق بها، وما إن رجعت من الدوام، إلا وأسرعت نحوها فضممتها
وقبلتها، وبسملت وحوقلت وقرأت ورقيت!

وفي اليوم الثاني تناقصت حالتها الصحية، فخشينا وخفنا وفكرنا؛
أين طبيب الثقة؟ وأين حكيم الخبرة؟!

وسألت وتحريت، وكان من الأطباء المشهورين بالرياض في ذلك
الوقت؛ الدكتور عبدالسلام وهيبة، والدكتور عبدالحميد الرخاوي!
فأخذنا الصغيرة لأحدهما، وفحص وشخص وقرّر ضربها بإبرة دواء!
واستجبنا للطبيب، ويا ليتنا لم نستجب، تعلقت بي الصغيرة،
وصارت تقبلني وتردد: بابا لا، بابا لا، بابا لا!

وكان الطبيب يضحك ويتبعني، والصغيرة متعلقة برقبتي، وأخيراً
خدع الصغيرة وغرز إبرة الموت في جسدها الطاهر!
وعلا صراخ الصغيرة، تعاتبني وتزجرني: بابا لن أنام في حضنك،
بابا لن أقبل هديتك، بابا بابا!

وعدنا للبيت ولكن في صباح اليوم الثاني، لم تستطع الصغيرة
تحريك رجلها اليمنى، موضع ضرب الإبرة، وفي المساء لحقتها رجلها
الأخرى! وحملنا الصغيرة وأسرعنا بها لذاك الطبيب، وحين رآها

تغير وجهه وقال: لقد انشلت قدما ابتك، وعليك أن تراجع بها
المستشفى المركزي!

وصغرت الدنيا في عيني، وبثُ أتساءل: أو انشلت سلوتي
وبهجتني؟! أو انعقت طربي ومسرتي؟!
ربّاه، ما العمل؟

ربّاه، إليك ملجئي وملاذي!

ويممتُ نحو المستشفى المركزي، وقرروا تنويمها، وبقيت أتناوب
وأما سبعة عشر يوماً ظلت محفورة بالذاكرة لا أستطيع أن أنساها!
سبعة عشر يوماً يسري الموتُ في جسدها الطاهر، ويأكل الشللُ جسمها
الصغير، حتى صارت جثةً لا يتحرك منها سوى لسانها العذب!
وفي اليوم الخامس عشر فتحوا لها فتحة في رقبتها للتنفس! وبعد
يومين أبلغوني بموتها.

ربّاه أسألك أن تقبلها!

سبعة عشر يوماً حزينة انطوت في سجل حياتي وماضي ذكرياتي!
سبعة عشر يوماً أستعيدُ آلامها، وكيف كانت الصغيرة متعلقة
بي وهي في لحظات الموت! تنادي اقترُبْ أبي لأقبلُك، طأطئ بابا
لأضمك! هذه الدنيا، البقاء لله، (إنا لله وإنا إليه راجعون).

قصة من التراث

لقد ذكّرني فقد ابنتي ألوان الشّجا، وقصص الأمل، فمالك بن دينار من كرام التابعين بكى صغيرته أيما بكاء، وقد رآها في المنام فكانت سبب توبته، تقول الرواية^(١): سئل مالك بن دينار عن سبب توبته، فقال: كنتُ شرطياً منهمكاً على شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة، ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتاً فشغفتُ بها، فلما دبّت على الأرض ازدادت في قلبي حباً، وألفتني وألفتها، فكنت إذا وضعت المُسكر بين يدي جاءت إليّ وجاذبتني عليه وهرقته من ثوبي، فلما تم لها ستتان ماتت، فأكمدني حزنها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان وكانت ليلة الجمعة بتُّ ثملاً من الخمر، ولم أصل فيها عشاء الآخرة، فرأيتُ فيما يرى النائم، كأن القيامة قد قامت، ونُفخَ في الصور وبُعِثَت القبور، وحُشِرَ الخلائق وأنا معهم، فسمعت حسّاً من ورائي، فالتفت فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق، قد فتح فاه مسرعاً نحوي، فمررتُ بين يديه هارباً فزعاً مرعوباً، فمررتُ في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة فسلمت عليه، فرد السلام، فقلت: أيها الشيخ، أجرني من هذا التنين أجاارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف، وهذا أقوى مني وما أقدر عليه، ولكن مر وأسرع فلعل

(١) أورد القصة الرافعي في كتابه وحي القلم (١/ ٢٦٠).

الله أن يتيح لك ما ينجيك منه، فوليت هارباً على وجهي، فصعدت على شرف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها، وكدت أهوي فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها فاطمأنت إلى قوله، ورجعت ورجع التنين في طلبي، فأتيت الشيخ، فقلت: يا شيخ، سألتك أن تجبرني من هذا التنين فلم تفعل فبكى الشيخ، وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك، قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كُوى مُحَرَّمَةٌ وستورٌ معلقةٌ، على كل خوخةٍ وكوةٍ مصرعان من الذهب الأحمر مفصلةٌ باليواقيت مُكَوِّبةٌ بالدر، على كل مصراع ستر من الحرير، فلما نظرتُ إلى الجبل ولّيت إليه هارباً والتنين من ورائي، حتى إذا قربتُ منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع، وأشرفوا فلعل لهذا البائس فيكم وديعةٌ تُجِيرُهُ من عدوه، فإذا الستور قد رُفِعَتْ، والمصاريع قد فُتِحَتْ، فأشرف عليّ من تلك المخرمات أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التنين مني فتحيرت في أمري، فصاح بعض الأطفال وَيُحْكُمُ أَشْرَفُوا كُلُّكُمْ فقد قرب منه عدوه، فأشرفوا فوجاً بعد فوج، وإذا أنا بابتني التي ماتت قد أشرفت عليّ معهم، فلما رأتنني بكت، وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة من نورِ كرمية السهم حتى مثّلت بين يدي، فمدّت يدها الشمال إلى يدي اليمنى، فتعلقت بها ومدت يدها اليمنى إلى

التنين فولى هاربًا، ثم أجلسني وقعدت في حجرِي وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فبكيت وقلت: يا بنية، وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت نحن أعرف به منكم، قلت: فأخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني؟ قالت: ذلك عملك السيئ قَوَّيْتَهُ فأراد أن يغرقكَ في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي؟ قالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السيئ، قلت: يا بُنَيَّة وما تصنعون في هذا الجبل، قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة، نتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم. قال مالك: فانتبهت فرعًا، وأصبحت فأرقتُ المسكر، وكسرتُ الآنية، وتبتُّ إلى الله، وهذا كان سبب توبتي.

هذا، وأحمدُ الله فقد عوّضني الله عن عهود وأخييتها عادة، بإخوانها تركي وإخوانه، ثم بالأحفاد والحفيدات، وأسأل الله أن يجعل ابنتي عهود وغادة حجابين لي ولأُمهم من النار. عن أبي سعيد الخدري: قال النساءُ: غلبنا عليك الرجالُ يا رسولَ الله فاجعلْ لنا يومًا، فوعدهنَّ يومًا فجيئنَ فوعظهنَّ، فقال لهنَّ فيما قال: «ما منكنَّ امرأةٌ تُقدِّمُ ثلاثةَ من ولدها إلا كانوا لها حجابًا من النارِ». قالتِ امرأةٌ: يا رسولَ الله، واثنين؟ وقد مات لها اثنان، فقال لها النبي ﷺ: «واثنين»^(١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠١)، ومسلم (رقم ٢٦٣٣).

ما اسم أمك؟

والدي رَحِمَهُمُ اللَّهُ ملهمني ومربيّتي، حتى اسمها صار له موقفٌ تربوي، فمن ذكريات العمل التعليمي، وهي كثيرة، أروي موقفًا أستحضره كلّ حين، وهو أنه بعد تخرجي من الجامعة، تعيّنتُ مُعلِّمًا في متوسطة الإمام أبي حنيفة بالرياض، فعرفت معاناة المعلم وأمانيه، فليس من رأى كمن سمع، ولا من تعامل مع الطلاب كمن قرأ عنهم! إن الطلاب تختلف قدراتهم، ويتنوع سلوكهم؛ فهم من أسر متباينة الطباع، متنوعة التربية، وقد دُقتُ المعاناة منهم من اليوم الأول في حياتي العملية! ولقد بقي ذاك اليوم خالداً بذاكرتي لم أنسه؛ فقد جئت فرحًا بالوظيفة، وخاليًا من التجارب، جئتُ من مقاعد الدراسة، وأنا الطالبُ المستمع، مدة ستة عشر عامًا، متنقلًا من مرحلة لأخرى حتى تخرجت في الجامعة، وها أنا أقفُ في مدرسة أبي حنيفة المتوسطة متحدّثًا وموجهًا لمجموعة من الطلاب يجلسون أمامي، يسبرون غورَ معلمهم الجديد!

أهو ضعيفٌ أم قوي؟

أُحِبُّونه أم يكرهونه؟

وكنْتُ قبل الدخول عندهم أفكّر فيهم؛ كيف أجذبهم؟ وكيف
أزرعُ فيهم المحبةَ والمهابة؟ وكيف أعرّضُ لهم المادة العلمية؟ وكيف
أجعلُ طبقَ غذائي العقلي شهياً؟

وكيف أكسبُ عقولهم، والعقلُ عصيّ مع طلاب الفتوة والمراهقة؟
وفجأةً وجدّني بينهم في متوسطة الإمام أبي حنيفة بالرياض في
حيٍّ أغلب سكانه من متوسطي الدخل!

وما أن دخلتُ فصل الصف الثاني متوسط وسلّمت عليهم،
إلا وقاموا تحيةً لأستاذهم الجديد، ثم جلسوا جميعاً إلا طالباً في آخر
الفصل ظلّ واقفاً في مكانه، فتغافلتُ عنه وما كأني رأيته! فرفع صوته
وقال: أستاذ، أستاذ، لديّ سؤال!

قلت له: تفضّل بسؤالك.

قال: ما اسمُك، وما اسمُ أبيك، وما اسمُ أمّك؟ وتلفّت الطالبُ
يميناً ويسرةً، وكأنه يقول: لزملائه: ها أنا أستاذُكم وأسخّرُ منه!

وتبسّم الطلاب وصاروا يرقبون ردّ فعل أستاذهم الجديد!

وأحمدُ الله، فقد ملكْتُ مشاعري، وكبَحْتُ غضبي، ورجَبْتُ
بسؤال الطالب!

وقلتُ له: تَعَجَّلْتَ يا بُني، لا بد وأنا المُعلم الجديد أن أخبركم باسمي!
أنا اسمي عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان، لكن مَنْ تعرف من
الشخصيات المشهورة التي اسمها عبدالعزيز؟ فتلعثم الطالب ولم
يستطع الإجابة، ورفع بعض الطلاب أيديهم، وقال أحدهم: الملك
عبدالعزیز آل سعود رَحِمَهُ اللهُ. وقال الآخر: الأمير الأموي عبدالعزيز
بن مروان، فشكرت الطالبين!

ثم قلت للطالب السائل: واسم أبي عبدالرحمن. هيا اذكر
شخصيات مشهورة تحمل اسم عبدالرحمن. فأنجذته ذاكرته وقال:
الصحابي عبدالرحمن بن عوف. فأشدتُ بإجابته، وصدقْتُ له، ثم
قلتُ له: وغيره؟ فسكت. فرفع طالبٌ آخر أصبعه وقال: عبدالرحمن
الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس.

وقلتُ لهم: وهناك علمٌ من أعلام الصحابة سمّاه رسول الله
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعبدالرحمن، لكنه مشهور بكنيته إنه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
كان اسمه في الجاهلية عبد شمس، وبعد أن أكرمه الله بالإسلام،
وقابل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال له: ما اسمك؟

قال: عبد شمس. فقال عليه الصلاة والسلام: بل عبد الرحمن، ومضيتُ أحدثُهم وأعرَّفُهم بهذا الصحابي الجليل، وكيف صارت كنيته أبا هريرة، وذلك أنه كانت له في طفولته هِرَّةٌ صغيرةٌ يلعب معها، فصار أقرانه ينادونه: أبا هريرة، وكبر وكبرت معه هذه الكنية، وأخذ رسول الله ﷺ يناديه كثيراً (أبا هرٍ)؛ إيناساً وتحبيباً له. وقد ذكر المؤرخون: أن أبا هريرة حفظ لأمة الإسلام ما يزيد على ألفٍ وست مئة حديث، وأمضيتُ خمس دقائق تقريباً مع الطلاب في التعريف بهذا الصحابي الجليل.

ثم رجعت للطالب السائل وقلتُ له: واسم أمي سارة بنت إبراهيم السيف. ثم سألتُه: مَنْ تعرف من السيدات المشهورات التي اسمها سارة؟ فأطرق ولم يجب، وطلبت من الطلاب الإجابة، فقال أحدهم: سارة زوجة رسول الله إبراهيم عليه السلام.

وعُدت للطالب السائل فقلتُ له: وأنت ما اسمك؟ فقال: اسمي أحمد. قلت له: ممتاز، وهل تتذكر شاعراً أو عالماً اسمه أحمد، فأطرق خجلاً، فوجهت السؤال لزملائه، فتسابقوا يرفعون أيديهم، قال الأول: أحمد شوقي، وقال الثاني: أحمد المتنبى، وقال الثالث: شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية!

وأنهيتُ الدرس بحوار وأسئلة شَدَّتِ الطلاب، وأدَّبت الطالب المُشاكس.

وبعد انتهاء الحصة الدراسية استدعيتُ الطالب، وهمستُ له أن يحترم أساتذته، وقُلْتُ له: لن أسألك عن اسم أمك كما سألتني، لكن إذا وصلت البيت، فقبِّل رأسها ويديها، وقُلْ لها: هذه وصية أستاذ اللغة العربية الجديد عبدالعزيز الشَّيْان اليوم.

هذا، وقد أصبح الطالب بعد ذاك المشهد من أكثر الطلاب هدوءًا وأدبًا!

إن التعليم ميدانٌ رحبٌ لصناعة العقول وبناء النفوس، وأحمدُ الله أن كانت حياتي الوظيفية كُلُّها في خدمة العلم وصناعة العقول. هذا موقف من المواقف التي مررت بها في حياتي التعليمية بالمدارس، وفي كتبي (بوح الذاكرة)، و(الكرسي)، وغيرهما مواقف أخرى مُتنوعة.



الماجستير والدكتوراه

بعد أن تخرجتُ من الجامعة، تعيَّنتُ معلمًا للغة العربية بمدينة الرياض في متوسطة الإمام أبي حنيفة، براتبٍ قدره ألف ومئتي ريال، ثم انتقلتُ إلى متوسطة ابن خلدون في طريق الأعشى قرب ميدان دخنة وسط المدينة، وكان همِّي الأول إكمال دراستي العليا، ولم يكن في المملكة برامج للتعليم العالي ذلك الوقت، وسألتُ كيف الطريق؟ فعلمتُ أن الدراسة تتم عبر الابتعاث الخارجي والبعثات للمعידين فقط، ولم أحظَ بترشيح الإعادة مع أن تقديري كان جيد جدًا مرتفع؛ إذ أخذ اثنان فقط من دفعتنا كان تقديرهما امتياز، وهما الزميل عبدالعزيز ابن محمد الزير رَحِمَهُ اللهُ الذي تعيَّن معيدًا، ثم أبتعث إلى القاهرة، والزميل عبدالعزيز بن عبدالله العجلان الذي انقطعت علاقتي به - وفقه الله - ولا أعلم ماذا صار له.

وبعد البحث والتقصي، علمتُ بإمكانية دراسة الماجستير في مصر، وتواصلت مع كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر، وتم قبولي بعد سنةٍ من تخرجي في قسم الأدب بتلك الكلية، وكانت

مدة الدراسة سنتين بتفرغ جزئي للسنة الأولى؛ مما حتم عليّ أن أترك مهنة التدريس وانتقل إلى العمل الإداري في جهاز وزارة المعارف؛ لكي يتيسر لي الحصول على الإجازة الرسمية متى شئت، وكذلك الحصول على إجازة استثنائية دون راتب؛ لأجل السفر إلى القاهرة والحضور الجزئي وأداء الاختبارات.

وهناك في القاهرة ترافقت أنا والأخوان إبراهيم الشائع أبو رياض، والأخ محمد الحميضي أبو عثمان رَحْمَةُ اللَّهِ، وسكنّا معاً في شقة واحدة، وكانت أيامنا في القاهرة حزماً وجداً، وأغلب الوقت مذاكرة، نزل من الشقة الساعة الواحدة ليلاً لتناول [كشري] بعشرة قروش.

وكانت رسالتي التي تقدمت بها للماجستير عن عمرو بن معدي يكرب الزبيدي حياته وشعره، هذا ومن ذكريات تلك السنوات أنه ذات ليلة ونحن الثلاثة نصلي العشاء كنّا الإمام بهم، تفاجأنا بطرق الباب بشدة وتأخرنا في فتح الباب، فنحن نصلي والطرق يزداد وقعه، وما أن سلّمْتُ إلّا وأسرع الزميل إبراهيم الشائع ليفتح الباب؛ وإذ بمجموعة من رجال الأمن يدخلون بسرعة وعنف، وحين رأونا مفترشين السجاجيد توقفوا وتأسفوا واعتذروا؛ لأنهم كانوا يبحثون عن مكان مشبوه.

والحمد لله كلما كنت نظيفاً مستقيماً تعش سعيداً ومحترماً للجميع.
 وكنا نذهب لسور الأزبكية في وسط المدينة ونجد فيه الكتب
 القديمة بأرخص الأسعار، واستهوتني المكتبات التجارية القديمة؛
 إذ وجدتُ فيها بعض الكتب والمجلات الثمينة، فمنها اشتريتُ
 مجلة الرسالة بمجلداتها الشاملة لجميع أعدادها، وكان يكتب فيها
 كبار الأدباء كالعقاد، وأحمد أمين، والزيات، والطنطاوي، وغيرهم.
 واشتريت مجلة الفتح لصاحبها محيي الدين الخطيب، وتضم
 تلك المجلات أروع المقالات وأحلى القصائد الشعرية.

وبعد اجتيازي مرحلة الماجستير عام ١٣٩٤ هـ، فُتح القبول
 لبرامج الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،
 فتقدّمتُ لكلية اللغة العربية بطلب تسجيل الدكتوراه بعنوان (الوحدة
 الإسلامية في الشعر العربي الحديث جمعاً ودراسة)، ورجوتُ الدكتور
 الباشا أن يكون هو المشرف وكسبتُ موافقته، ولكنه قال: يا بُنيَّ
 -وهذه كلمته لنا نحن طلابه منذ أن عرفناه يا بُنيَّ، يا بُنيَّ؛ رَقَّةٌ في
 خطابه لطلابهِ- قال: شرطي لقبول الإشراف عليك هو أن تتحمل
 الجهد والمشقة، والأخذ والعطاء، فلن أكون سمحاً كما كُنْتُ مع
 طلاب الكلية يوم كُنْتُ واحداً منهم. قلتُ: على بركة الله، ولكن

قلتُ في نفسي آنذاك: إذا كُنْتُ سمحاً في الكلية، وأنت الذي أخذتُ مَادَّتْكَ جُلَّ وقْتنا في الكلية، فكيف سيكون الحال؟! وسألت الله العون. وصحبته خمس سنواتٍ في أطروحة الدكتوراه، وتعلّمتُ منه كثيراً من العلوم، حتى إنني كنت أبعث له بعض الفصول وهو في إجازته الصيفية خارج المملكة، وحين يعود يُسلّمني تلك الفصول موسومةً بمداد قلمه الأحمر.

ولا بُد أن أنوّه إلى أن أطروحة الدكتوراه التي أمضيتُ سنواتٍ في إعدادها كان موضوعها من وحي الأحداث السياسية التي عاشتها المملكة تلك المرحلة، وكيف لا يتفاعل الشباب مع وطنهم، ويستشعرون همومه، ويحملون رسالته الحضارية، ويسهمون في خدمة منهجه الفكري! لقد كانت خُطب الملك فيصل رَحِمَهُ اللهُ في الدول الإسلامية التي يزورها مثار إعجاب كثيرٍ من الشباب؛ إذ يُعبّر عن حقيقة المملكة وخدمتها للإسلام والمسلمين في كل مكان، ولهذا عندما تحدثتُ لأستاذي الدكتور الباشا رَحِمَهُ اللهُ عن موضوع الرسالة (الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث)، وإذ به يبارك. قلتُ في مقدمة الرسالة: «لقد أوحى لي بهذا الموضوع إكباري للخطوة المباركة التي قام بها فقيه الإسلام والمسلمين الملك فيصل بن عبدالعزيز عليه رحمة الله ورضاه، ودعوته لإقامة رابطةٍ للعالم الإسلامي تجمعُ

شملَ المسلمين، وتوحدُ صفوفهم، ثم تبنيَه لهذه الدعوة». وجرَت مناقشة الرسالة عام ١٤٠١هـ، وكنتُ ثانيَ طالبٍ تمنحه الكلية درجة الدكتوراه. تلك رحلتي مع التحصيل العلمي، ومع أساتذتي الذين نهلتُ منهم العلم مباشرةً.



بين القطاعين

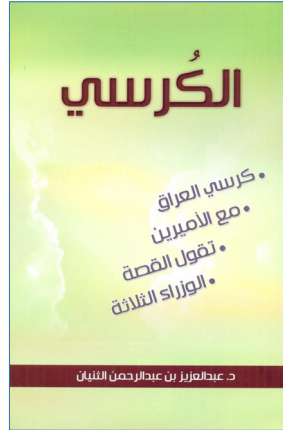
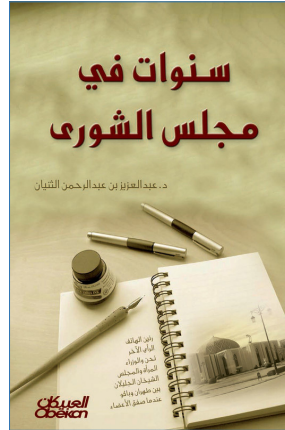
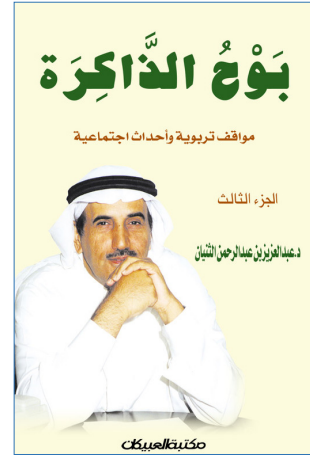
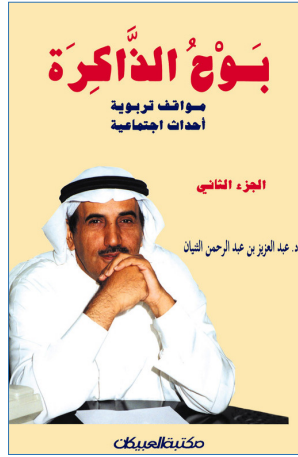
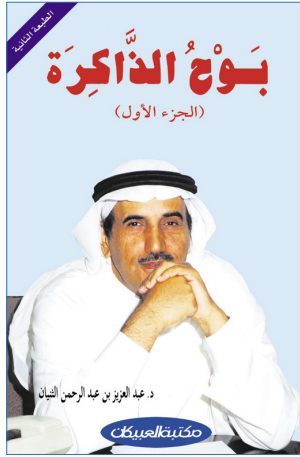
هُما: العمل الحكومي، والعمل الخاص؛ الوظيفة الرسمية بقيودها وأنظمتها الضابطة، والقطاع الخاص بمرونته وسرعة قراراته، وكلتا المزرعتين لا بُد أن يكون لهما ثمار وإنتاج، أو هي الخسارة والإفلاس، وأحمدُ الله أن كان قَدَرِي مع العلم والتعليم، ولهذا المجال مزارعُهُ المُثمرة.

بعد أن تخرَّجتُ في الجامعة وودَّعتُ ساحات العلم، عُدْتُ إلى التعليم، فتعيَّنتُ معلِّمًا في مدينة الرياض بمدرسة الإمام أبي حنيفة المتوسطة جنوب الرياض، ثم نُقلت إلى متوسطة ابن خلدون في طريق الأعرشى، وكانَ صُحْبَتِي باسم الشاعر الأعرشى محتومة، ثم في السنة الثانية انتقلتُ لجهاز وزارة التعليم، وكان اسمها ذلك الوقت وزارة المعارف، وقضيتُ مدَّةً من الزمن في الصفوف الخلفية بالوزارة بقطاع الإدارة العامة، تعلَّمتُ خلالها دروسًا في الإدارة، ودورات تطبيقية في التعامل مع أنظمة الدولة؛ نظام الخدمة المدنية (التوظيف، الترقيات، الإجازات، طي القيد، تأدية الرواتب)، وعرفتُ نظام المشتريات وتعقيدها، ثم لوائح وأنظمة تأليف الكتب المدرسية، وصَرَفَ

مكافآت المؤلفين وغيرها من أنظمة. وبعد نيلي شهادة الماجستير من القاهرة، انتقلت للإدارة العامة للمناهج في عام ١٣٩٥ هـ، وتلك المرحلة هيأتني للمسؤولية، فبعد نيلي شهادة الدكتوراه، تعيّنت مديراً عاماً لتعليم الرياض بداية عام ١٤٠٢ هـ، ثم ختمت حياتي في أعمال الدولة بعد أن عملت وكيلاً للوزارة لسبع سنوات من بداية عام ١٤١٢ هـ إلى أن تقاعدت بداية عام ١٤١٩ هـ.

لقد مارست العمل القيادي في وزارة التعليم، وزادت معرفتي الإدارية والتربوية باستمرار، فتدرجي في العمل زادني خبرة ودربة؛ ولذا حين كنت في موقع القيادة كانت تأتيني المعاملات، فكنت أبت فيها وأتحمّل المسؤولية في التوجيه بكذا، واتخاذ كذا من الإجراءات، وأنا مُمكِنٌ على خلفية معرفية، وخبرة إدارية سبقت، وبعد سنتين من التقاعد المبكر، تعيّنت عضواً في مجلس الشورى لثمان سنوات، وقد دوّنت تجربتي العملية في التعليم، وفي الشورى في كتيّبات صدرت منذ سنوات (بوح الذاكرة ثلاثة أجزاء، سنوات في مجلس الشورى، الكرسي).

ولهذا لن أكرر ما دوّنته في تلك الكتب عن وزارة التعليم ومجلس الشورى، وما صار معي في تلك المزارع المنتجة، من مواقف وأحداث متنوعة، وإنما سأشير إشارات خفيفة لما يتطلبه السياق.



هذا، ومما أنا حفيٌّ به وسعيدٌ أيضاً، أن وفَّقني الله لخوض تجربة أخرى في حقول التعليم الخاص، ولكلِّ مسارٍ همومه وميزاته.

فعندما كُنت مسؤولاً تعليمياً كبيراً في الدولة كانت الأنظمة تحدُّ من طموحي، وكانت البيروقراطية تُقيِّدُ تصرُّفي، وكان للوضع الاجتماعي والعرف القبلي حضوره في قضاء حوائج الناس واستقبالهم والتلطف معهم، «فليُسعِدِ النُّطقُ إن لم تُسعِدِ الحال».

أما القطاع الخاص فهو أقل معاناة، وإن كانت أنظمة العمل ولوائحه، وبيروقراطية موظفي الدولة، واختلاف قدراتهم في التطبيق تلاحقك، وتحدُّ من إبداعك، فإن المجال أرحب؛ فاتخاذ القرار أسرع، وتوفير المستلزمات التعليمية أيسر، وإضافة البرامج الإثرائية أهياً، والتعامل مع المعلم الذي هو الأساس والركن المهم في العملية التعليمية أكثر مرونة.



الاستقبال والميدان!

أَمْضَيْتُ سَبْعَةَ عَشَرَ عَامًا فِي مَوْقِعِ الْقِيَادَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ، وَدَوَّنتُ فِي كُتُبِي عَنِ التَّعْلِيمِ مَوَاقِفَ وَتَجَارِبَ تُجَسِّدُ الْوَاقِعَ التَّرْبَوِيَّ، وَتَحْكِي هَمَّ الْمَسْئُولِيَّةِ.

وَبَعْدَ أَنْ غَادَرْتُ كُرْسِيَّ الْمَسْئُولِيَّةِ، بَاتَ شَرِيطُ الذِّكْرِيَّاتِ، بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ، يَسْتَعِيدُّ الْمَاضِيَّ، وَاسْتِقْبَالَاتِ الْمَرَاجِعِينَ، وَالْمَوَاقِفَ الَّتِي مَرَّتْ لِي مَعَهُمْ، وَتِلْكَ الزِّيَارَاتِ الْمِيدَانِيَّةَ لِلْمَدَارِسِ، وَمَا كُنْتُ أَرَاهُ فَيُسِّرُنِي أَوْ يُسَوِّؤُنِي، وَتِلْكَ الدَّرُوسَ الَّتِي اسْتَفَدْتُهَا مِنْ الْجُلُوسِ لِدَوِي الْحَاجَةِ، وَالسَّمَاعِ مِنْهُمْ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَكَيْفَ وَجَدْتُ مِنْهُمْ اللَّحُوحَ وَاللَّجُوجَ، وَذَا السَّرِّ وَالسَّتْرِ، وَالْآخِرَ الَّذِي يَلْزِمُ صَاحِبَ الْقَرَارِ مَقَابِلَتَهُ وَالسَّمَاعَ مِنْهُ، وَنَمَاذِجَ شَتَّى مُتَنَوِّعَةٍ. كَمَا اسْتَحْضَرْتُ الزِّيَارَاتِ الْمِيدَانِيَّةَ لِلْحَقْلِ التَّرْبَوِيِّ، وَأَثَرَهَا فِي الْمِيدَانِ، وَصَدَاهَا الْإِيجَابِيَّ.

إِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ، أَنْ وَفَّقَنِي عِنْدَمَا كُنْتُ مَسْئُولًا فِي وَزَارَةِ التَّعْلِيمِ، أَنْ خَصَّصْتُ سَاعَاتٍ يَوْمِيَّةٍ لَاسْتِقْبَالِ الْمَرَاجِعِينَ فِي إِدَارَةِ تَعْلِيمِ الرِّيَاضِ،

ثم عندما أصبحت وكيلًا للوزارة، استقبلهم يوميًا في صالة عامة، أخرج إليهم من مكتبي، وأجلس وأسمع منهم وأحاورهم، وما زلت -ولله الشكر- أجدُ صدى تلك المقابلات، فكم من شخصٍ لقيته -وحتى كتابة هذه الخواطر- يُذكرني بحُسن استقبالي له وتفاعلي مع طلبه!.

إن التعليم يختلفُ عن غيره من الأعمال الأخرى، فالتعليم مُرتبطٌ بكل بيت، وهو المسؤولُ عن أشرف وأعز ما في الوطن؛ عن فلذات الأكباد، وحبّات القلوب، يترك الأب كلَّ مسؤولياته لأجل متابعة شأن ابنه وابنته، ويظلُّ محفورًا بذهنه التعامل التربوي والإداري الذي لقيه. إنهم الأبناء جعلَ الله لهم مودّةً في القلوب.

وإن بناء العقول شرفٌ ومسؤولية، ووزارة التعليم تتعامل مع العقول، وغيرها مع الجهاد، وشتان ما بين العقل والمادة، وما بين الروح والجسد؛ ولذا أرى أن القيادي في وزارة التعليم جزءٌ كبيرٌ من عمله عقلي، ومن الضرورة حاجته للخبرة التربوية قبل الإدارية. وسأعرض شواهد تُوضِّحُ حتمية المقابلة وأهمية الخبرة التربوية في المقابلات، وضرورة الزيارات الميدانية للمدارس بين الحين والآخر، ودخول الفصول الدراسية، ومعرفة ضبط المعلّم للفصل، ومدى مراعاته للفروق الذهنية بين الطلاب، واستيعابهم للمادة العلمية. وما بقي في ذاكرتي من تلك الصور يؤكدُ

ضرورة المقابلة المباشرة للمراجعين، وحتمة تخصيص وقت يومي للجلوس إليهم واستقبالهم والاستماع منهم.

وقد يقول قائل: إذا اعتاد الناس وتسامعوا بجلوس المسؤول للاستقبال فإن المراجعين سيتوجهون مباشرة للمسؤول نفسه؟ وسيقول آخر: لا بد أن يتحرى المسؤول ولا يتسرع في إصدار القرار، ولا يتجاهل مساعديه والعاملين معه، وعليه أن يسألهم قبل اتخاذ القرار، وعليه تفويض الصلاحيات! وكُلُّ هذه التساؤلات حاضرة في الذهن عندما كنتُ في موقع المسؤولية، وسأعرض بعض الأحداث التي تُؤكِّد ما أراه!

مما أذكره حول استقبال المراجعين، أن كثيراً من المعلمين وذويهم يجهلون إجراءات الوزارة في حركة النقل، ويظنُّ البعض أنه وإن ادَّعتِ الوزارة الدِّقَّةَ والعدْلَ في النقل، فإنَّ للعلاقات الاجتماعية والوجاهة استثناءاتها؛ ولذا تتوافدُ الأعدادُ من المراجعين للوزارة تنشُدُ مقابلةَ الوزير والوكيل، يرجُونَ التجاوزَ؛ ولذا فالمسؤول بين رفض استقبالهم -وللرفض أثره النفسي على المراجع والشعور أن المقابلة لذوي المعرفة والجاه فقط، ومن ثمَّ تتشكّل الصورة الذهنية السلبية عن الوزارة- أو التحمل والمقابلة والجلوس إليهم، وإزالة الظنون والصُّور القائمة.

إني أرى حتمية المقابلة، وبيان ذلك في أمثال هذه النماذج: أتذكرُ أن صديقاً زارني في الوزارة يتشفّع لابن عمّه أن يُعيّن في مكانٍ يرغبه، فتعذّرتُ للصديق وابن عمّه المعلّم بالتزام الوزارة بالنظام والعدالة بين الجميع، وبعد شهرٍ تقريباً، وجدتُ ذاك الصديق وابن عمّه المعلّم بين المراجعين، وحين اقترب الرجلان تبسّم الصديق تبسّم عتاب، وهمس أن زميل ابن عمّه تعيّن هو وابن عمّه في مدرسةٍ واحدة، ولكن بعد شهرٍ جاء النقل للزميل، فأين العدالة؟!

وقلتُ لصاحبي: أوكدُ لك أن في الأمر لبساً، لكن سوف نتحقّق. وعلى الفور، كلّفتُ التفتيش الإداري بالوزارة بالتحريّ عن قصّة النقل، وكيف تمّت؟ وجاء التقرير أن النقل صحيح، وأن الرجلين تخصّصهُما واحد، وتعيّننا في مدرسةٍ واحدة، وباشرا في يومٍ واحد، ولكن جدّ احتياجٌ جديدٌ في المنطقة الأخرى، فقلّ الحاسبُ الآلي ذاك الزميل؛ لأن نقاطه في الحاسب الآلي أكثر؛ فتقديره ممتازٌ في الشهادة الجامعية، في حين تقدير زميله جيد؛ ولذا صار النقل. وحين أخبرتُ الرجلين بالواقع زال اللبس عند ذاك الصديق والمعلّم المذكور، ولو لم أقابلهُما ل بقيت الصورة السلبية عن الوزارة، ولتناقلها الآخرون، وهكذا.

ومثال آخر، والأمثلة كثيرة، أني وجدتُ ذات مرة بين المراجعين

رجلاً معه ابنه الصغير، فنظرتُ في استدعائه؛ وإذ هو يشتكي معلماً رسبَ ابنه في القرآن الكريم في الدور الأول وفي الدور الثاني، ويتظلم من إعادة ابنه سنةً أخرى في الصف الرابع الابتدائي، وقال الأب: «بعد أن علمتُ برسوبِ ابني في الدور الأول، قبلتُ بالأمر، وقلتُ له ولوالدته: لعلَّ في الأمر خيراً، وخصّصنا لابن معلماً في الإجازة الصيفية لتدريسه القرآن الكريم، ولكن مُعلِّم المدرسة رسبهُ في الدور الثاني». وذكر الأب أنه راجع إدارة التعليم، وما وجد حلاً، وجاء لإدارة الاختبارات في الوزارة وقالوا له: لا يوجد دور ثالث، ويتمنى النظر في حالة ابنه، فهو مُقتنعٌ بسلامة قراءة ابنه، وكان مع الأب ملفٌ نظرتُ فيه؛ وإذ به درجاتٌ وتقويمُ الطالب في المواد الأخرى، فاسترعى انتباهي أن درجاته في مواد اللغة العربية جيدة، فكتبتُ على طلبه لمدير عام الإشراف التربوي المفاهمة الهاتفية، وبعد انتهاء مقابلة المراجعين وفي مكنتي، تحدّثت مع الإشراف التربوي، وطلبتُ تقويم الطالب في القرآن من مشرفي القرآن الكريم واللغة العربية في الوزارة، والتأكد أن الطالب هو نفسه الراسب.

إن حالة هذا الطالب تستوجبُ أن يكون لدى المسؤول خبرةٌ تربويةٌ وإدارية، فموادُ اللغة العربية تُقوّمُ اللسان، وترفعُ مهارة القراءة، فعندما نظرتُ في درجات الطالب في اللغة العربية، وتبيّن

تميزه، خشيتُ من قسوة معلّم القرآن الكريم، وفي الوزارة الجهاز الفني يعالج هذه الحالات وغيرها فنيًا وإداريًا.

وتبيّن كفاءة الطالب، واضطراب المعلم، ومن ثمّ معالجة الموضوع، وحماية الطلاب من هذا المعلّم الأرعن، كما جرى السؤال عن المشرف التربوي في إدارة التعليم، ومدير المدرسة، وأين هم من هذا المعلم؟! وصار لهذه الحالة صدى في الميدان التربوي.

إنني لو لم أقابل هذا الأب وابنه لربما صار للطالب صدمة وترك التعليم، وقد ينحرف سلوكًا فتخسرهُ أسرته والمجتمع، نتيجة حماقة مُعلّم غفلت عنه وزارة التعليم.

وبالنسبة للزيارات الميدانية فهاذجُها كثيرة؛ فمرة في حي السويدي بالرياض وصلت للمدرسة قبل وقت التمارين الصباحية بخمس دقائق؛ وإذ معلّم الرياضة متأخّر، والوكيل متأخّر، ومدير المدرسة متأخّر، ومضت دقيقتان من وقت دخول الحصة الأولى، فأسرعتُ لجرس التنبيه وحركته، ثم توجهتُ لغرفة المعلمين؛ وإذ بعضهم جلوسٌ، وآخرون يتضاحكون، فوجهتهم بالإسراع إلى الفصول، وعند ذلك جاء مدير المدرسة فعاتبتهُ، فقال: الوكيل موجود. قلتُ له: وكيلك مثلك، وكذلك مدرس التربية الرياضية؟

إن حضور المسؤول الصباحي المتكرّر للمدارس يجعل الميدان التربوي في يقظة وترقبٍ وجدّ.

هذا والمواقف كثيرة في عددٍ من المدارس؛ كنتُ مرّةً في زيارة تعليم المدينة المنورة، وحين انطلقتُ بنا السيارة، طلبتُ من السائق أن يُغيّر وجهةَ السيارة يَمَنَةً وَيَسْرَةً؛ كي تكون الزيارة مُفاجئةً، وبالفعل رأينا مدرسة ابتدائية فتوقّفنا، ودخلناها فجأةً، وأسرعتُ لأقربِ الفصول، وراعني أن أجدَ المدرّسَ نائماً في مقعده، والطلاب صغاراً، ويتهامسون فيما بينهم، فكدتُ أفقدُ صوابي، وأعلو المدرّس ركلاً وضرباً. إن الطلاب أمانةٌ، ووقتهم ثمينٌ، والمعلّم نائمٌ! وشعرَ المعلّم بالحركة، ففتح عينيه ونهض، وعرفني على الفور، وما زلتُ أذكر مقولته: «وكيل الوزارة بكُبره!». وعَلِمَ مديرُ المدرسة، فحضر مسرعاً، وكان عُذرُ المعلّم تعبَه وغلبةُ النُّعاس عليه. وتعليق مدير المدرسة أنه تعبَ من نصّحه، وكتبَ لإدارة التعليم عنه.

وانتقلنا للفصل الآخر؛ وإذ هو عكس الفصل الأول؛ مُعلّم نشيط وجاد، والطلاب متفاعلون معه، فسُررنا غاية السرور، وكدتُ أُقبّلُ رأسه، بل ما زال اسمه حاضراً في ذاكرتي، إنه المعلّم مهنا بن عودة السريحي أثابه الله وجزاه الله خيراً. وفي ساحةِ المدرسة تنبّهتُ

لمجموعة من الطلاب يلعبون رياضة، وأستاذهم بينهم، ولاحظت كثرتهم، فاستدعيت المعلم وتساءلت عن كثرة طلابه، فقال: هذه حصة تربية رياضية، قلتُ له: ولكن عدد الطلاب كثير، فتلكأ في الإجابة، ثم قال: نعم، هؤلاء طلاب فصلين، الفصل الثاني طلاب الأستاذ سعيد، مدرس العلوم خرج لاستلام راتبه، واستودعني طلابه، فعاتبْتُ مدير المدرسة.

إن هذه الزيارة المفاجئة أحدثت هزّة في الميدان التربوي، فقد عرف المشرفون ومديرو المدارس أن قياديي الوزارة سيفاجئونهم ويحاسبون المُقصر، وصار لهذه الزيارة تبعات، فقد أرسلنا إليهم من الوزارة فريقاً تربوياً يراجع مستوى المدرسة، ويُسائل المشرف المسؤول في المدينة المنورة، أين هو عن المعلم النائم، والآخر الذي استودع طلابه مدرّس التربية الرياضية؟ وكذلك مراجعة مستوى بقية معلّمي المدرسة.

إن القيادة التربوية ليست لقباً يعلو على الأبواب، ولا كرسيّاً فخماً يُزين المكاتب، بل هي قلب يخفق مع آلام الناس، وأذن تصغي لهمومهم، ويد تبسط العدل قبل أن تكتب القرارات. ما كان أجمل تلك اللحظات، التي رأيت فيها أثر كلمة رفق، وبشاشة استقبال في عيون المراجعين، كأنها أزحت عن صدورهم جبلاً من الهم.

التعليم - كما أيقنت - ليس حقلاً جامداً، بل هو نهر متدفق، يحتاج إلى من يروي شاطئيه بالحزم والجد والعدل. فالمسؤول الذي يكتفي بالمكاتب، كمن يحكم على المشهد من خلف نافذة معتمة، لا يرى حقيقة ما يجري. وحدها الزيارات الميدانية هي التي تكشف نبض الميدان، وتُظهر ما وراء الجدران: مدير المدرسة الذي كسب قلوب زملائه وشاركوه الهم، والمعلم المجتهد الذي يستحق التكريم، والآخر الكسول الذي يحتاج إلى تقويم.

إن كل ابتسامة ارتسمت على وجه وليٍّ أمرٍ، وكُلُّ نظرة امتنانٍ من طالبٍ أو معلمٍ، كانت أكبر وسام حملته في مسيرتي التعليمية. ومضت بي تلك السنوات الحلوة، وأنا أطرق أبواب المدارس، كما يطرق المزارع أرضه، ليتأكد أن البذور تنمو كما يجب، وأفتح أبواب مكتبي لأهل الحاجة، كما تُفتح أبواب الديار للضيوف. وما زلت أحمد الله، أني غادرت منصبي دون أن تغادرني روح الميدان وأريجُه، ومقولة الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: الحزم أبو العزم أبو الظفرات والترك أبو الفك أبو الحشرات، وما أجمل أن يترك الإنسان خلفه أثراً يبقى، وذكرى طيبة تسكن القلوب.



دموعٌ على عتبةِ المدرسة

الوظيفة القيادية ليست كرسياً تُزيّنه المكاتب، بل هي أمانةٌ ثقيلةٌ ينسى كثيرون تبعاتها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والمناصبُ - فيما أرى - ليست شرفاً بقدرِ ما هي امتحانٌ لقلوبنا، هل نحملُ الناسَ أم نثقلُ عليهم؟

كنتُ في وزارة التعليم أرى هذا المعنى حيّاً أمامي، فكلُّ يومٍ كان لي موعدٌ أستقبلُ فيه المراجعين، أستقبلُ وجوهاً شتى؛ بعضها أتعبها همُّ الأبناء، وبعضها حائرٌ قد تلعثمتُ ألسنتهم من كثرة السؤال.

إن القانونَ بلا رحمةٍ مثل ميزانٍ من حديدٍ يزنُ القلوبَ ولا يزنُ الإنسانية.

ومن بين عشراتِ المواقفِ التي مرّت بي، بقيتُ مواقفٌ بعينها تتوهجُ في ذاكرتي، كأنها دروسٌ أبديةٌ تذكّرني أنَّ المنصبَ ليس سلطةً، بل قلبٌ يسمع.

في الميدان التعليمي، لا تأتيك القصة مكتوبةً على الورق، بل
تمشي على قدميها، وتنظرُ إليك بعيونٍ دامعة. كم من دمعةٍ رأيتها
على أبواب المدارس! دمعةٌ أم مقهورة، أو جدٌ مكلوم، أو طفلٍ يطرقُ
بابَ الحياة فيُغلقُ في وجهه باسم (النظام).

لكن ما قيمة النظام إذا تُرك تطبيقه لضعيف الشخصية؟ وما
قيمة الكرسي إن لم يكن كرسي رحمة، وما قيمة القلم إن لم يكن قلم
شجاعة في الحق والعدل؟

لن أنسى قصة طفلٍ من منفوحة... وبطاقة حياة.

ذات صباح كانت الرياض مليئةً بضجيج الحياة. ومن بين
مراجعي المكتب رأيت رجلاً أسمر اللون، وقور الطلعة، له عيان
تشعان بالرجاء وكبرياء الرجال.

سلم، ثم قال بصوتٍ خشنٍ من أثر التعب، لكنه ناصع الصدق:
يا سعادة المدير، ابنتي تزوجت رجلاً لم يوفّقها الله به، فافترقا بعد أن
حملت منه. أنجبت طفلها، لكنه رفض أن يستخرج شهادة ميلاد له.
ربيته كما لو كان ابني، عشت متقللاً بناقلة الوقود بين الشرق والغرب،
بين الديار والطُرقات، وقد عدتُ بالأمس إلى بيتي في منفوحة، فوجدتُ
ابنتي تبكي: «أبتاه، رفضت المدرسة قبول ابني؛ لأنه بلا شهادة ميلاد».

ذهبتُ إلى المدرسة، فقالوا: «القانونُ لا يسمح». «أرجوك يا سعادة المدير، لا تركوه، سأبحثُ عن والده، ولو اضطررتُ أن أجلبهُ مكبلاً».

كان الرجلُ يتحدثُ بدموعٍ مكتومة، وقلبي يُضغِي إلى صرخته.
«التعليمُ نور، ومن يحرم طفلاً من التعلّم، كمن يطفئُ شمسَ النهار في عينيه».

تردّدتُ لحظة: أياكون القانون حاجزاً بين طفلٍ وحقّه؟ هل نغلقُ الأبوابَ بحجّةِ الأنظمة، ونتركُ طفلاً على رصيفِ الجهل؟

أمسكتُ الهاتفَ وقلتُ لمديرِ المدرسة: «اقبلوه من الغد. وأعدّوا له ملفاً، وارفعوه لإدارة التعليم، وسنتابع الأمر مع الأحوال المدنية. هذا الطفلُ لن يُحرَم من مقعده، ما دام أن الله قد جعلنا مسؤولين عن كلِّ مقعدٍ دراسي بمنطقة الرياض».

ولم أنسَ حينها عينيَّ الجدد، كانتا تقولانِ كلَّ كلماتِ الشكر التي لم ينطقُ بها.

وتلك الأمُّ الحيّةُ وطفلُ النسيم، فبعدَ أيامٍ قليلة، دخلتُ مكنتي سيدهُ حيّةً، كأنها تستحي من الهواء أن يلامسَ صوتها. قالت وهي تمسكُ بيدِ صغيرها: «هذا ابني. نحن نسكنُ في حيِّ النسيم أمام

المدرسة مباشرة. انفصلتُ عن زوجي، وهو يرفض أن يعطيني أي ورقة تخص ولده. أعيشُ في بيت والدي وإخوتي، لكنهم لا يريدون الدخول في مشاكل. العام الماضي ضاع من عمر ابني بلا دراسة، واليوم بكيت عند أبي حتى سمح لي أن أراجعكم».

كانت كلماتها مثل خيوط دخانٍ تخرج من قلبٍ يحترق.
«المسؤول الحقيقي من يرى في كل دمة رسالة، وفي كل صرخة عهداً».

ما ذنبُ هذا الطفل؟ وهل نتركه فريسةً لخلافات الكبار؟
أمسكتُ الهاتف، وقلتُ لمدير المدرسة: «اقبلوه غداً، وارفعوا أوراقه لنا. التعليم حق لكل طفل، لا يوقفه طلاق ولا عناد».
لم تمض أيام حتى جاء الأب الجاهل، عابس الوجه، يقول بصوت متعنت:

«هذا أمرٌ يخصني وزوجتي، لا تتدخلوا».

نظرتُ إليه بثباتٍ وقلتُ: «هو ابنك نعم، لكن التعليم ليس ملكك. هو حق الوطن. لديك ثلاثة أيام لإحضار شهادة الميلاد، وإلا فسنتخرجها من الأحوال المدنية».

خرج وهو يتذمر، لكنه عاد ذليلاً، وقد جلس الطفل على مقعده.

ومضتِ السَّنُونُ، وبعد ثلاثين عامًا، زارني ثلاثة رجالٍ وقد تقاعدتُ من العمل الرسمي. سلّموا عليَّ بحرارة، ثم قال الأكبرُ من بينهم:

«يا أبا فلان، تذكرُني؟ أنا سائقُ الناقلةِ الذي جاءكَ منذُ سنوات. هذا حفيدي، ذاك الطفلُ الذي كان بلا شهادة ميلاد، أصبحَ اليوم مهندسًا مرموقًا، وهذا أبوه. جئنا نشكرك؛ لأنك مَنَحْتَنَا حياةً كاملةً بقرارِكَ».

وقال الثاني وهو الأب: «الحمدُ لله أنكم أخذْتُم على يدي يومَ كُنْتُ جاهلاً، وهذا ولدي تعلَّم، وهو الآن في وظيفةٍ مرموقةٍ يُنفقُ عليَّ وعلى أمِّه».

ودمعتُ عينا الشاب، وهو ثالثُ الزوّار، وقال بصوتٍ خاشعٍ: لولا توفيقُ الله، ثم إصرارُ أمِّي وجدِّي واستجابتكم لما أكملتُ دراستي. أنا اليوم أبٌ، أزورُ أبي كلَّ أسبوعٍ وأقبلُ رأسه، وأعيشُ مع أمِّي التي صبرتُ عليَّ».

«أحيانًا، قرارٌ صغيرٌ من مسؤولٍ كبيرٍ يغيّرُ مجرى حياةٍ كاملة».

أدركتُ حينها أن تلك القرارات الصغيرة لم تكن مجردَ مواقفَ عابرة، بل كانت جسورًا إلى المستقبل.

ولذا رسالتي للميدان التعليمي، وأنا أنظرُ في مرآة الماضي، أن
بين دمة الجد في منفوحة ودمعة الأم في النسيم، تعلّمت أن التعليم
ليس مقاعد وجراناً، بل قلب نابض بالعدل والرحمة.

«التعليم ليس باباً يُطرق، بل حقٌّ يولد مع كل طفل».

إن المسؤولية الحقيقية أن ترى في كل طفل مشروع إنسان، لا رقماً
في قائمة.

«دمعة على باب المدرسة أصدق من ألف تقرير عن حقوق
الطفل».

واليوم، بعد سنواتٍ طويلة، حين أرى وجوه هؤلاء الذين
أصبحوا رجالاً ونساءً ينفعون الوطن، أحمّد الله أنني لم أكن يوماً
حارساً على أبواب النظام، بل خادماً لروح العدالة.



الأعمال الخفية

يجهل كثيرون أن لوزارة التعليم أعمالاً أخرى غير تلك التي تصدر الأخبار أو تتباهى بها وسائل الإعلام؛ أعمالاً خفية عن الأعين، لكنها معلومة عند الله، مكتوبة في صحائف العاملين بإخلاصٍ لا يبتغون جزاءً في الدنيا ولا شهرة.

إن وزارة التعليم لا تخدم التعليم فحسب، بل تحمل رسالة المملكة الحضارية إلى العالم. فالمملكة هي الحاضنة والخدمة للحرمين الشريفين، ولرسالتها الهادية، ومن هذا المنطلق تخدم نوعين من العلوم:

علوم الدنيا: تلك التي تحتاجها البشرية لضرورات الحياة، وتشارك فيها المملكة مع سائر الأمم.

وعلوم الآخرة: وهي التي شرف الله بها هذه البلاد منذ عهد النبوة، لتكون مناراتها الأولى وهادية البشرية إلى نور الله، وأساسها القرآن الكريم، ووعاؤها اللغة العربية، وتفرعت منها علوم الفقه والعقيدة والحديث والسيرة والسلوك.

وللمملكة في هذه العلوم الصدارة والشرف، ولوزارة التعليم فيها نصيبٌ عظيم من الريادة والمشاركة، وإن خفي أثرها عن كثيرين.

سفراء العلم إلى العالم

لقد كان للوزارة جهدٌ مشهود في نشر علوم العربية والإسلام خارج الوطن.

فمئات المعلمين من ذوي الاختصاص، في التربية الإسلامية واللغة العربية تندهم الوزارة ليُعلِّموا أبناء المسلمين في بقاع الأرض، وقد هيأت لهم السبل، وصرفت لهم المكافآت الجزلة.

كما افتتحت الوزارة عددًا من المدارس السعودية في الخارج؛ في موسكو، ولندن، وواشنطن، وتركيا، وعدد من الدول الإسلامية الأخرى.

وحين كنت أعمل في إدارة المناهج، شاركتُ في لجنة تقويم زارت المدرسة السعودية في إسلام آباد في عهد الملك خالد رَحِمَهُ اللهُ قبل خمسين عامًا.

صلينا في مسجد الملك فيصل، وأعجبنا بجمال المدينة وخضرتها، وبمشروع مدّ الغاز في البيوت، وكان مشهدًا متقدّمًا لعصره ما زال عالقًا في الذاكرة.

المصحف قبل المطبعة

وعندما كنتُ الرجل الثاني في إدارة المناهج، وقبل تأسيس مجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، حدث أن توفّر فائضٌ في بند طباعة الكتب، فبادرت الوزارة إلى طباعة أكثر من خمسمائة ألف نسخة من المصحف الشريف على نفقتها الخاصة، ووزعتها في أنحاء العالم الإسلامي.

كان ذلك عملاً مباركاً يعبر عن نية صافية ورسالة كريمة؛ لم تنتظر به الوزارة تكليفاً رسمياً ولا احتفاءً إعلامياً، بل ابتغت به وجه الله وحده. رحم الله الوزير معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر الذي بارك وأجاز ذاك التصرف، وأثاب الله الدكتور سعود بن إبراهيم الجماز رئيس دائرة المناهج ذلك الوقت صاحب الهمة الذي قاد هذه الجهد. لقد اجتمعت في الرجلين النية الصالحة والإدارة الفاعلة، فكانا معاً بركة لكثير من الأعمال النبيلة.

مشروع الأسر الوطنية

ومن الصفحات المشرقة التي أستعيدها بفخر، مشروع الأسر الوطنية للمناهج في عهد الملك خالد رَحِمَهُ اللهُ وهو أحد المشاريع العلمية الرائدة التي مكّنت الوزارة من اصطفاء خيرة العقول لتأليف المناهج الدراسية.

كان الدكتور سعود الجماز - رئيس الإدارة العامة للمناهج آنذاك - هو المحرك الأول لهذا المشروع، بنباهته وبعد نظره وإيمانه بأن المناهج لا تُصاغ بالأوامر، بل تُبنى بالعقول المُتمكنة عِلماً ومعرفة .

وقد وجد المشروع من معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر رَحِمَهُ اللهُ دُعماً كريماً وتأييداً صادقاً؛ فرفع للمقام السامي بذلك، فصدرت الموافقة بتشكيل أُسْرِ علمية لكل مادة دراسية، تضم نخبة من الكفاءات الوطنية من أساتذة ومختصين، وأُقرَّت لهم المكافآت السخية.

ومن خلال هذا المشروع المبارك، تولّت الوزارة تأليف سلسلة -العربية للناشئين- لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، التي أَعَدَّها الدكتور إسماعيل الصيني وزملاؤه في معهد تعليم العربية بجامعة الملك سعود، مع الأدلة الإرشادية للمعلم والنشاط.

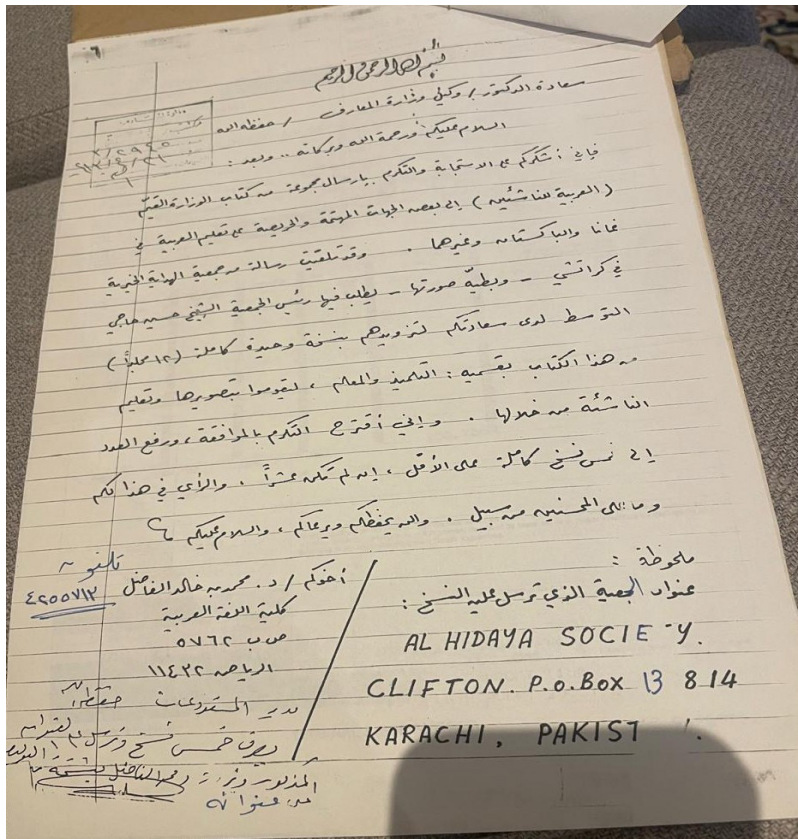
وقد تكفّلت الوزارة بطباعة تلك الكتب وتوزيعها داخل المملكة وخارجها، على نفقتها، خدمةً للغة القرآن، وبذلاً في سبيل رسالته.

رسالة من الماضي

غِبْتُ عن المناهج بانتقالي إلى تعليم الرياض عشر سنوات، ثم عدتُ وكيلاً للوزارة، فوجدتُ تلك الجهود ما تزال مستمرة، كتبٌ تُعاد طباعتها وتوزيعها، ونورٌ لا ينطفئ.

ولله دَرّ و زارِۀ جعلت التعليم صدقةً جارية، وشجرةً مباركة تُؤتي
أكلها كل حين. وما ذاك إلا بتوفيق الله، ثم بمباركة ولاة الأمر وقادتها
الذين يدفعون و يباركون هذه الأعمال الزكية.

ولعلّ أجمل ما يُذكرني بتلك الأيام رسالةٌ قديمةٌ وردتني من الصديق الدكتور محمد الفاضل - جزاه الله خيرًا - يشكر فيها الوزارة على إرسال مجموعاتٍ من تلك السلاسل التعليمية إلى غانا وباكستان، ويطلب خمس مجموعاتٍ أخرى إلى جمعية الهداية الخيرية في كراتشي.



وردت الرسالة بتاريخ ٢١ / ٤ / ١٤١٣ هـ، وقد وجّهت حينها بصرفها وإرسالها فوراً، وكانت تلك اللحظة امتداداً لرسالة علمٍ يُسافر من الرياض إلى أطراف الدنيا.

إعادة توزيع الكتب

ومن جملة الأعمال الخفية المشرفة، ما قامت به الوزارة من جمع رجميع الكتب المدرسية بعد أن كان كثيرٌ من الطلاب يقذفونها في النفايات نهاية العام الدراسي. فوجّهت الوزارة بجمع كتب اللغة العربية والتربية الإسلامية في المدارس، وإعادة تدويرها إلى المستودعات، ثم إرسالها إلى الدول التي تطلبها عبر السفارات أو الجمعيات الخيرية، لتكون زاداً علمياً لمن يطلب العلم في شتى الأقطار.

تولّت الوزارة عبء الجمع والفرز والتعبئة والترحيل، في عملٍ صامتٍ كريم، يجمع بين حسن التدبير وبركة النية.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩]

وأحمد الله أن وفقني أن أكون جسراً صغيراً من جسور الخير التي تمرّ عبرها لغة القرآن إلى العالم.

فخرّ وامتنان

حين أسترّجع تلك الأيام، أشعر بالفخر نحو وطني ووزارة التعليم ورجالها الذين جعلوا التعليم رسالة لا وظيفة.

وأحمد الله أنني كنت واحدًا ممن ساهم في تلك الخدمات الربانية الصامته، خدماتٍ لا تراها العيون في عناوين الصحف، لكنها تُكتب في صحائف البرّ والإحسان. ألا بورك العمل! وما أروع العمل في العلم والتعليم وصناعة العقول؛ فهي مهمةٌ نبيلة، ورسالةٌ شريفة، ومن أعظم ما يُخلّد في ميزان الوطن والآخرة معًا.



ذاكرة الوزير الخويطر

من الذكريات الجديرة بالتدوين أحاديث جانبية جرت بيني وبين الوزير عبدالعزيز الخويطر رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو رجل نال ثقة الملوك، وصار عميد الوزراء، دخل الوزارة في عهد الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ، واستمرّ وزيراً في عهد الملك فيصل، والملك خالد، والملك فهد، والملك عبدالله رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعاً، حتى توفي يوم الأحد ٢٦ / ٧ / ١٤٣٥ هـ. وقد أخذت عنه الجديّة والحزم، وتعلّمتُ منه الثبّت، يقول لي ذات مرة: «تثبّت من قولك وقرارك، واحذر أن تكون مثل الذي يؤسس بنيانه على كتيب رَمَلٍ سرعان ما ينهار». وعرفتُ منه الهدوء، وحفظ الأسرار، لقد كان مدرسةً في حفظ أسرار الدولة، وهو رجل الدولة، وكاتم أسرارها، ينقل الرسائل، ويشترك في كثير من اللجان السياسية، ويحضر العديد من الاجتماعات السريّة، ولكن لا يمكن أن تأخذ منه كلمة، ولا أن تنسب له قولاً. سأله ذات مرة صحفي سؤلاً، وكان الجواب بنعم أو لا محرّجاً، وقرب منه جهاز التسجيل فما كان منه إلّا أن أشار بإصبعه أن أصمتُ، وأبعدَ جهاز التسجيل بيده الأخرى.

لقد كان رَحْمَةُ اللَّهِ من الرجال الذين تعلّمتُ منهم علمًا كثيرًا، كان مدرسةً سياسيةً وإداريةً وتربوية. ذات يوم كنت معه في مكتبه نتناقش حول بعض المعاملات الرسمية، وسألته عن موضوع يتداوله بعض الناس، وهو أن الخويطر رفع طلبًا للمالية، ولكنه في ذلك الأسبوع تولى وزارة المالية بالنيابة، وحين عُرضتُ عليه المعاملة الواردة من وزارته المعارف، وجّه برفض ذلك الطلب! سألته عن ذلك التصرف، وأن البعض ينظر لذلك الإجراء أنه موقفٌ سمج! وآخرون يرونه تجاهلاً لمصلحة وزارة المعارف! وعند ذلك تبسّم رَحْمَةُ اللَّهِ ووضع قلمه، ورجع بكرسي مكتبه إلى الوراء قليلاً، وقال: هذا موضوع طالما سُئِلْتُ عنه، إنه يجسّد مقولة الشاعر:

وهم نقلوا عني الذي لم أفه به
وما آفةُ الأخبارِ إلا روايتها

وقال خلاصة الأمر؛ هو أنني طالما أنوب عن معالي وزير المالية الأستاذ محمد أبا الخيل، وذات عام صدر الأمر السامي الكريم بتكليفني بوزارة المالية نيابةً عنه، وفي مكتب وزير المالية وجدتُ ملفًا مكملاً فيه عدّة خطابات يلزم توقيعها تتضمّن ردودًا من وزارة المالية على عدّة خطابات حكومية، ووجدتُ من بينها خطابًا موجهًا لوزير المعارف، وتصفّحتُ مرفقات الخطاب كاملة، فوجدت

أن معالي الأستاذ محمد أبا الخيل قد وجّه بالاعتذار لوزارة المعارف وعدم الموافقة على طلبها، وكان الموضوع يتعلق بطلب الموافقة على إجراء مناقلة بين بنود في ميزانية وزارة المعارف، فرأيتُ أن أوقع الخطاب؛ لأن وزير المالية لو كان موجوداً لوقع الخطاب، وحين وصل الخطاب إلى مكتبي في المعارف وجّهت بإعادة الخطاب مرّة أخرى للمالية، مع مزيدٍ من الإيضاح والمسوّغات، وجرى بالفعل إعداد الخطاب على عجل وإعادته لوزارة المالية، وهناك في وزارة المالية حين عرض عليّ خطاب المعارف، وجّهت القطاع المختص في وزارة المالية، بإعداد خطاب للمعارف بالموافقة على طلبها، ولكن حين وصل الخطاب مؤشّراً وجاهزاً للتوقيع، استدعيْتُ مدير مكتب الوزير وقلت له: هذا الخطاب لن أوقعه، وإذا جاء الوزير محمد، فأعرضه عليه ليتّخذ ما يراه! يقول الخويطر: «حين تتولى عمل غيرك فالبس قبعة ذاك، وانظر بمنظاره، ولا تستغل الفرصة وتخرج نفسك معه، لقد تصرّفتُ بحكمة إدارية. وقّعتُ الردّ وفق توجيه وزير المالية، وأمضيتُ تصرّفه، وأعدتُ المعاملة بمزيدٍ إيضاح، ووجّهت بالموافقة، لكن احتراماً للوزير الأساس؛ تركت القرار النهائي له، ولهذا حين رجع الوزير أبا الخيل ورأى الخطاب وقّعه على الفور، فتحقّقت رغبة وزارة المعارف بكل أريحية ورضا».

لقد صدق **رَحْمَةُ اللَّهِ** فهذا درس لكل مسؤول ينوب عمن سواه؛ بأن لا يستغل الفرصة، ويُمضي ما يخالف رأي المسؤول الأساس، فيندم على تكليفه، أو قد يتخذ إجراء يلغي موافقته، ويبطل قراره، فيصبح محرّجاً في المكانين.

من دروس الملك فيصل

وذات مرة وأنا وكيل الوزارة، دخلت عليه في مكتبه؛ وإذ هو يرُتبّ معاملةً ترتيباً جيداً، ثم رغب تعليمي، وقال: عبدالعزيز اسمع هذه القصة: قال: تعلم أنني دخلتُ الوزارة في عهد الملك فيصل **رَحْمَةُ اللَّهِ**، وذات مرّة علّمتنا الملك فيصل درساً في النظام والترتيب لا يمكن نسيانه؛ إذ دخلتُ مكتبه مع وزيرين آخرين، وبعد أن جلسنا نحن الوزراء الثلاثة أمامه، مدّ الملك فيصل يده لمعاملة على مكتبه، وشرع في ترتيبها؛ بفك الدبابيس، وتخريم الأوراق المشبوكة، ثم يعيد الأوراق ورّقة ورّقة، وكل حين يرفع رأسه وينظر للوزير الذي من وزارته تلك المعاملة، وهو الوزير «....»، ثم يعود الملك فيصل لترتيب أوراق المعاملة، وظل قرابة ربع أو ثلث ساعة يرتّب أوراق تلك المعاملة، وبين الحين والآخر ينظر لذلك الوزير، فارتبك الوزير وتقاطر عرقه، ثم خرجنا، وبعد الخروج، تنهّد صاحبنا الوزير المعني، وقال: كاد

أن يُغمى عليَّ والملك فيصل يعلمُني النظام والترتيب ويقرّ عني.
رحم الله الوزير الخويطر، بلَّغ وكيله الدرس الملكي، رجالَ كبار.

أرض الجامعة

ويحكي ذات يوم قصة أرض جامعة الملك سعود، فيقول: حين
تكون مسؤولاً يجب أن تكون بعيد النظر، وتنظر للمستقبل، وكيف
ستكون مُنشأتك التي تحمَّلت مسؤوليتها، فجامعة الملك سعود معلّم
من معالم مدينة الرياض، قلت له: بلِ المملكة. قال: نعم.

قال: بعد أن كُنت مسؤولاً في الجامعة، وأخذت الجامعة في النمو،
كان لا بُدَّ من العمل لمستقبل الجامعة؛ ولذا فكرنا في موقع أرضٍ
للجامعة، وتواصلتُ مع أمير الرياض ذلك الوقت؛ خادم الحرمين
الشريفين الملك سلمان - حفظه الله - لأعرض عليه الموقع المستقبلي
للجامعة الذي نُفكر فيه، وصحبته يوماً في سيارة جيب، وتجوَّلت
وإياه لوحدنا في الموقع المختار، وتناقشتُ وإياه حول مستقبل الجامعة،
واتفقنا على توسعة المكان الذي حدّدناه، ليكون على مساحة تزيد عن
سبعة ملايين متر، حتى إنها شملت جزءاً كبيراً من أملاكٍ خاصةٍ
يملكها سموه.

وفي تلك الجولة يقول الخويطر: قال لي الأمير سلمان: لأجل العلم
والجامعة، ومستقبل الأجيال؛ فإني أتبرّع من أملاكي بكل ما يدخل

ضمن حرم الجامعة المقترح، وأحسب أن الحرم الجامعي استدخل كامل مزرعة سموه، ويقول الخويطر رَحِمَهُ اللهُ: ومن جهة الجنوب استدخلنا جزءاً من مزرعة الملك خالد رَحِمَهُ اللهُ. يقول الخويطر: حين قابلتُ الملك خالد، وقد بلغه خبر جولتنا، سألني عن القصد من استقطاع الأرض، فأخبرته رَحِمَهُ اللهُ أنها للجامعة ومشاريعها المستقبلية. يقول الخويطر: تبسّم الملك خالد رَحِمَهُ اللهُ وقال: يا ابن خويطر: إن احتجتم لبيتي والله لأُخْلِيه طالما أنه للعلم والجامعة.

لقد تعلمت من الخويطر رَحِمَهُ اللهُ الكثير من الدروس، وعشتُ معه الاحترام والتقدير بأسمى معانيهما.



نقطة

للمسؤولية هُموئها، وللقيادة ضريئها، وكان الله في عون المسؤولين، بخاصة التنفيذين منهم؛ فهم بين استقبال المراجعين والسماع منهم وقضاء حوائجهم، وبين التركيز في قراءة المعاملات والتأشير والتوجيه؛ فمعاملاتٌ قادمةٌ يلزمُ توجيهها، وأخرى صادرةٌ يلزمُ توقيعها أو تأشيرها.

حين كُنتُ الرجلَ الثاني في وزارة التعليم، فإن جميع المعاملات كانت تمرُّ بي إلا ما كان الوزيرُ يبتُّ فيه من مكتبه مباشرة، وذاك قليل، وكُنتُ مُلتزماً بالتدقيق والتركيز في كل معاملة، وهذا أجبرني أن أصحبَ حقيقةً وحقيقتين من المعاملات لقراءتها في البيت.

ذات يومٍ وأنا أنظرُ في المعاملات، وإذ بخطابٍ أعدَّته إحدى وكالات الوزارة لخادم الحرمين الشريفين، ومختوم بكلمة دعاء، لكن نقطةً غيرت المعنى، فكتبتُ على الخطاب: صحَّحوا خطابكم. وعاد الخطابُ لتلك الوكالة ولم يهتدوا للخطأ؛ لأنه خطأ مطبعي يسير، لكنه خطأٌ خطيرٌ غير المعنى، وفي اليوم الثاني أُعيد الخطابُ كما هو،

وظنّوا أن الخطأ في الإخراج فعَدّلوا في الصياغة وحجم الحروف، وبقي الخطأ الكبير كما هو، فأعدّته مؤكّداً استمرار الخطأ، فما كان من ذاك المسؤول إلا أن جاء ومعه مدير عام الجهة التي أعدّت الخطاب، وطلب الرجلان إيضاح الخطأ، وكأنهما يستنكران وجود أيّ خطأ.

وقرأتُ الخطاب عليهما، وطلبتُ منهما تركيز السماع، وحين نظقت الحرف المنقوط دُهِش الرجلان كيف فاتهما ذاك الخطأ الخطير؟! قلت لهما: هي نقطة كم أربكت، وكم أخرجت، وكم أهلكت!

تروي كتب الأدب: أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، أرسل كتاباً إلى أحد عمّاله، ليقوم بإحصاء المخنّثين، فجاءت الكارثة على هؤلاء بأن صُحِّفَتْ كلمة الإحصاء، عبر وضع نقطة على الحاء، فأصبحت إحصاءً بالحاء، وحلّت البلوى على هؤلاء، وجرى إخصاؤهم، فعلاً!

كانت النقطة الإضافية لدينا في الخطاب الملكي، في آخر الخطاب بهذا النص:

(ولكم خَفَظْكُمْ الله خالص تحياتي وفائق تقديري)؛ إذ تغيرت الحاء فصارت خاء، فانقلب المعنى من الدعاء لخادم الحرمين إلى الدعاء عليه.

إنها اللغة العربية؛ الحروف، والنقاط، والتشكيل، تُغَيِّرُ المعاني
تغغيرًا جذريًّا!

يُروى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ الآية ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَآئِمُهُ مُؤْمِنُهُ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكِهِ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وأخطأ القارئ فقرأ بفتح التاء، فقال: وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، فقال الأعرابي: والله لن ننكحهم آمنوا أو لم يؤمنوا.
فصحح القارئ الخطأ وقرأ بضمّ التاء ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾. فقال الأعرابي: الآن نعم!

ورُوي أن أعرابياً قَدِمَ في زمان عمر، فقال من يُقرئني مما أنزل الله على نبيه ﷺ؟ قال فأقرأه رجل سورة براءة، فقال: «أن الله برئ من المشركين ورَسُولُهُ بالجرّ، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رَسُولِهِ؟ إن يكن الله برئ من رَسُولِهِ فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي أبرأ من رسول الله ﷺ؟ قال: يا أمير المؤمنين إني قَدِمْتُ المدينة ولا عِلْمَ لي بالقرآن، فسألت من يُقرئني فأقرأني هذا سورة براءة، فقال: «أن الله برئ من المشركين ورَسُولُهُ»

فقلتُ: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله برئاً من رسوله، فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي. قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣] يعني بالرفع، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه، فأمر عمرُ بن الخطاب أن لا يُقرئ القرآن إلا عالمٌ باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي فوضع النحو^(١).

فالكسرة غيرت المعنى!



(١) تاريخ ابن عساكر (٧/ ١١٣).

مُعاضدة لا مُعارضة

أمضيتُ ثماني سنوات في مجلس الشورى، وأصدرت كُتُبًا حول تجربتي الشورية، ومما ذكرته، أنني تعلّمتُ في مجلس الشورى إِبَّانَ دورتين قضيتُهما في رحابه أن أسمع الرأي الآخر بتركيزٍ وبصيرةٍ واحترام، وأن أختار ما يترجّح لديّ أنه الأصلح للوطن، دون الانسياق وراء العاطفة والهوى؛ ولهذا كثيرًا ما صوّتَ عبد العزيز الثنيان ضدّ عبدالعزيز الثنيان!

أتذكر ذات مرّة قدّم الزميل يوسف بن عبدالستار الميمني توصيةً في أثناء مناقشة تقرير وزارة الحج، ونصّها: (أن تسارع وزارة الداخلية باعتماد بصمة اليد الإلكترونية وبصمة العين عند دخول كافة القادمين للمملكة من زائرين وحجاج ومُعتمرين وقادمين للعمل وخدم المنازل والسائقين والترانزيت).

ولكن اللجنة عندما جاءت للمجلس ضمن التقرير في صورته النهائية لم تقبل تلك التوصية؛ ولهذا احتكم مقدّم التوصية واللجنة إلى المجلس ليقرر ما يراه، فعرض الزميل يوسف رأيه، وشرح وجهة

نظره، إلا أن اللجنة أبدت رأيها بأن هذا الأمر من اختصاص وزارة الداخلية. والإجراء النظامي أنه بعد سماع الرأيين، يطرح رئيس المجلس الموضوع للتصويت؛ هل يُفتح الموضوع للمناقشة أم لا يُفتح؟ وعلى ضوء النتيجة يتقرر نقاش الموضوع من عدمه.

وكنْتُ من المعارضين الذين يرون أن الموضوع من اختصاص وزارة الداخلية، ولا داعي للمناقشة، ولكن كانت نتيجة التصويت خلاف ما رأيْتُ؛ فقد صوّت (٦٣) بالموافقة على المناقشة، وعارضها (٤٧) منهم. وعلى ضوء هذه النتيجة، طرح الرئيس الموضوع للنقاش، وسمع خمسة مؤيدين للتوصية، وخمسة معارضين للتوصية.

وحين استمع المجلس للآراء طُلب من الأخ يوسف الميمني قراءة توصيته، وعند ذلك صوّت المجلس عليها بعد أن استمع إلى الآراء المؤيدة والمعارضة.

وحين استمعتُ للآراء عُدْتُ مؤيداً الأخ يوسف الميمني في التوصية، وخالفْتُ رأيي السابق، فقد أقنعتني المؤيدون للتوصية؛ ولهذا صوّتُ بنعم. وهكذا صوّت عبد العزيز الشيّان ضدّ عبد العزيز الشيّان، وحين أعلنت نتائج التصويت فازتِ التوصية؛ فقد أيّدها (٨٣)، وعارضها (٢٤).

إن هذه الحالة تحكي واقع المجلس، وهو أن المصلحة الوطنية هي أساس العمل، فلا حزبية ولا إقليمية ولا أهواء، إنما هو الوطن والمصلحة العامة، والعمل معاضدة لا معارضة. إنه نقاش رائع، تبيّنت من خلاله آراءً بّناء، حين تفتّحت العقول النيرة عن حجج منطقية، فتولّدت قناعاتٌ مسؤولة لدى كلّ فريق، في جوٍّ من الاحترام والتقدير، حتى إن الإنسان في بعض الأحيان يتحير مع ذاته بعد تلك المداولات ومقارعة الحجج؛ كيف يصوّت؟ ومع مَنْ يصوّت؟!

وفي النهاية يحسم التصويتُ الموقفَ، فيقرُّ المجلس ما ذهبَتْ إليه الأغلبية، لينتقل المجلس بعد ذلك إلى مناقشة أمرٍ آخر من أمور المجتمع... وهناك مواقف أخرى دوّنتها في كتابي (سنوات في مجلس الشورى)!



سياحة العقل

سألني حفيدي وقد جلس بجواري وسمعني أتحدث بالهاتف
عن سياحة العقل، فقال: وهل للعقل سياحة؟

قلت: نعم فالعقل ينمو بالعلم كما أن الجسم ينمو بالزاد، ويا
بُنَيَّ: احذر أن تهتم بنمو جسمك وتترك عقلك، فلئن نما جسمك
فقط كُنت كالحیوان، لقد أنعم الله على الإنسان بنعمة العقل، ولا بد
للعقل من غذاء، واسمع يا ولدي تجربتي: لقد صَحِبْتُ القراءة منذ
فُتُوتِي، ورافقتُ كُتُبَ العلماء مُبَكَّرًا، إِنَّ كُتُبَ أولئك العلماء مدارسُ
خالدةٍ ينهلُ منها الآخذون؛ فكم من عالم هو مدرسةٌ بذاته تتلمذَ
فيها الأجيال في كل العصور! لقد بقي أولئك العلماء يُدرِّسونَ الناسَ
وهم في قُبُورهم.

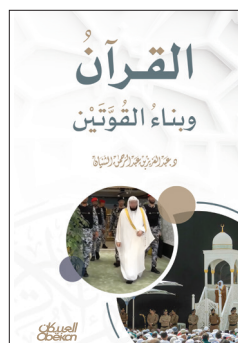
إن العلم نهرٌ عذبٌ غزيرٌ يَرُشِفُ منه الشاربون وفق رغباتهم،
وَكُتُبُ أولئك العلماء رَحْمَةُ اللَّهِ زادٌ فكري جذاب، وطبقٌ علمي مُتَعَدِّدُ
الفواكه. وهنيئًا لمن منحه الله حُبَّ القراءة، فهي سياحةٌ ممتعةٌ في
عقول العلماء.

وأحمدُ الله؛ أن كانت كتبُ الأوائِل مدرسةً استمرّت معي حتى اليوم، وأهمُّ فروع تلك المدرسة كتبُ التفسير، هذا العلم - وللأسف - تأخرتُ في الالتحاق به، ولو استقبلتُ من أمري ما استدبرت لكان تخصصي في القرآن وعلومه، والتفسير وعلمائه، لقد وجدتُ عند علماء التفسير فيضًا من الثراء المعرفي؛ وجدتُ اللغة، والفقه، والتاريخ، والحكم والأمثال، والأدب، والحديث، والقصة. ولقيتُ العقولَ النيرة، والاستنباطات الدقيقة التي تحكي كفاءة أولئك العلماء، وجلال قدرهم، وعظم مكانتهم العلمية؛ فتفسير الطبري، وتفسير القرطبي في عدة مجلدات، وكلُّ مجلدٍ من مئات الصفحات، وهناك تفسير الزمخشري، وابن كثير، وابن الجوزي، وابن القيم، والرازي، وابن عطية، وابن سعدي، وابن عاشور، والشعراوي، وابن عثيمين رحمهم الله، وغيرهم كثيرون. تلقى عند كلِّ عالمٍ ومضةً، وتجددُ عند كلِّ مفسِّرٍ إضاءةً.

إن كتبَ التفسير أوعيةٌ مُلئتُ علمًا، وإضباراتٌ حُشيتُ نورًا، وكان من نتيجة تلك المدرسة، وقراءتي الأدبية والتاريخية، أن وفَّقني الله، فكتبتُ حول التدبر القرآني في عدد من الآيات الكريمة، وصدر كتابي (جلسات تدبر) في جزأين، وآملُ أن تتبعه جلساتٌ أخرى.



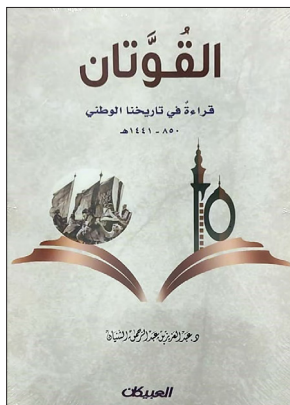
ومن المُدَارَسَةِ القرآنية أنهيت ثلاثة كتب: (القرآن وبناء القوتين)، و(القرآن والفحص الذاتي)، (والمعلم شيء).



وأكتب في كتاب جديد بعنوان كتاب (القرآن والمال)، وكتب أخرى ستخرج -إن شاء الله- تبعاً.

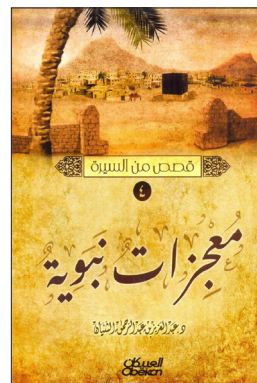
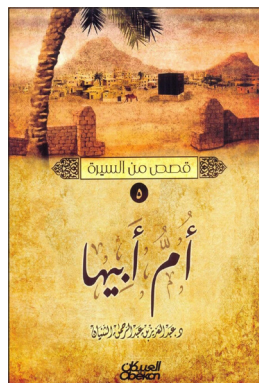
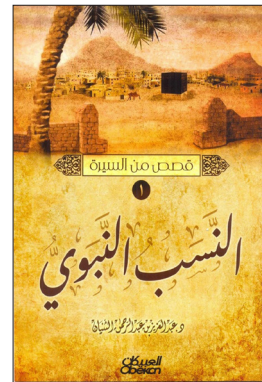
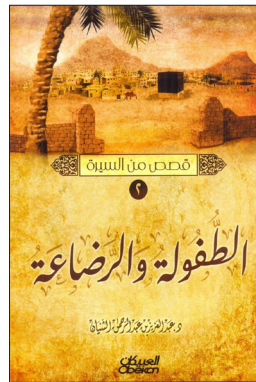
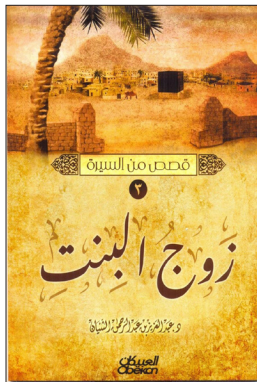
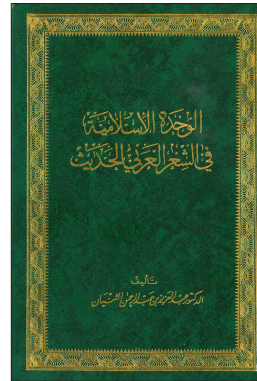
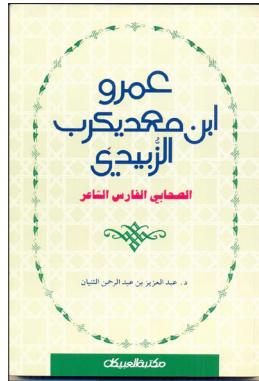
ومن مدارسي المتنوعة، وسياحتي العقلية؛ كُتِبَ التاريخ والتراجم، مثل البداية والنهاية، وتاريخ الطبري، وتاريخ ابن خلدون، وتاريخ ابن عساكر، وتاريخ بغداد، والطبقات الكبرى لابن سعد وغيرها. ومن كتب التراجم، وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب سير أعلام النبلاء للذهبي، والأعلام للزركلي، وغيرها.

وقرأتُ كثيرًا فيما كُتِبَ حول تاريخنا الوطني؛ الدولة السعودية في أطوارها الثلاثة؛ تاريخ ابن بشر، وابن غنّام، والفاخري، وما كتبه الزركلي، والريحاني، وحافظ وهبة، وفؤاد حمزة، وفلبي، والدكتور العثيمين، وغيرهم. وقد ساعدتني تلك القراءة في إصدار كُتُبِي الثلاثة: (بطولة ملك)، و(إنسانية ملك)، و(القوّتان).



وقرأتُ كثيرًا في السيرة النبوية، وفي كتب الأدب، وفي التربية، وصدر لي في هذا المجال عدة إصدارات منها: كتاب (الوحدة

الإسلامية في الشعر الحديث)، وكتاب (عمرو بن معد يكرب الزبيدي؛ حياته وشعره)، و(قصص من السيرة)، وفي التربية صدر لي: (بوح الذاكرة)، و(الكرسي) سبق الإشارة إليهما.



هذا، ولئن غلبتني المدرسة الأدبية واستهوتني كُتُبُها، فإنَّ أهمَّ التربوي أخذني للقراءة في كتب التربية، ومعرفة تجارب الآخرين، فقرأت عن تجربة اليابان التربوية، وكذلك تجربتي كوريا وسنغافورة التربوية، بل شدَّدتُ الرحال لزيارة تلك الدول لرؤية الواقع بعد القراءة. إنَّ تربية الأجيال مسؤولية وأمانة تستوجبُ على المسؤول أن يقرأ، وألا يكون جامدًا وتقليديًا، وعليه أن يستفيد من تجارب الآخرين، وأن يعرف قصَّة تطورهم.

وهذه المدرسة جعلتني أقرأ كتاب الرئيس السنغافوري لي كوان يو أكثر من مرة (قصَّة سنغافورة التحول من العالم الثالث إلى العالم الأول)، وكتاب الرئيس الكوري لي ميونج - باك (الطريق الوعر)، وموسوعة الرئيس الماليزي مهاتير محمد، وقرأتُ كُتُبًا تربوية قديمة وحديثة؛ ففي مقدمة ابن خلدون حديث عن التربية والتعليم، وفي كتب العلماء المتأخرين كثيرٌ من الأفكار، وإن كان التنظير يغلب على بعضها. وقرأتُ كتب الجاحظ، واستمتعتُ بما حواه كتابه (البيان والتبيين) من حِكمٍ وأمثال، وسُهولة أسلوب، وإشراق عبارة، ومهارة انتقاء. وأبحرت في كتابه (الحيوان)، وعجبتُ من غزارة علمه، وإحاطته وحفظه، واستمتعت برسائله، واستفدت مما رواه من آداب، وما أورده

من نصائح. يقول: «والنبيل لا يتنبّل، كما أن الفصيح لا يتفصّح؛ لأن النبيل يكفيه نبؤه عن التنبّل، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصّح. ولم يتزَيّد أحدٌ قطّ إلا لنقصٍ يجده في نفسه، ولا تطاول مُتطاولٍ إلا لو هُنّ قد أحسّ به في قوّته»^(١).

وحين بدأت حياتي العملية، وطرقت أبواب التجارة والرزق الحلال، استوقفني قول الجاحظ عن التجارة: «وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه، وصفيه من عباده، والمؤمن على وحيه، من أهل بيت التجارة، وهي معولهم، وعليها معتمدُهم، وهي صناعةُ سلفهم، وسيرةُ خلفهم، ولقد بلغتْك بسالتهم، ووُصِفْتُ لك جلادتهم، ونُعتتْ لك أحلامهم، وتقرّر لك سخاؤهم وضيافتهم، وبذلهم ومواساتهم. وبالتجارة كانوا يُعرَفون، ولذلك قالت كاهنة اليمن: (لله درّ الديار لقريش التجار). وليس قولهم: قرشيٌّ لقولهم: هاشميٌّ، وزهريٌّ، وتيميٌّ؛ لأنه لم يكن لهم أبٌ يُسمّى قريشاً فينسبون إليه، ولكنه اسمٌ أُشتقَّ لهم من التجارة والتقريش، فهو أفخمُ أسمائهم، وأشرفُ أنسابهم، وهو الاسم الذي نوّه الله تعالى به في كتابه، وخصّهم به في محكم وحيه وتنزيله، فجعله قرآناً عربياً يُتلى في المساجد، ويُكتبُ في المصاحف، ويُجهرُ به في الفرائض، وحظوة

(١) رسائل الجاحظ (٣-٤)، (ص ١٧٥).

على الحبيب والخالص، ولهم سوق عكاظ، وفيهم يقول أبو ذؤيب:

إِذَا ضَرَبُوا الْقِبَابَ عَلَى عُكَازٍ وَقَامَ الْبَيْعُ واجتمع الألوْفُ

وقد غبر النبي برهةً من دهره تاجرًا، وشخص فيه مسافرًا، وباع واشترى حاضرًا، والله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته. ولم يقسم الله مذهبًا رضيًا، ولا خلقًا زكيًا، ولا عملاً مرضيًا، إلا وحظُّه منه أوفر الحظوظ، وقسمه فيه أجزل الأقسام. ولشهرة أمره في البيع والشراء؛ قال المشركون: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فأوحى الله إليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] فأخبر أن الأنبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات...

هل كان في التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل؟ وقد كان تاجرًا يبيع ويشترى، وهو الذي يقول: ما قضى رسول الله وآله، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي - رضوان الله عليهم - قضاءً إلا وقد علمته. وكان أعبر الناس للرؤيا، وأعلمهم بأنساب قريش، وهو من كان يفتي أصحاب رسول الله ﷺ وهم متوافرون، وله بعد علمٌ بأخبار الجاهلية والإسلام، مع خشوعه وشدة اجتهاده وعبادته، وأمره بالمعروف، وجلالته في أعين الخلفاء، وتقدمه على الجبارين.

ومحمد بن سيرين في فقهه وورعه وطهارته، ومسلم بن يسار في علمه وعبادته، واشتغاله بطاعة ربّه.

وأيوب السخيتاني، ويونس بن عبيد في فضلها وورعهما^(١).

هذا، وقد أعجبني (أبو حيان التوحيدي) في كتبه، فبسطت ردائي في مجلسه الأدبي الغزير، وطالما سهرتُ مع كتبه، بخاصة كتابه النَّدي (الإمتاع والمؤانسة).

وتتلمذتُ على آخرين من أدباء العرب ومفكرهم كابن خلدون في مقدمته الشهيرة وتاريخه الشامل.

أمّا كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه فقد ظل رفيقي سنوات، ومنه أخذت أخبار الأدباء وحكمهم وأقوالهم. وكُنْتُ قد تتلمذتُ في مرحلة الفتوة على المنفلوطي في كتابه النظرات، وتقاطرت دموعي مع كتابه العبرات، وشدّني الزيّات في رسائله ذات الأسلوب الرقيق والعبارات الراقصة، والألفاظ العذبة. أما الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ فطالما سامرتني كتبه في إقامتي وأسفاري؛ إذ كان مدرسةً متنقّلة، ومدرسةً مسموعةً ومقروءةً، فكانت كتبه لا تُفارقني؛ قصصٌ من التاريخ، وحديثُ الذكريات، وكتابه عن بغداد حينما كان يعلم فيها،

(١) رسائل الجاحظ (٣-٤)، (ص ٢٥٥-٢٥٨).

والفاروق عمر، ومقالاته في مجلة الحديقة والرسالة، وهما مجلتان مصريتان قديمتان. وقد احتوت مجلة الرسالة على مقالاتٍ له متنوعة، لا تَمَلُّ من قراءتها، تتناول الواقع الأدبي في ذلك الوقت، وتعرض نماذج من الأدب الرفيع بأسلوبٍ قصصيٍّ أخاذ.

هذا، ولا أنسى الكتاب المدرسة (رجال حول الرسول) للشيخ خالد محمد خالد. وجلستُ كثيرًا عند الشيخ محمود شاكر (أبو فهر) رَحِمَهُ اللَّهُ، ونهلتُ من مدرسته، وأبحرت في كتبه، وقد مضغ في كتابه (أباطيل وأسهار) دُعاة التحرر والليبرالية، وسخرَ منهم، أما كتابه الذي نال به جائزة الملك فيصل العالمية (المتنبى) فهو كتاب ممتع، سهلٌ يكادُ قارئه يرقصُ طربًا لأسلوبه السهل المُمْتنع، وتلذُّدًا بعباراته العذبة، كيف وهو يتحدث عن ملك الشعر وسيده المتنبى:

بادِ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وبكاك إن لم يجرِ دمعك أو جرى

كم غرَّ صبرُك وابتسامُك صاحبًا لما رآه وفي الحشا ما لا يرى

لقد كان الشيخ محمود شاكر مدرسة في عِزة النفس والشموخ والإباء، وأحسبُ أن كتابه رَحِمَهُ اللَّهُ الذي نشره قبل وفاته بعنوان (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) من أهم كتبه، ومن أجمل ما قرأت!. لقد تتلمذتُ على يديه قبل نبلي شهادة الدكتوراه، لقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ مدرسة رصينة.

أذكر ذات مرة أنه زارنا في الوزارة الشيخ محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ حين حضوره لاستلام جائزة الملك فيصل في الأدب العربي عن كتابه (المتنبى)، وحين علمتُ بقدومه إلينا في الوزارة أنزلته منزلته؛ حيث استقبلته في بهو الوزارة، وصحبته إلى مكتبي، وأشعرته بمكانته العلمية. وبعد مغادرته في اليوم الثاني، جاءني الشخص الذي كان يتابع كتبه، وقال: كان الرجل في غاية السعادة والسرور، أشعرته وزارتك الموقرة بقدره ومقامه، وذكر أن أحد الوزراء أرسل إليه في الفندق الذي يسكن فيه سيارته ومدير مكتبه، وطلب إليه أن يزور ذلك الوزير في منزله فغضب، وزجر المندوب، وقال: العلم يُزار ولا يزور، ولست قردًا أذهب لأسلي معاليه. هي الإدارة تتنوع وتشكل وفق الأحداث.

إن القراءة مدرسةً متنقلةً، وسباحةً عقليةً متجددةً، وثروة معرفية لازمة، وكما الإنسان يلزمه للبقاء والنمو، أن يتناول الغذاء المادي، فتستقبله معدته، وتحوله إلى طاقة ينمو بها جسمه، وتبقى به حياته الجسدية، فذلك الإنسان بحاجة للغذاء العقلي؛ لينمو إدراكه، ويستنير عقله، ويرتفع به عن عالم المادة والحيوان.

ولأهمية الغذاء العقلي والزاد الفكري؛ عَدَدَ الله - سبحانه وتعالى - وسائل تلقّي مادته؛ إذ خلق للإنسان أذنين وعينين، وبهذه الوسائل

يتلقى العقل غذاءه العلمي وزاده الفكري، في حين أن غذاء الجسد له قناة واحدة هي الفم، ولكن -للأسف- كثير من الناس يعطلون القنوات الأربع الخاصة بالزاد العقلي.

وختامًا، أشكرُ الله؛ أن نِلْتُ من تلك المدارس نصيبي من المعرفة، وأحمدُه؛ أن كانت عادة القراءة التي تعلّمتها منذ الصغر من أهم المدارس التي ربّنتني، وكوّنت ثروتي المعرفية.



القَرَابَةُ والقُرْبَةُ

يُروى للخليفة العباسي المأمون مقولة: «لا نُزهة ألدُّ من النظر في عقول الرجال»^(١)، وتلك مدرسة رفاقِ العمر الأقرين الذين تختارهم ويختارونك.

يقول الجاحظ في رسائله: «واعلم أنك موسومٌ بسيما من قارنتَ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلٌ من صاحبَت. فتحرّز من دُخلاءِ السوء، وأظهر مُجانبَةَ أهلِ الرّيب، وقد جَرَت لك في ذلك الأمثال، وسُطّرت فيه الأقاويل، فقالوا: «المرءُ حيثُ يجعلُ نفسَه»، وقالوا: «يُظنُّ بالمرء ما يُظنُّ بقرينه». وقالوا: «المرءُ بشكّله»، و«المرءُ بأليفه». ولن تقدر أن تتحرّزَ من الناس، ولكن أقلّ المؤانسة إلا بأهل البراءة من كل دَنَس. واعلم أن المرءَ بقدر ما يسبقُ إليه يُعرَف، وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف. فإن كان بين ذلك كثيرٌ من أخلاقه ألغاه الناس، وحكموا عليه بالغالب من أمره. فاجهد أن يكون أغلبُ الأشياء على أفعالك كُلِّ ما يحمده العوامُ، ولا تدمّه الجماعات، فإن ذلك يُعَفِّي على كُلِّ خليلٍ إن

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٨٢).

كان. فبادر ألسنة الناس وأشغلها بمحاسنك، فإنهم إلى كل سيئٍ سراعٌ، واستظهر على من دونك بالتفضّل، وعلى نظائرك بالإنصاف، وعلى كلّ مَنْ فوقك بالإجلال، تأخذ بوثائق الأمور، وبأزمة التدبير»^(١).

إن هذا القول يؤكّد ما استقرت عليه حالتي مع رفاقي في مسيرة الحياة، فأنا موسومٌ بهم، موصوفٌ بمنهجهم، هم مدارس متنوعةٌ أتعلّم منهم، وهم تخصصاتٌ متعددة أستفيد منهم. إن المقاربة العمرية والمشاكلة الثقافية والعلمية تزيد التقارب، وإن الأخوة الإيمانية أقوى رابطة، وأخلد صلة، وأدوم مودة، تحاشيت ذكر الأسماء فرداً فرداً؛ فهم كثر، وقد أنسى أحدهم، فيقول الناقد «ليس في منسيٍّ خير». وقد يكون المنسي أعطر المدارس التي علّمتني، وأنفس الرجال الذين وجّهوني، ولهذا أستعرض تلك المجموعات من خلال منهج كل مجموعة.

إن المدرسة الأولى التي رافقتني منذ الفتوة هي (مدرسة ذوي القربى) من أبناء العم والخال؛ كانت لنا لقاءاتٌ مُمتعة، وجلساتٌ سمرٍ ضاحكة، ألفنا الصحراء وألفتنا، نتسابق إليها كلّ حين، ونحن نردّد مقولة الشنفرى الأزدي:

ولي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسَ وأرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعِرْفَاءُ جِيَالُ

(١) رسائل الجاحظ (٣-٤)، (ص ٧٨-٧٩).

هم الأهل لا مستودع السرِّ ذائعٌ لديهم، ولا الجاني بما جرَّ، يُخَذِّلُ

وكما الشنفري، أصبحت سباع الصحراء وطيورها أهلاً
وأصحاباً؛ عرفنا الأودية والفياض، وخبرنا الشَّيْحَ والنَّفْلَ،
والخزامى والعذْلُوق، نسترخي تحت شجرة، ونأكل في ظل
صخرة، ونحتسي الشاي فوق تلٍّ، ننام متأخرين، ونستيقظ
مُبكرين، كل واحدٍ منا أجاد الذبح والسلخ، وأجاد الرِّقَّ
والطبخ، نصبُ الخيمة في لحظات، ونطوي المتاع في ومضات.

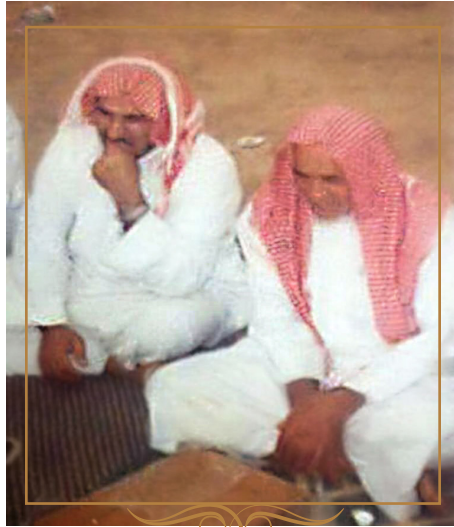
تعلمنا من الصحراء الخشونة والجسارة، وأخذنا عنها القوة
والفتوة، فكانت مدرسة رياضة، وتمريناً للأجسام، وصقلاً
للأذهان؛ مرّةً ترانا في عيون الخرج الجارية، وأخرى نسبح في
عيون الأفلاج الطافية، وثالثةً في فيافي الصمان والدهناء، ورابعةً
في جبل القارة بالأحساء، نتنقلُ في واحات اليمامة ومسارح نجد،
نُهيجن ونتغنّى بالشعر الفصيح والنبطي، نتصارع ونتسابق،
نترافس ونتراكض، كُلُُّّ وهوايته؛ مجموعةٌ تلقاهم يلعبون ورقة
البلوت، وأخرى يتقاذفون الكرة. وكم كان لنا في مجرى الخرج
المائي من سَمَرٍ ولعب؛ تغارقنا وأبعدنا بعثنا من كان بقربنا،
نتقاذف بلُّباب الحبيب، فيحسبنا مَنْ كان بقربنا سُفهاء، ونحن
نشد رحيله وبُعده. مرَّحُ شبابٍ، وعبث فتيان، وكما قال الشاعر

الصحابي عمرو بن معد يكرب الزبيدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

فيومًا ترانا في الخَزُوزِ نَجْرُها ويومًا ترانا في الحديدِ عوابِسا

ويومًا ترانا في الثَّرِيدِ نَبْسُها ويومًا ترانا نكسرُ الكعكِ يابِسا

وطالما شاركنا الوالد رَحِمَهُ اللهُ في أسفار تلك المدرسة. وها هو والدي رَحِمَهُ اللهُ يظهر في هذه الصورة البريَّة يتسِم وأخي ثنيان، أمامهم صندوق خشبيٌّ لأكواب الشاي والقهوة.



يتسِمَان ونحن نلعب الكرة، ونتصارع بمرح وفرح. هي الأبوة عندما تكون قريبة من البنوة تكون التريبة، ويكون التأثر والاقتداء. نرى الوالد رَحِمَهُ اللهُ يقوم آخر الليل يُصلي، وتلك رسالة حبيبٍ لأحبابه، ووصيةُ أبٍ صامته لأكباده. وحين تتداخل أحاديث السمر، ويقصُّ

الوالد ذكريات شبابه ومعاناته في طلب الرزق، نحمد الله أن حالة الوطن تتقدم للأحسن، وأن فضل الله يتنامى، وأن خيرهِ يتزايد.

وعلى الرغم من فارق السن بيننا وبين الوالد، فإنه كان قريباً من هذه المدرسة، بل هو مديرها؛ إذا صَحَبْنَا يدفعنا لِمُشَاكَسَةِ الترفيه، وإذا رافَقْنَا يندُبنا لِمُفَاكِهِة الحديث، لا أنسى ذات ليلة ونحن في وادي واشلة جنوب غرب مدينة الرياض، وقد بدأ أبناء العم حين مضى من الليل قرابة ثُلُثه، يتسللون لِوَادًا، فقال الوالد، وَكُنْتُ الْأَقْرَبَ إِلَيْهِ مُدَاعِبَةً: عبدالعزيز، قلت: لَبَّيْكَ. قال: هل تركنا البيت والفراش النظيف، لننام في هذه الخيمة، جئنا للنواسة، وسعة الصدر، فقمْتُ على الفور، وسحبتُ فراش هذا، ورميتُ الكبش على ذاك، وتحول ليلُنا ضحكًا ومرحًا. جمعنا الله بوالدي في الفردوس الأعلى، وجعله من عباده السابقين ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥-١٦].

وبعد أن مضى العمر، وَقَلَّتْ تلك الرحلات، صارت الذكريات سلوة، وكما قال أبو الطيب:

نَحْنُ أَذْرَى وَقَدْ سَأَلْنَا بِنَجْدٍ أَقْصِرْ طَرِيقُنَا أَمْ يَطْوُلْ
وَكَثِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ اشْتِيَاقُ وَكَثِيرٌ مِنْ رَدِّهِ تَعْلِيلُ

أي والله قسمي، ما أحلا ليالي نجد وسمرها! وما أبهى أمسياتنا

في فيافي الرياض والصُّمَّان! وكم شدونا وتغنينا بشعر الشاعر الأموي
عبدالله بن الدُّمينة وشعر الشاعر الصِّمَّة القشيري، وهما يترنَّمان بنجد
ولياليتها وصَبَّاهَا ونسيمها، كقول عبدالله بن الدُّمينة:

أَلَا يَا صَبَا نَجِدْ مَتَى هِجَّتْ مِنْ نَجْدٍ	لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدٍ
رعى الله من نجدٍ أناسًا أحبُّهم	فلو نقضوا عهدي حفظتُ لهم ودي
إِذَا هَتَفْتُ وَرَقَاءَ فِي رَوْقِ الضُّحَى	على غصنٍ بانٍ أو غصونٍ من الرِّندِ
بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ وَلَمْ تَكُنْ	جَلِيدًا وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تُبْدِي
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا	يَمَلُّ وَأَنَّ النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
إِذَا وَعَدْتُ زَادَ الْهَوَى بَانْتِظَارِهَا	وإنْ بَخَلْتُ بِالْوَعْدِ مَتَّى عَلَى الْوَعْدِ
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بَنَا	على أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ
على أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ	إِذَا كَانَ مِنْ تَهْوَاهُ لَيْسَ بِذِي وَدِّ
فَمِنْ حُبِّهَا أَحْبَبْتُ مَنْ لَا يُحِبُّنِي	وَصَانَعْتُ مَنْ قَدْ كُنْتُ أَبْعَدُهُ جَهْدِي

وطالما تغنى ابن العم عبدالعزيز بن عبدالله الشَّيْثَان رَحِمَهُ اللهُ بقول
الصِّمَّة القشيري، ونحن نُردِّد وراءه:

أَقُولُ لَصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَهْوِي بَنَا بَيْنَ الْمَنِيْفَةِ فَالضُّمَارِ

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ
 أَلَا يَا حَبْدًا نَفَحَاتُ نَجْدٍ وَرِيًّا رَوْضِهِ غِبِّ الْقِطَارِ
 وَأَهْلُكَ إِذْ يَحُلُّ الْحَيُّ نَجْدًا وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارٍ
 شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا بِأَنْصَافٍ لَهْنٍ وَلَا سَرَارِ
 فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ وَأَطْوَلُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

وثمة رفاق آخرون؛ إنهم رفاق القُرْبَةِ، وفرق بين القَرَابَةِ والقُرْبَةِ؛ يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رسالة له لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القَرَابَةُ لَحْمٌ وَدَمٌ، والقُرْبَةُ رُوحٌ وَنَفْسٌ»^(١).

وصدق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فكم من شخصٍ صارت بينك وبينه مُشَاكَلَةٌ عَقْلِيَّةٌ ومُقَارَبَةٌ رُوحِيَّةٌ، قَرَّبَتِ الْقُلُوبَ، وَمَزَجَتِ الْأَرْوَاحَ، فَصَفَتِ الْأَذْهَانَ، وَتَلَاقَتِ الْأَفْكَارَ، وَازْدَادَتِ الْمُدَّةُ وَالْأُلْفَةُ، يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»^(٢).

يقول الشاعر:

وَتَأْنَسُ النَّفْسُ فِي نَفْسٍ تُوَافِقُهَا بِالْفِكْرِ وَالطَّبْعِ وَالْغَايَاتِ وَالْقِيمِ

(١) المقابسات لأبي حيان التوحيدي (ص ٣٤)، نهاية الأرب في فنون الأدب (٧/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في باب الأرواح جنود مجندة (٤/ ١٣٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١ رقم ٢٦٣٨).

وأولئك القُرْبَة، مدارس متنوعة؛ إحداها (مدرسة العلم والفكر)، وتلك يزيد عمرها عن أربعين سنة، أعضاؤها زملاء دراسة وعمل، أغلبهم أساتذة في الجامعة. في هذه المدرسة أتعلّم من أحبّتها في كل لقاء درسًا، وأخذ منهم في كل جلسة فائدة، نلتقي كل أسبوعين، نشتاقل جلستهم، ونتحاشى الغياب عنهم. ولتلك الجلسات نظامٌ ملتزمون به، فلنا رئيسٌ ونائب، إنهم صُحْبَة زالت معهم مونة التكلّف، تبدأ الجلسة بدرسٍ لمدة نصف ساعة يختار موضوعه المتحدث، ويفاجئنا به يوم الجلسة، ثم نستمع للمداخلات والأسئلة من الجميع، وبعد ذلك يعود الحديث للدارس للرد والتعليق حول المداخلات، ونختم الدرس بتسمية الداعي والدارس للجلسة القادمة، ثم نتحرك لمائدة العشاء، وبعد ذلك جلسة مفتوحة، نبادل الشجن، ونتهادى الرأي.

إن أولئك الصُحْبَة يُثْرُونَ اللقاءات بموضوعاتهم المتنوعة؛ فتارةً يستعرض الدارس آيةً قرآنية، فترقّ قلوبنا، ونعودُ بأمسيةٍ من أمتع أمسيات تلك الليالي وأكثرها فائدة، كيف والجلسة مع مائدة القرآن! وأنعم بها من مائدة! لقد تعلّمتُ من تلك الجلسات القرآنية، مراجعة كتب التفسير؛ أستزيد من عبقتها، وألتقطُ من جواهرها، وتأتي ليلةٌ أخرى يُبحرُ بنا الدارسُ فيها الأستاذ في علم التاريخ؛ نستنطقُ أحداثه مع الحوار والنقاش، ونستذكرُ عبْرَه، ونزيد من ثرائنا المعرفي. وكم

شوقتني تلك الأمسيات لكتب التاريخ أقتنيها في مكتبتني الخاصة،
وأعود إليها كل حين.

وليلةٌ ثالثة نتسامر مع الأدب، ويعرض الدارسُ شيئاً من التراث، فنعجبُ من جمال اللغة، ونكاد نشمُّ ونلمسُ ونذوقُ ذلك الطبق الأدبي الشهّي، وأرجعُ لمكتبتني أبحثُ عن تلك الكتب الأدبية، وأسمرُ معها الساعات الطوال، وأتعلّم فيها ومنها، وأسبحُ مع تلك العقول بين الفينة والأخرى.

وليلةٌ أخرى نمحو شيئاً من أمّيتنا الاقتصادية والمالية، يتحدث إلينا أحد الدارسين في الشؤون الاقتصادية، ونعود بعدها نقرأ ذلك التقرير وتلك النشرة، ويفاجئنا دارسٌ آخر بوصف رحلةٍ قام بها لإحدى الدول للمشاركة في ندوةٍ علمية، أو في عملٍ خيري، فنستزيدُ خبرة، وتتجدّد معلوماتنا حول ذلك الموضوع. وغالباً ما يعرض الدارس ما هو في اختصاصه؛ فهذا في موضوعٍ شرعي، وذاك في البلاغة والبيان، والآخر في علم الاجتماع وشُجونه، والرابع في الاستشراق وويلاته. إن الزملاء يعرضون في دروسهم تلك أطباقاً فكريةً شهيةً، أعود بعدها محدّثاً نفسي عن ذاك الزميل، متمثلاً بقول المتنبي:

قَطَفَ الرَّجَالُ الْقَوْلَ وَقَتَ نَبَاتِهِ وَقَطَفَتِ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

وهناك مجموعةٌ ثالثة؛ هي (مدرسةُ الترويح العقلي والعمل الخيري) يقول الشاعر العباسي بشار بن بُرد:

ولا بُد من شكوى إلى ذي مروءة يُواسيك أو يُسليك أو يتوجع

بدأت هذه الصُحبة بِلقاء همٍّ وشَجَن، لقاء مُحاسبةٍ وتدبّرٍ في عددٍ من الآيات القرآنية: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وكان التساؤل ما العمل الدائم الذي يجب أن نعمله لآخرتنا ولو كان قليلاً، وكيف نفرط في التجارة الربّانية، والحثّ على الأعمال الصالحة وبشائرها الربّانية! فتكوّنتِ المجموعة وصارت لنا لقاءاتٍ وديّة بين الحين والآخر.

إن العمل الخيري مجالٌ رَحْب، وميدانٌ خصب، كم أتمنى على كل متقاعدٍ أن يلج بحاره، ويشرب من أنهاره، ويختم به حياته، فسوف يأنسُ ويستزيدُ من الأعمال الباقية ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

في تلك المدرسة صفوةٌ تتناجى معهم القلوب، وترتاح بهم النفوس، نتطارح وإياهم الرأي، ونُبشُّهم وإياهم الشجن فيدفعون بك لعمل الآخرة؛ فتارةً يرشدونك لمشروعٍ خيري تُسهم فيه، وتارةً يعرفونك بعملٍ نوعي تباركه. إن صُحبة الأخيار خيرٌ وفضيلة.

وهناك مجموعةٌ أخرى، هي (المدرسة الشورية) تشكّلت من عددٍ من أعضاء مجلس الشورى، تعارفوا في دوراتٍ متعاقبة، وتآلفت قلوبهم وتقاربت أفكارهم، فكانت دوريتهم مدرسةً تعلّمتُ منها احترام الرأي الآخر، وأهمية الوحدة الوطنية، وأن الوطن ثريُّ بالرجال، مليءٌ بالكفاءات، وصار لي بتلك المدرسة في كل منطقةٍ من مناطق المملكة بيتٌ صديقٍ أكادُ أشارك صاحبه في السكن والمعاش.

وهناك أصدقاء آخرون، تجمعني بهم لقاءاتٌ مُتناثرة، وجلسات فكر وندوات علم، شاركتُ في ثرائي المعرفي. إن تلك المجموعات التي أشارك فيها مدارسُ من أرجاء الوطن، ومن تخصصاتٍ علمية شاملة، فيهم؛ الشرعي، والطبيب، والعسكري، والتربوي، والاقتصادي، والسياسي، والقانوني. لقد وجدتُ كُلَّ فروع العلم في تلك العقول المتوهجة، وتلك المدارس المتوقّدة. وأحسن وصفٍ لأولئك الأصحاب هو ما يروى عن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز قال: «والله إني لأشتري المحادثة من عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بألف دينارٍ من بيت مال المسلمين، فقيل: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا مع تحرّيك وشدة تحفّظك وتنزّهك؟ فقال: أين يُذهبُ بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت

مال المسلمين بألوفٍ وألوفٍ دنانير، إن في المحادثة تلقيحًا للعقول وترويحًا للقلب، وتسريحًا للهم، وتنقيحًا للأدب»^(١).

وثمة أصدقاء ورفاقٍ عُمُرٍ تقاربت القلوب معهم، فصاروا سلوة الحياة وبهجتها؛ إن طالت غيبتني معهم زاروني، وإن غفلت عنهم هاتفوني، وإن طاب الجو رافقتهم في رحلة سمر، أسأل الله أن يجمعني وإياهم في الفردوس الأعلى.

وحقًا لقد وجدتُ عند أولئك الأصحاب ما وجدتهُ الخليفةُ الأموي سليمان بن عبد الملك حين قال: «قد ركبنا الفارَةَ، وتبَطَّنَّا الحَسَناء، ولبسنا اللينَ، وأكلنا الطيبَ حتى أجمناه»^(٢)، وما أنا اليوم إلى شيءٍ أحوجُّ مني إلى جليسٍ يضعُّ عني مؤونةَ التَّحَفُّظِ، ويُحدِّثني بما لا يَمُجُّه السَّمْعُ، وَيَطْرُبُ إليه القلبُ»^(٣).



(١) الإمتاع والمؤانسة (١-٣)، (ص ٢٦).

(٢) أجمناه: أي كرهناه ومللناه من المداومة عليه.

(٣) الإمتاع والمؤانسة (١-٣)، (ص ٢٧).

ذيب... والواسطة

كان ذلك في عام ١٣٨٣هـ، حين التحقْتُ بمعهد الرياض العلمي، وأنا ابن أربع عشرة سنة، كان المعهد يصرف لكل طالب مكافأة، قدرها آنذاك ٢٥٨ ريالاً شهرياً، كانت مبلغاً كبيراً في زمنٍ كانت فيه الريالات تُحسب كما تُعدّ اللآلئ، لكنني تأخرتُ في التسجيل، بسبب ترددي بين المدارس العادية والمعاهد العلمية، وحين التحقْتُ بالمعهد كان القبول قد اكتمل، فسُجِّلْتُ (مستمعاً) بلا مكافأة.

تقبلتُ الأمر برضاً، إلى أن وقع ما غير مجرى الحكاية، ففي أحد الأيام، رأيتُ زميلي في المقعد، ذيب بن فالح الودعاني الدوسري، يُخرج من جيبه مبلغاً من المال، يلمع في ضوء الصباح. سألته بدهشة الصغار: من أين لك هذا يا ذيب؟

ابتسم، وقال: هذا راتب المعهد! استلمته من المحاسب اليوم.

قلت له، وأنا أرمقه متعجباً: لكنك سُجِّلْتَ بعدنا! ضحك، وقال

ببراءة: صحيح. لكن أنا لي واسطة. صفاء الفتيان ونقاء القلوب. لا

يعرفون بعدُ ما تفعل الواسطة من فجوة بين الناس، وفي المساء، أخبرْتُ والدتي رَحِمَهَا اللَّهُ بما رأيْتُ، وقلْتُ لها بحماسة الفتى المظلوم: غداً سأُتأخَّر في العودة.

قالت: لماذا تتأخَّر، خيرًا إن شاء الله؟

قلت: سأذهب إلى الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، رئيس المعاهد العلمية، وأشتكي له بنفسِي الظلم، كيف يُصرف لزميلي ذيب مُكافأة، وأنا أُحرم؟!

ابتسمت الوالدة رِضا وإعجابًا بقرار ابنها، ودعت لي، وفي الغد، بعد انتهاء الدراسة، اتجهتُ إلى إدارة المعاهد في مبناها القديم، وسألتُ عن مكتب الشيخ عبداللطيف. ف قيل لي: إنه في الدور الثاني. صعدت ودخلتُ إلى مكتب السكرتارية، وكان هناك رجلٌ مهيب اسمه عبدالعزيز العيفان، سألني بنظرةٍ فاحصة: من تريد؟

قلت بثقةٍ طفولية: الشيخ عبداللطيف، أريد أن أشتكي عنده الظلم. نَظَرَ إِلَيَّ متعجبًا من جرأتي، ثم أذن لي بالدخول، دخلتُ على الشيخ، ووجدتُ المكتب مكتظًا بالمراجعين، فجلستُ في آخر الصف، أترقب دوري، وحين خلا المجلس اقتربتُ بخطواتٍ مترددة، وقلْتُ: السلام عليكم يا شيخ، جئتُ إليك أشتكي الظلم!

ابتسم الشيخ، ومسح على رأسي. أحسبه قد استصغرنى، وقال
برقة أبوية: من ظلمك يا بُني؟ وما اسمك؟

قلت: أنا عبدالعزيز الثنيان، طالب في الصف الأول بمعهد الرياض
العلمي، قبلوني مستمعاً بلا مكافأة، لكن زميلي ذيب الدوسري قبل
بعدي، وضرفت له مكافأة، وحين سألتُه قال: عندي واسطة، فهل يُعقل
ويجوز يا شيخ أن تُصرف المكافأة لمن له واسطة، ويُحرم من لا واسطة له؟
ضحك الشيخ حتى بان سروره، ثم نهض ممسكاً بيدي، وقال،
وهو يكرر كمن يستطعم الكلمة: ذيب له واسطة، ذيب له واسطة!؟

قلت بجديّة لا تعرف المجاملة: نعم يا شيخ، له واسطة!
ونزلتُ معه الدرج، وهو مُمسكٌ بيدي، ويردد مبتسماً: ذيب
له واسطة! وأنا أُجيبه: نعم، ذيب له واسطة. حتى ركب سيارته
وهو يضحك. ثم التفت إلى مدير مكتبه، قائلاً: يا العيفان، اسمع
شكوى الطالب عبدالعزيز، واكتبها لي، وسأراجعها بنفسي غداً، ثم
قال لي رَحِمَهُ اللهُ، وهو يَرَبُّتُ على كتفي: يا ولدي، لا أَرْضَى بالظلم،
وسننصفك إن شاء الله.

قلت له بخوفٍ صادق: أرجو ألا يكون إنصافي سبباً في حرمان
زميلي ذيب من مكافأته.

ابتسم الشيخ، وقال: لا يا ولدي. بل سنصرف لك مثله. أنت
الواسطة، أنت الواسطة!

وتحركت سيارة الشيخ، وغادرتنا.

لقد كان الشيخ عبداللطيف لطيفاً على اسمه، وقوراً له قدره
ومقامه. وصعدت مرة أخرى لمكتب الشيخ، وكتب مدير مكتبه
العيان مظلمتي، وقال: سوف أعرضه لفضيلة الشيخ غداً إن شاء
الله، وبعد أسبوعٍ فقط، صُرفت لي المكافأة، واستلمتُ مستحقات
الأشهر الماضية، كبقية زملائي في المعهد.

وكنْتُ أتمنى الحصول على صورة ذلك الخطاب الذي
بموجبه جرى الصرف في ذلك الوقت، ولكن شاء الله أنه بعد
نصف وخمسين عاماً وصلني ذلك الخطاب، فقد هاتفني وأنا
أدوّن هذه الذكريات أبو القاسم الدكتور محمد الفالح، جزاه الله
خيرًا، وحدثني أنه عندما كان مدرّساً في معهد الرياض العلمي،
وجد في أرشيف المعهد خطاباً باسمي، وصوّره وزودني بصورة
منه. وهذه صورة الشيخ عبداللطيف وصورة الخطاب:



الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ



إن هذا الخطاب المكتوب بإملاء وخط مدير مكتب الشيخ عبداللطيف، ما كُنْتُ أتوقع الحصول عليه، ولكنها إرادة الله جاءت به؛ ليسجلَ شهادته، كيف كُنّا في تلك المرحلة!

إنها الدنيا تمضي فيها الأعمار، وتبقى الذكريات، تفرقت بي وبذيب السُّبُل، فأنا واصلت طريقي في التعليم، حتى أصبحت من مسؤولي وزارة التعليم، وذيب التحق بالعسكرية، وتدرّج حتى صار عميداً في الأمن.

وذاث يوم بعد نيفٍ وثلاثين عاماً، وصلتني رسالةٌ خطية، أعرف صاحبها جيداً.

إنها من ذيب، زميل الفتوة، فتحتُها، فإذا هو يكتب لي يرجو (الواسطة) لصديقٍ يريد النقل!

توقفتُ لحظة، وابتسمتُ من أعماقي، كأن الزمان دار دورةً كاملة، وأعاد لي مشهد الفتى الذي قال يوماً: لي واسطة. مرفق صورة رسالته.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذيب بن قالح بن ذيب الودعاني التاريخ: ١٨ / ٤ / ١٤١٤ هـ

معالي الدكتور عبد العزيز التليان
وكيل وزارة المعارف
حبيبة واحداً

مدرس /
فريق كلية التربية جامعة بومام / الدمام
أنا فؤاد هبيب مدرس دين - بالجنوب - بيشة
وصيت أنه مرتبط بعائلته تقرباً لوالدي له واصر
ورغبته وعافيته ندعو للساعة م
الدكتور عبد العزيز
زميلكم منذ ١٨ عام وأثناء قاعد الدراسة بالمعهد العلمي
لجيت موافقتكم بنقله للوادي ومدرس للبريدانية
صيتاً به يراى يحاول المانع م ولكن
يحتاج لكم بالموافقة مع بومام

ذ ح ١٨
٤٧٦١٢١٥ مكتب

الرياض	السواقي	الطائف	جدة	خمير	سيارة	جواز
٢٢٦١٩٧٧	٧٨١ - ٢١٠	٧٧٢٨٩٧	٦٦٥٥٦٣ ٦٦١٣٧٨ ٦٦١٥٠٠٢	٢٢٤٥٠٠٨ ٢٦٤٢١٧٢	٥١٠٢٢٥٢	١٩٤٦٩٧٢

أعلاه صورة رسالة ذيب، وصلتني منه عام ١٤١٤ هـ

واليوم أكتب بخط هادي في مذكراتي:

زميل الفتوة أخي: ذيب هذه رسالتك، أثبتتها في سجل الذكريات،
لتشهد كيف مع الأيام تبدل مواقع الناس، فمرة عرفتني أنت
بالواسطة عام ١٣٨٣ هـ، ومرة كنت أنا واسطتك عام ١٤١٤ هـ،
وبين الموقفين نيف وثلاثين عامًا، تلك هي الدنيا.

في الفتوة كانت لنا قصة، وفي الرجولة مسؤولية، واليوم وكتابي

هذا قيد الصدور عام ١٤٤٧ هـ، تحضر المواقف بعد أربعة وستين عامًا، وقد تجاوزت أعمارنا السبعين نعودُ إلى تلك المشاهد، نرويها للأبناء والأحفاد والقُرَّاء، ففيها من العبرة ما يُبقي القلبَ غَضًّا على الرغم من كهولة الجسد.

وما الحياة إلا صفحات، نكتبها بين ابتسامة البدايات، وتأمل النهايات.

بداية ثروتي

تلك المكافأة التي كان زميلي ذيب سببًا في الحصول عليها كانت بداية ثروتي المالية، ففي آخر ذلك العام ١٣٨٣ هـ تُجمع لديّ مبلغ ألف وخمس مئة ريال، وكان هذا المبلغ في ذلك الوقت كبيرًا، ولا يمكن لمن هو في سنّي أن يملك مثل ذلك المبلغ. كانت العادات والتقاليد آنذاك أن أيّ رواتب أو أي مبلغ نحصلُ عليه يُسلّم لكبير العائلة، وهو صاحب القرار، إلا أنني لم أتعرض لتلك الحالة، لقد عشتُ الدلال عند أخوالي، ثم لدى والدي، فلم يطمع أخوالي رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تلك المبالغ، كانوا كبارًا، واشترتُ بتلك الريالات، قطعة أرض وكانت بداية عملي في العقار.

فحين كنتُ أعيش مع والدي رَحِمَهُمُ اللَّهُ عند أخوالي، كان الفضاء

الفاصل بين بلدة منفوحة والرياض فراغًا موحشًا؛ فالمزارع غرب جنوب منفوحة، أما الشمال فهو ذاك الفضاء الفسيح، وكان مملوكًا للأمير عبدالله ابن عبدالرحمن، وهو أخو الملك عبدالعزيز رَحِمَهُمُ اللَّهُ وفي تلك السنة جرى تخطيط ذاك الفراغ، وكان من المسوقين للمخطط جار الأخوال إبراهيم ابن شائق، وذات ليلة كان أخوالي ووالدي رَحِمَهُمُ اللَّهُ متَحَلِّقِينَ بعد صلاة المغرب على عاداتهم يتناولون القهوة، فأخبرتهم بالمبلغ الذي تحصلتُ عليه، فأشاروا عليَّ أن أشتري قطعة أرضٍ من أراضي الأمير، وكان المزداد ذلك الأسبوع، وفي اليوم التالي ذهبتُ للمزاد واشتريتُ ست مئة متر بألفٍ وخمس مئة ريال، سعر المتر ريالان ونصف. وبعد خمس سنوات، تجمع لدي ستة آلاف ريال أخرى، واشتريت في المخطط نفسه قطعةً أخرى مساحتها أربع مئة متر بسعر المتر خمسة عشر ريالًا، وتعلّمتُ منذ ذلك الوقت أن العقار أفضل وعاءٍ استثماري.

وفي عام ١٣٨٩هـ تزوجتُ، وزادت المصاريف، وتعذّر التوفير، وبعد أن تخرّجت وتعيّنت معلمًا براتبٍ قدره ألفٌ ومئتان وخمسون ريالًا، توفر لدي قليلٌ من المال، كُنْتُ أَسْكُنُ مع الوالد مَكْفِيًا بمصاريف البيت؛ ولهذا عملتُ على استثمار ما توفر لديّ من مال، فكُنْتُ في أثناء الإجازات أصحبُ أبناء العم في رحلات تجارية إلى

جدة نمتطي حافلات النقل القديمة، وهناك في جدة ننام في مقاهي طريق مكة لا نعرف الفنادق ولا الشقق المفروشة، ونسرع في اليوم الثاني نشترى سيارات جديدة ونقودها عائدین لبيعها في الرياض بمكسب خمس مئة ريال.

وكان الاستثمار العقاري حاضراً بالذهن؛ ولهذا بعد أربع سنوات من تخرجي في الجامعة، قرّرتُ العمل في الاستثمار العقاري بجانب عملي الحكومي، فطلبتُ من والدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** أَنْ يَكْفُلَنِي في قرضٍ أرغب باستثماره في العقار مع ما وفرته من رواتب، مع قيمة العقار الذي اشتريته يوم كُنت طالبةً وبقي في مُلكيتي، وتضاعفت قيمته عشر مرات، فرحب الوالد وشجّعني وكفلني، فأخذتُ القرض على أن أسدّده وفق المربحة الإسلامية، والحمد لله رزقني الله؛ إذ اشتريت أراضي صغيرة، وأخذتُ من الدولة قروضاً استثمارية، ففي عهد الملك خالد **رَحْمَةُ اللَّهِ** حدثت طفرةٌ عقارية، ونشاطٌ تجاري، عَمَرَتْ بنايات تجارية وبعثتها بمكاسب جزلة، ومن ذلك التاريخ تعلّمتُ أن التجارة بيعٌ وشراء، وربحٌ وخسارة، إلّا أنني بعد أن تقدّمتُ في الوظائف الحكومية، وصرتُ مسؤولاً في التعليم قلّ نشاطي التجاري المباشر، فقد أخذتُ الوظيفة القيادية وقتي كُلّه؛ ولذا كنتُ أتوقُّ للتقاعد المبكر لأمارس نشاطي الخاص، ويسّر الله أن تركتُ العمل الحكومي،

وتقاعدتُ قبل أن أبلغ الخمسين، ووجدتُ المتعة في العمل الخاص،
وتوزّع وقتي بين القراءة والكتابة، والنشاط في العمل الخيري المتعدي
المنفعة، مع النشاط التجاري العقاري، والاستثمار في التعليم الخاص.



الثَّيَّانُ أم العبيكان؟!

ذات يوم كُنْتُ وأخي فهد في احتفالٍ رسمي على شرف الأمير نايف ابن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ وقد سبقه في الحضور الملك سلمان -متع الله بالصحة والعافية- وبعد أن وصل الأمير نايف سلَّمْنَا عليه مع الحاضرين، وما إن ابتعدتُ وأخي فهد قليلاً، إلَّا ونادانا الملك سلمان، وأمسكني بيدٍ وأخي فهد بيده الأخرى، ومشى مُتَوَسِّطاً بيننا إلى الأمير نايف، وهو يتسم ويقول: يا وزير الداخلية هذان يلعبان على الحكومة؛ إن كانا مطلوبَيْنَ فهُما بعيدان؛ هذا عبدالعزيز الثَّيَّان، وذاك فهد العبيكان، وإن كانت المُطالبة لهما فهما أخوان.

مُنْذُ كُنْتُ طِفْلاً وأنا أُعَرِّفُ بعبدالعزيز الثَّيَّان، وما زالت شُهرتي بالثَّيَّان؛ إذ يُعَرِّفُ بَيْتُ والدي وبيوتُ أعمامي بآل ثَّيَّان. بدأتُ أسمع لقب العُبيكان في متجر والدي، وعلمتُ أن بطاقة أحوال الوالد مكتوب فيها اسم الوالد الرباعي؛ عبدالرحمن بن ثَّيَّان بن ثَّيَّان العُبيكان، وعَرَفْتُ من أبي أن والده سُمِّيَ على أبيه؛ إذ تُوفي أبوه وهو في بطن أمه. هي الأقدار، عاش والدي اليُثمَ، وكذلك كان أبوه من قبله يثيماً.

تسجلي في المدرسة بلقب الشيان وإخواني كذلك، وتلك كانت شُهرتنا جميعًا في مقاعد الدراسة، لكن حين بدأت وإخواني في استخراج بطاقات الهوية الوطنية، كانت التفرقة والتسمية المُختلفة، وذلك لأنني وأخي الكبير ثيان لم نُسَجَّل في هوية الوالد، وحين استخرجنا الهوية كان الاسم الرباعي عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن ثيان الشيان، أما بقية إخواني حين استخرجوا هوياتهم فثبتوا لقب الوالد العبيكان، ومن هنا كان الاختلاف.

دعوت ذات عامٍ صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن سلطان بن عبدالعزيز دعوةً خاصةً في بيتي، وحين حضر أبدى تعجبه وحيرته، وذكر أنه يعرفني بالثيان، ويعرف أخِي فهد بالعبيكان، وفي ذهنه أننا شخصان مختلفان، ومن أسرتين متباعدين، ولكنه علم بأخوتنا من والده الأمير سلطان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول الأمير خالد: كُنْتُ مع الوالد قبل مجيئي إليكم، وحين أخبرته بهذه الدعوة قال: سلّم لي على عبدالعزيز وأخيه فهد العبيكان، يقول الأمير خالد: استغربت، وقلت للوالد: هل هما أخوان من الأم؟ فردّ عليّ الوالد: بل أخوتهم من الأب. إنه كثيرًا ما يظن البعض أن أخوتنا من الأم، في حين أننا من أمّين مُختلفتين، والدتي هي سارة السيف، ووالدة أخي فهد هي دلال

الشويش رَحِمَهُمُ اللَّهُ فنحن إخوة لعلات، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأنبياء: «إِنَّا معاشِرَ الأنبياءِ ديننا واحدٌ، والأنبياءُ أخوةٌ لعلاتٍ»^(١).

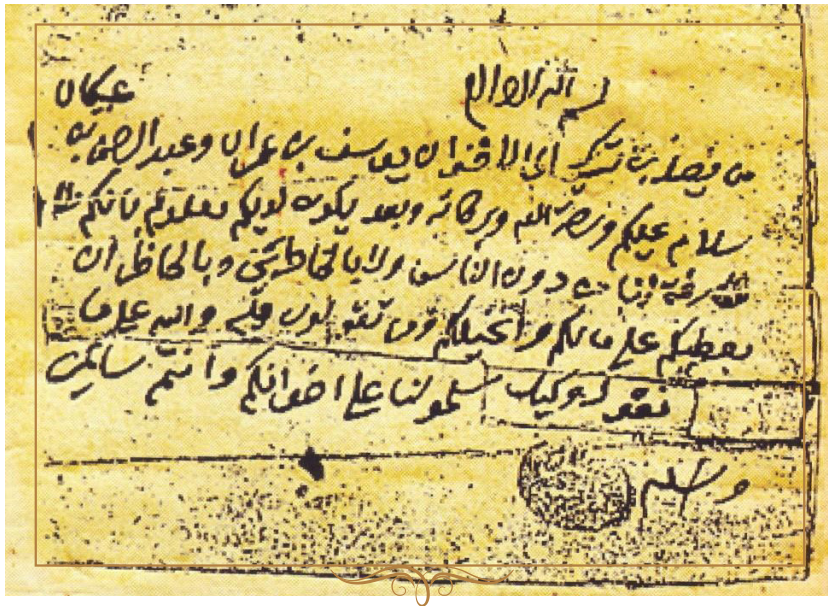
في اللغة العربية تسمياتٌ مختلفةٌ للإخوة؛ فالإخوة من أبٍ وأمٍّ واحدة، يُسمَّون: الإخوة الأعيان، والإخوة من أمهات شتى، يُسمَّون: إخوة علات، والإخوة من آباء شتى، يُسمَّون: إخوة الأخياف.

وبمناسبة الحديث عن الثيان والعبيكان، فإن أصل أُسرتنا من آل عمران من بني حنيفة، ذكر ابن فضل الله أحمد بن يحيى العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ: «أن من ديار آل يزيد من بني حنيفة صياح. وآل عمران، هم أكثر مَلاك مزارع صياح، يتوارثونها جيلاً بعد جيل، ويُحافظون عليها، ويعتزُّون بمُلكيتها»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٧ رقم ٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧ رقم ٢٣٦٥). والتسمية بالعلات أخذاً من تعلَّل الرجل بعدة فتيات، ومنه علَّه بعد نهلٍ وعلَّه يعلِّه إذا سقاه السقية الثانية. جاء في تهذيب اللغة للأزهري، (١/ ١٠٥): بنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى. عن الأصمعي: تعلَّلتُ بالمرأة تعلُّلاً؛ أي لهوتُ بها، ويُقال: علَّلنا فلاناً بأغنية: إذا غناهم بأغنية بعد أخرى. وقال أبو عمر: العليلة: المرأة المطيَّبة طيباً بعد طيب، قال: ومنه قول امرئ القيس: فَقُلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ وَلَا تُبْعِدِينِي مِنْ جَنَّاكِ الْمُعَلَّلِ أي الطَّيِّب مرةً بعد أخرى.

(٢) كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأنصار لأحمد بن يحيى العمري (ص ١٤٩-١٥١).

ولدى الأهل رسالة من الإمام فيصل بن تركي يعود تاريخها لعام ١٢٥٩ هـ، يقول فيها: «من فيصل بن تركي إلى الأخوان يوسف بن عمران، وعبدالرحمن ابن عبيكان، سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، وبعد.. يكون لديكم معلومٌ بأنكم طارفةٌ لنا من دون الناس، ولا بالخاطر شيء، وبالحاضر أنا معطيكم على ما لكم، ونخيلكم ومن تقولون عليه، والله على ما نقوله وكيل. سلّموا لنا على إخوانكم وأنتم سالمين، والسلام، فيصل بن تركي». ومرفق صورة تلك الرسالة.



قال ابن بطوطة حين زار الرياض عام ٧٣٢هـ: «إن أغلب أهالي الرياض من بني حنيفة»^(١).

وإذن، كيف جاء اسم العبيكان والثنيان، والأصل العمران؟

أما اسم العبيكان فهو لقبٌ للجدِّ محمد بن صالح العمران، كان مُزارعًا يعمل في حَقْلِهِ في صياح، وذات مرة تعارك مع آخر في مزرعته تلك، وكان رَحِمَهُ اللهُ كما يقول الرواة: صحيحُ البنية، قوي العضلات، مفتول الساعدين، فصرعَ خَصْمَهُ، وعلاه ركلاً وصفعاً، فهرع إليه من حوله، وقالوا له: ترفق، لقد قتلت الرجل، قال: دعوني أعِيكُهُ؛ أي أهرسه وأطحنه. فلُقِّبَ بعبيكان، وصار أولاده وأحفاده يُدعون بأبناء عبيكان وثبتَ اللقب.

ومضت السنوات وتزوج حفيده عبدالرحمن بن محمد بن محمد العبيكان بالسيدة لطيفة بنت ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان آل سعود، المشار لوصيتها في صفحة سابقة^(٢)، وأنجبت له ولدين؛ سَمَّى أحدهما باسم والد زوجته ثنيان، فصار أبناؤه وأحفاده يُدعون بأبناء ثنيان، وبدأ لقب ثنيان، أخذًا من اسم الأخوال ثنيان آل سعود.

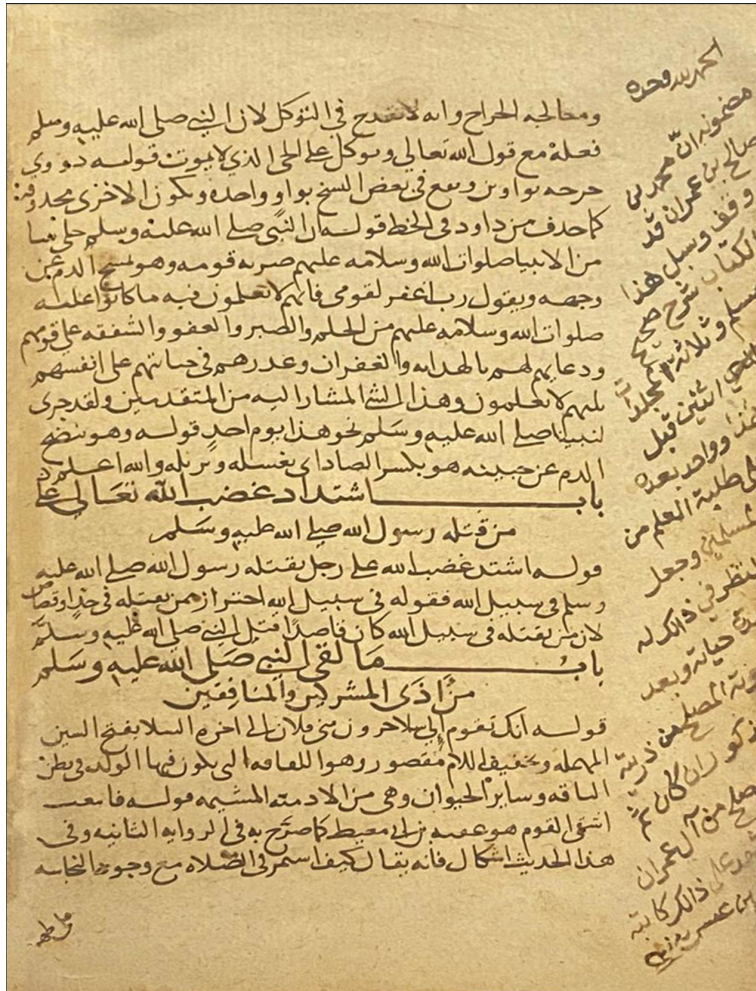
(١) رحلة ابن بطوطة (ص ٢٨٠).

(٢) انظر صفحة (٩٣).

وبهذا تتضح قصة التسمية بالعيكان، والتسمية بالثنيان وتفرعها من أسرة العمران.

ومن التبع التاريخي فإن أسرة آل عمران توزعت إلى خمس أسر، هي (آل عمران، آل عبيكان، آل عبدالقادر، آل ثنيان، آل راشد). وقد حافظت هذه الأسر الخمس على التواصل والترابط فيما بينها على الرغم من التباعد الناشئ من التوالد وتعدد الأسماء.

هذا وبتتبع تاريخ الوصايا، وما ورد في ثنایا الكتب التاريخية نعلم تاريخ أسرتنا؛ فالجُدُّ محمد بن صالح العمران الملقَّب (بعبيكان) عاصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وَجَدْنَا له كتاب (صحيح مسلم) قد أوقفه وَكَتَبَ بداخله النص التالي: «الحمد لله وحده، مضمونه أَنَّ محمد بن صالح بن عمران قد وَقَّفَ وسبَّلَ هذا الكتاب شرح صحيح مسلم وثلاثة مجلدات اثنين قبل هذا وواحد بعده على طلبة العلم من المسلمين وجعل النظر في ذلك له مدة حياته وبعد موته المصلح من ذريته الذكور إن كان، ثُمَّ المصلح من آل عمران. شهد على ذلك حمد بن عيسى».



وهكذا فنحن آل العبيكان منذ القدم ونحن مع الكتاب والعلم والثقافة.

وجاء في الدرر السنية أن ابنه عثمان العبيكان درس على الشيخ محمد ابن عبدالوهاب، وذكر ابن بشر في تاريخه أن حفيده عبدالرحمن العبيكان تولى إمارة وادي الدواسر عام ١٢٥٧هـ في مرحلة حكم

عبدالله بن ثنيان آل سعود، وذكر ابن غنّام في تاريخه (١١ / ٢) وكذلك ابن بشر، أنه في الصراع بين الرياض والدرعية، قُتل عام ١١٦١ هـ موسى بن عبدالقادر، وهو ابن صالح بن عمران، قُتل في صياح، وصياح مزارع ومساكن أسرة آل عمران، ونشأ فرع آل عبدالقادر العمران. وكذلك صار الانقسام الرابع بتسمية راشد العمران الذي تولى ابنه صالح بن راشد العمران مالية الإمام فيصل بن تركي المتوفى عام ١٢٨٢ هـ، فصار لقب (الراشد العمران).

إن هذه الحقائق التاريخية تؤكد ارتباط أُسرتنا الأولى؛ أسرة آل عمران بصياح قبل انقسامها إلى مجموعة أُسر، فوادي حنيفة والمزارع التي على ضفافه تاريخها قديم تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل. وقد اخترق طريق الملك فهد مزرعة الأهل وابتلعها كاملة؛ ولذا تعذر تصوير تلك المراحل.



مَعْرِفَةُ الْمَلِكِ!

قبل نِيْفٍ وأربعين سنة عرفني الملك سلمان - حفظه الله ورعاه - وتعرفت عليه، ففي اليوم التالي لمناقشة رسالتي للدكتوراه عام ١٤٠١ / ٨ / ٧ هـ، وبينما كنتُ في مكثبي بوزارة التعليم قبل أن أكون مسؤولاً، وردني اتصالٌ هاتفِي من الأخ حمد الدعيج؛ مدير عام مكتب معالي وزير الزراعة والمياه الدكتور عبدالرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ذلك الوقت، وهنَّأني بالدرجة العلمية، وذكر أنه كان من بين الحاضرين جلسة المناقشة، وأنه بلَّغَ وزيره خبرَ مُناقشتي وحصولي على الدرجة العلمية، وأن لديهم في الوزارة حفل افتتاح اكتمال مشروع المياه المُحلَّاة على شرف الملك خالد رَحِمَهُ اللهُ، ويقترح الوزير أن أُلقي كلمة أهالي الرياض في الحفل، فرحبتُ وشكرتُ ثقتهم.

ومن مكان الحفل بطريق خريص شرق الرياض عرفني وعرفتُ خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز - حفظه الله - إذ أتذكرُ أنه في عصرية يوم الحفل السبت ١٨ شعبان ١٤٠١ هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٩٨١ م كان اللقاء الأول بالملك سلمان، فقد حضر لموقع

الحفل - رعاه الله - قبل وصول الموكب الملكي، وعلم أنني سألقي كلمة الأهالي، واستدعاني، فسلمت عليه، وعرفته بشخصيتي، وسألني عن عمي عبدالله رَحِمَهُ اللَّهُ؛ كان يعرفه جيّدًا، قال لي في ذلك اليوم الذي عرّفني فيه: هل يقرب منك عبدالله الشيان وكيل الوالدة حصّة السديرية، المتوّقي من عشر سنوات؟ قلت: نعم هو عمي. فأثنى عليه وقال: ذاك عدو الغنم. (كناية عن كرمه رَحِمَهُ اللَّهُ).

وكان للعمّ عبدالله قصة طريفة مع الملك فهد وإخوانه الأمراء: سلطان، وتركي، وعبدالرحمن، ونايف رَحِمَهُمُ اللَّهُ والملك سلمان - حفظه الله - والأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن أخوهم من الأم، والأمير سعد بن خالد بن محمد رَحِمَهُمُ اللَّهُ روى لي هذه القصة بالتفصيل ابنه محمد بن عبدالله؛ حيث كان طرفًا في ذاك المشهد، وأخي ثيان كان من حضور تلك المناسبة.

يقول ابن العم: استضاف والدي هؤلاء الأمراء، أواخر عهد الملك سعود، في نخلنا بصياح؛ حيث كان سكنا هناك، وكلفني الوالد أن أتولى مسؤولية طبخ الذبائح، عند الطباخ العجّراء الذي يقع مطبخه في طريق الأمير تركي بن عبدالله المسمّى شارع الشمسي الجديد، وأوصلت الذبائح للمطبخ في اليوم السابق، وبلغت الطباخ بالموعد. وفي اليوم المحدد، وقبل وصول الأمراء بعد الظهر، أمرني أبي

بالإسراع وإحضار الذبائح والأرز، وتسابق النساء في البيت يُجهزْنَ القرصانَ والجريشَ والمرقوقَ، وتوزَّعنا عمِّي عبدالرحمن (يقصد والدي وبقية إخواني) كُلُّ يعرفُ مُهِمَّتَهُ في الترحيب وخدمة الضيوف الكبار. وتفاجأتُ حين وصلت للطباخ؛ وإذ به لم يذبح الذبائح يَحْسَبُ أن الموعد في الليل عَشَاء، بينما الموعدُ غداء بعد صلاة الظهر. يقول ابن العم: وكدتُ أبكي تلك اللحظة؛ فالشيوخ في الطريق إلى المزرعة أو هم وصلوا، وماذا أفعل؟ ولكن الطباخ العجاء أسرع على الفور، وفي لحظةٍ جندَل الذبائح، وتقافز عُماله وأشعلوا المواقد، ووعدوني أنها ساعة وأتسلَّم الطعام جاهزًا، وعُدْتُ للمزرعة خَجَلًا أتمنى تأخُّرُ وُصول الضيوف، وما إن أقبلتُ إلا وأرى السيارات مُصطفَّة، فالأُمراءُ قد وصلوا، ويتلقَّاني عمِّي عبدالرحمن (والدُك) بعد أن نزلتُ من السيارة، ويقول: أين الذبائح؟ أين الأكل؟ وأخبرته الخبر، فردَّد: لا حول ولا قُوَّة إلا بالله. أمَّا والدي فكان عند الأُمراء يتحدث وإياهم، وهم معه مستغرقون في أحاديث المُؤانسة والمُداعبة، ونحن نُفكر كيف نُخبر أبي، ثم كيف سيتصرف؟ وهل يُخبرُ الأُمراء؟ وهم أهمُّ الضيوف وأغلاهم، هم عِليَّة القوم، وقادة الوطن. ربَّاه يسِّر وأعِن!

وأخذنا نتأخَّر ونتراخى في تقديم القهوة والشاي، وشعُر والدي بتباطئنا، فخرج لِيُعَاتِب ويلوم، وأخبرناه بغلطة الطباخ، فقال: بعد

هَنِيْهَةً وَزَعُوا أَمَامَ الضُّيُوفِ صُحُونِ الرُّطْبِ، وَفَاجَأُوهُمْ بِالزَّبْدِ
وَاللَّبَنِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ سَوْفَ أُخْبِرُهُمْ بِالتَّأخِيرِ، وَأَعْتَذَرُ مِنْهُمْ!

يقول ابن العم: وما أن بدأنا في توزيع أوعية الرطب والزبد،
إِلَّا وَقَامَ الْمَلِكُ فَهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَفَعَ عِقَالَهُ وَنَزَعَ غُتْرَتَهُ، وَنَظَرَ لِأَرْكَانِ
الْمَجْلِسِ، وَوَقَّفَ وَعَلَّقَ الْغُتْرَةَ وَالْعِقَالَ (كَانَ ذَكِيًّا لِمَسَاحَا فُطْنًا)، وَتَبَسَّمَ
وَقَالَ: يَظْهَرُ أَنَّ غَدَاءَ (أَبُو ثَنِيَّانَ) سَوْفَ يَتَأَخَّرُ! لَكِنْ لَا تَقْلِقْ يَا أَخَ
عَبْدَ اللَّهِ، نَحْنُ مَرْتَا حُونَ، سَنَبْقَى وَلَوْ إِلَى مَا بَعْدَ أَذَانِ الْمَغْرَبِ، وَتَهْلِلُ
وَجْهَ الْعَمِ عَبْدِ اللَّهِ، وَانْطَلَقَتْ أَسَارِيرُهُ، وَأَخْبَرَ الْأُمَرَاءَ بِفَهْمِ الطَّبَاحِ
الْخَاطِئِ، وَأَنَّهَا سَاعَةٌ وَيَحْضُرُ الْأَكْلُ، وَتَحَسَّرَ أَمَامَهُمْ عَلَى زَمَانِ شَبَابِهِ
يَوْمَ كَانَ الطَّبْخُ فِي الْبُيُوتِ، وَعَنْ تَسَاعُدِ الْأَقَارِبِ وَالْجِيرَانِ فِي إِعْدَادِ
مَوَائِدِ الْمُنَاسَبَاتِ الْمُهَمَّةِ. أَيْنَ هُوَ يَرَى الْيَوْمَ، وَكَيْفَ تَيْسَّرَتِ الْأُمُورُ؟
وَلِلَّهِ الشُّكْرُ وَالْمِنَّةُ.

هَذَا، وَبَعْدَ أَنْ صَلَّوْا الْعَصْرَ، وَإِذْ بِالْمَائِدَةِ قَدْ اكْتَمَلَتْ
وَتَنَاوَلُوا غَدَاءَهُمْ بِمَرَحٍ وَمُتْعَةٍ، وَغَادَرُوا قُبَيْلَ أَذَانِ الْمَغْرَبِ،
لَكِنْ بَقِيَ هَذَا الْمَوْقِفُ الصَّعْبُ حَاضِرًا، وَتَعَلَّمْنَا مِنْهُ دُرُوسًا؛
إِذَا كَانَ لَدَيْنَا ضُيُوفٌ تَوَاصَيْنَا بِالتَّذْكِيرِ وَالتَّأْكِيدِ الْمُتَكَرِّرِ وَالْمُبَكَّرِ؛
كَيْ لَا نُلْدَغَ مَرَّةً أُخْرَى. إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تَحْكِي السَّمَاحَةَ
وَالْتَوَاصِلَ بَيْنَ الْحُكَّامِ وَوُجْهَاءِ الْمَجْتَمَعِ.

وبعد أن تعيّنتُ مُديرًا للتعليم الرياض أوائل عام ١٤٠٢ هـ صارت لي مع الملك سلمان لقاءاتٌ، وقد أشرتُ لبعضُ مواقفٍ معه في كتابي (بوح الذاكرة) الذي سبق أن صدر.

هذا، وقد شرّفني بزيارته -رعاه الله- لبيتي أكثر من مرّة، فكان يتبسّطُ في الحديث ويقربُ من القلوب -رفعه الله دنيا وآخره، ويلتزم بالحضور في الموعد الذي يحدده، أذكر أنه تأخر ذات مرة قرابة عشر دقائق، فقال عند باب البيت: سامحونا تأخرنا عليكم!

والملكُ سلمان -حرسه الله بعينه التي لا تنام- قارئٌ يتواصلُ مع الكتاب والمؤلفين، فحين صدرَ كتابي (إنسانية ملك) قرأه بعناية ودقّة، ثمّ استدعاني إلى مكتبه صبيحة يوم الأحد ٢٧ / ٥ / ١٤٣٢ هـ، واستعرضَ معي عددًا من صفحاته، وأتذكر وهو يُناقِشني في تلك الجلسة، أنه استحضَرَ موقفًا مرّ أمام ناظريه فأطرق لحظات، ودَمَعَتْ عيناه، وقال: تلك أيامٌ خلّت رحم الله الوالد والوالدة، وترحّمتُ معه على الراحلين، وتلهّفتُ لسماع ما أبكاه، وقال: في ذلك الأسبوع الذي توفي فيه الوالد كان مقرّرًا أن أتزوج بأم فهد، ولكن حين اشتدَّ المرض على الوالد رأيتُ تأجيلَ الزواج، وكان الوالد يصحو ويغيب، وذات مرّة فتح عينيه ورأى والدتي بجواره، فسألها: لماذا لم تذهبي لحفلة زواج الابن سلمان؟ فقالت له الوالدة: إن الابن سلمان

أَجَّلَ الزواجَ وامتنع عن إقامة حفلته إلى ما بعد شفائك ألبسك
الله الصحة والعافية. تقول الوالدة: وأطرق الملك وتمتم بالدعاء،
وفهمت منه قوله داعياً: الله يبارك في سلمان، الله يبارك في سلمان،
وصارت أُمِّي تَوَمِّنُ عَلَى دُعَائِهِ. ثم روى بعض المواقف الأخرى،
ونَصَحَ بإعادة طباعة الكتاب وإضافة ما استجدَّ لديَّ من معلومات
أخرى، وعرض أن تقوم دارة الملك عبدالعزيز بذلك، وهاتفَ أمين
الدارة معالي الدكتور فهد السماري ووجهه بالتنفيذ، وقد سرَّرتني
تلك التزكية وذاك التكليف.



لقد كان وما يزال -حفظه الله- كبيراً في أخلاقه، عظيماً في
تعامله، ذاكرته وقَّادة، يستحضر المواقف، يحترم الرأي الرزين،
ويُكَبِّرُ النُّصْحَ الرشيد.

حين صارت كارثةُ الكويت، وجاءتنا في الرياض صواريخ صدام حسين من العراق عام ١٤١١ هـ، التفَّ الناسُ حولَ قيادتهم، فتطوعوا في ميادين التدريب، وبات المجتمع في تباينٍ في الرأي، واختلافٍ في وجهات النظر، حول التعامل مع الحدث، وحسَّ الملك فهد رَحِمَهُ اللهُ الأمرَ بالقرار التاريخي، وهو الاستعانة بالقوات الصديقة؛ لكفِّ شرِّ الطاغية صدام، وإخراجه من الكويت. وأذكر أنه تابعتُ علينا الصواريخُ في الرياض، وطالما صَوَّتَتْ صافراتُ الإنذار، وخرج الناس لمزارعهم، ويَمَمُّوا قراهم البعيدة عن الرياض العاصمة!

ذكرياتُ حزينة، وأسابيعُ ثقيلة، ما أن يُطلَّ المذيع سليمان العيسى رَحِمَهُ اللهُ عبر شاشات التلفزيون؛ ليعلن التحذير من صاروخٍ قادمٍ، حتى يترأض سكان البيوت يختبئون تحت الدرج، وفي الأقبية الأرضية لمن عندهم الملاجئ، وكُنْتُ ذلك الوقت لا زلتُ مديراً للتعليم الرياض، وقد نقلتُ عائلتي إلى مزرعتي التي تبعد مئة كيلو متر غرب الرياض.

كنت بعد صلاة الفجر أتحرَّك من المزرعة إلى المكتب، ونتردَّد على إمارة الرياض، وكان الملك سلمان ذلك الوقت أميراً للرياض، ويستقبل الناس في منزله وفي الإمارة كل الأوقات؛ صباحاً ومساءً. فتشجَّع الزوّار، وصاروا يكتبون المقترحات والآراء ويقدمونها للأمير.

و ذات يوم، وردني اتصالٌ هاتفي من وكيل الإمارة عبدالله البليهد ذلك الوقت بلّغني برغبة الأمير اللقاء به صباح غد الساعة العاشرة صباحاً، وحضرتُ في الوقت المحدد، وإذ بمعالي رئيس مجلس الشوري الحالي الدكتور عبدالله آل الشيخ حاضراً، وكان ذلك الوقت أستاذاً في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ومعالي الدكتور علي المرشد رئيس تعليم البنات، والدكتور عبدالله الحمدان عميد شؤون الطلاب في جامعة الملك سعود، والأستاذ محمد بن سلمة رَحِمَهُ اللهُ مدير عام الأوقاف والمساجد بالرياض.

و حين تكامل الحضور، دخلنا على الأمير، وبعد السلام والجلوس، بلّغنا أن هذا الحدث الكبير دفع بالناس لزيارته في مجالسه بالإمارة والبيت، وقدّموا له عدداً من المقترحات، وأنه اختارنا لكي نقرأ تلك المقترحات التي قدّمت له! ونكتب له رأينا فيما قدّم، وقال ما نصّه: أنتم باردة أعصابكم، اقرؤوا ما هو مكتوب وتأملوه، ولخصّوا تلك الآراء وأعطوني رأيكم.

فرحبنا بالمهمّة، ووعدناه بتنفيذ رغبته وودّعناه، واتجهنا لمكتب مدير عام الشؤون الأمنية في الإمارة الأستاذ عبدالله بن سعيد، وهناك وجدنا مئات الخطابات مجموعة في كراتين وأكياس وملفات، وبدأنا نقرأ، وصلينا الظهر، ثم عدنا للقراءة مرّة أخرى، وتناقشنا حول آلية العمل، فطرحنا عدّة آراء؛ وكان الرأي الأول: أن نحضر للإمارة

يومياً، ونقرأ جميع الأوراق قراءة جماعية، ونتداول الرأي حول كل ورقة، ولكن عدلنا عن هذا الرأي؛ فالأوراق كثيرة، والقراءة الجماعية يلزمها حضورنا معاً، ومن ثم سيطول الوقت، فعدّلنا عن هذا الرأي.

وانتقلنا للرأي الثاني: أن نتقاسم الكراتين والملفات، وكل واحد يُلخّص ما لديه، ثم نجتمع ونتناقش، ولكن تركنا هذا الرأي؛ لأننا وجدنا من الاستعراض السريع للأوراق، أن بعض الآراء مكررة، وفي تقسيم الملفات تكراراً للعمل، ودراسةً للآراء الواحدة بجلساتٍ منفردة، وبوجهاتٍ نظرٍ متباينة.

وكان الرأي الثالث: أن ننقسم إلى ثلاث مجموعات، وكل مجموعة تدرس ما لديها، ثم يكون للجميع لقاءً موحدًا نتناقش حول الكل، وترجع هذا الرأي، ولكن نحن خمسة، فواحد سيظلّ وحده. وتطوعتُ فقلت: إن رأيتُم سأتولى وحدي تنسيق الأوراق وأجمع المتشابه، لكن بشرط أن تسمح الإمارة بخروج الأوراق، وألتزم لكم بتلخيصها خلال أسبوع، واستحسنوا هذا الرأي، وعلى الفور أنزلوا جميع الكراتين والأكياس والملفات، وامتألت بها سيارتي، وفي مكتبتي الخاصة بالبيت، بقيتُ أسبوعاً أقرأ وأجمع المتشابه، وألخص المقترحات. خمسُ ليالٍ ظلتُ خالدة في الذاكرة، أنامُ في مكتبتي بجوار هذه

البضاعة السرية الحساسة، فقد قَلَقْتُ عليها؛ خِفْتُ منها، وخِفْتُ عليها، وكنت أجيّد الطباعة، فأحضرتُ للبيت جهاز طباعة، وكتبتُ عليه التقرير الذي أعددتُه، وحين أنهيتُ المهمّة، أعدتُ جميع الأوراق لمكتب الشؤون الأمنية في الإمارة، والتقيتُ اللجنة، ووزعتُ عليهم التقرير الذي كان في خمس عشرة صفحة.

وبعد القراءة الصامتة من اللجنة، أطارقوا وفكروا، وتلاقت نظراتهم، فقد وجدوا أمامهم تقريراً فيه جرأة وقوة، وبه اقتراحات يقولها الناس همساً في مجالسهم، وبعد التشاور، اتفقنا على تعديلات يسيرة في التقرير، واختصاره، ثم في لقاء آخر أقررناه، وأسندوا إليّ مهمّة تسليم ما اتفقنا عليه، والتمهيد عند العرض لسمو الأمير، وطلبنا موعداً للمقابلة الأمير.

وفي الموعد المحدد، جرت المقابلة، وحين دخلنا مكتب الأمير كان سموه يقرأ كتاباً صغيراً، وما أن ولجنا مكتبه ورآنا حتى قلب الكتاب ونحاه جانباً، وحين جلسنا وبدأتُ أمهدُ للتقرير أدرك سموه أنني أكادُ أعتذرُ عما كتبناه، وعلى الفور ضرب بيده المكتب، ورجع للوراء بكرسيه، وقال: عبدالعزيز، اسمع، وليسمع زملاؤك، ما جئتُ بكم لتكونوا صدّى تردّدون ما أقوله، رغبتُ أن تقرؤوا وتقولوا رأيكم بكل أمانة وصدق! ومهما خالفتمونا الرأي فلا بأس.

وعلى الفور سلّمتُ له التقرير، وبعد أن قرأه وتأمله، شكرَ وأثنى، وقال: سوف أرفعُ ما كتبتموه دون أيِّ تحفّظ، سأرفعه للملك، وولي العهد، والنائب الثاني، ولوزير الداخلية!

لقد عرضنا في التقرير مجموعةً من المقترحات التي قد يختلفُ معها سموه في ذلك الوقت، لكنه رحبُ الصدر، قبلَها، ورأى عرضها لصاحب القرار!

وكانت تَرِدُنَا منه - حفظه الله - في تعليم الرياض، ثم في الوزارة، خطاباتٌ لمساعدة هذا وذاك. وذات مرّة وردنا في وزارة التعليم خطابٌ من الأمير سلمان فيه توصيةٌ تقضي بترشيح معلّم من منسوبي الوزارة للإشراف التربوي، وسألنا عن الرجل، فإذا هو لا يصلح للعمل الذي وردت توصيةُ الأمير بترشيحه، وبعد التشاور مع الوزير الخويطر، ذهبْتُ لإمارة الرياض، وبيّنتُ له - رعاه الله - ذلك الوقت عدم كفاءة الرجل، فقال على الفور: أنتم أدرى بعملكم اتخذوا ما ترونه.

لقد جمع اللهُ للملك سلمان المحبّةَ والمهابةَ، وتلك صفةٌ قلماً توفّرتُ في المسؤول، متعه الله بالصحة والعافية.

هذا، وقد سجّلتُ في كتابي (الكرسي) بعضَ المواقف معه ومع نائبه صاحب السمو الملكي الأمير سطاتم بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ.

والصورة الآتية: تعرض حالة من حالات تكريمه العلم وأبنائه، فطالما لبى دعواتنا لحضور احتفالات الطلاب في التعليم العام ومعارضهم، في هذه الصورة نرى تشریفه معرض إدارة التعليم الصحي قبل أربعين سنة بداية عملي مديراً لتعليم الرياض، وها هو الدكتور صلاح الدين أيوب عيسى مدير الوحدات الصحية رَحِمَهُ اللهُ وأحد الطلاب يشرحان لمقامه الكريم مكونات ذلك المعرض.



افتتاح معرض الوحدات الصحية بإدارة تعليم الرياض قبل أربعين سنة

والصورة الأخرى تؤرّخ افتتاح قصر المصمك بعد ترميمه من وكالة الآثار حين كانت تابعة لوزارة التعليم.



هذا، وقد يسر لي العمل في التعليم أن أكون قريباً من الملك سلمان حفظه الله، فقد شرفني بإلقاء كلمات أهالي الرياض في عدة مناسبات كبيرة؛ فحين تولى الملك فهد الملك وبعده الملك عبدالله رَحِمَهُمَا اللَّهُ ألقى كلمات الأهالي في احتفالات الرياض، كما شهدت مواقف كثيرة تحكي حزم الملك سلمان وتُجسد شخصيته وتعرض قيادته، وقد جمعت أعداداً من تلك المواقف والأحداث، أرجو أن يتيسر لي إصدارها في كتاب خاص في القريب العاجل إن شاء الله.

وليُّ العهد

الحديثُ الإنشائيُّ العام عن ولاةِ الأمرِ في المملكةِ سهلٌ ويسيرٌ، يُجيدُه ذوو القلمِ والبيان، ولكن المرآةَ العاكسةَ لشخصياتهم حَقِيقَةً هي ما يراه المتعاملون معهم مباشرة ويعرُضُونه، وما يقولُهِ ويكتبه أولئك الذين حضروا ويحضرون مجالسهم العامة والخاصة، ويسمعون أحاديثهم العفوية، وتصرفاتهم الفورية، وحواراتهم غير الرسمية، فتلك اللقاءاتُ والجلساتُ تمنحُ معرفةَ ذواتهم كما هي، وتُبينُ مواهبهم ومهاراتهم، وتكشفُ إنسانيتهم.

وخلال مسيرتي في العمل التعليمي والعمل الخيري، يَسَّرَ اللهُ لي أن ألتقي بقادة المملكة وولاةِ أمرها، ألتقي بهم، وأتحدثُ معهم مباشرة -حرسَهُمُ اللهُ بعينه التي لا تنام- وصاحبُ السُّمو الملكي وليُّ العهد الأميرُ مُحَمَّد بن سلمان -أعزَّهُ اللهُ وأعزَّهُ به- عرفتهُ حينما كان يتعلَّمُ في مدرسة والده الملك سلمان.



وكنْتُ أراهُ وهو يحضُرُ مجالسَ إمارةِ الرياض، ويسمَعُ حواراتِ
الملك سلمان -مَتَّعَهُ اللهُ بالصَّحَّةَ والعافية- ويُصْغِي لأحاديثه، ويخرُجُ
كُلَّ يومٍ بدرسٍ تطبيقي في إدارةِ الحكم، والتعامل مع الناس، يسمع نداء

الملك سلمان في صالة الاستقبال، وهو يطلبُ صاحبَ كُلِّ معروضٍ أن يقتربَ ويناقشه في شكواه أو طلبه، وينظر ويصغي لدروس الحزم والرفق، والمحبة والمهابة، وقضاء حوائج المراجعين كُلِّ يوم. لقد كُنْتُ أنا عبدالعزيز الثنيان ممّن حضرَ دروسَ المدرسة السلمانية كثيرًا حينما كُنْتُ مسؤولًا تعليميًا في الدولة، وبعد أن تقاعدتُ وشرّفتني الملك سلمان أن أشارك مع فريق تأسيس جامعة الأمير سلطان الخيرية، حضرتُ تلك المجالس، ورأيتُ إصغاء ولي العهد الأمير محمد وتركيزه نحو والده، وهو يوجّه هذا ويسمعُ ذاك، وأحيانًا أرى في عيني الأمير محمد وتقاسيم وجهه، علامات الغضب وإشارات الرضا، وأحسبُه وهو يستمعُ كأنّه بعضُ الطلاب في برامج الدراسات العليا، وقد بهرهم أستاذهم، وكادوا يعدّون عليه أنفاسه من إعجابهم بحديثه العلمي الهادف، وتركيزهم نحوه؛ إذ أرى الأمير محمدًا وهو جالسٌ بجوار والده في الصالة الكبرى لاستقبال المراجعين في إمارة الرياض يُصغي ويتعلّم بجدّ وحزم.

لقد أمضى وليُّ العهد وقتًا في تلك الجامعة والمدرسة السلمانية التطبيقية، يتعلّم الحزم والعزم، ويمارسهما عمليًا، تعلّم هذا القانون من والده الملك سلمان -متّعه الله بالصحة والعافية- وطالما كرّر الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ هذا القانون، وأخذَه عنه ابنُه الملك سلمان، وها

هو الحفيد وليّ العهد الأمير محمد، يرفعه ويُطَبِّقُه ويشتهرُ به، يقولُ الملكُ عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ: «الحزْمُ أبو العزمِ أبو الظِّفَرَاتِ، والتَّرْكُ أبو الفَرَكِ أبو الحِسرَاتِ».

وأذكّرُ ذاتَ يومٍ وأنا أزورُ الإمارةَ في تلكِ المدة، ودون موعد، أني مررتُ بمكتبِ وليّ العهد حفظه الله في الإمارة، وجلستُ في مكتبِ معالي الأخ بدر العساكر، ومعالي الأستاذ تميم السالم، وسألتُهما: أيمنُ مقابلةُ الأمير محمد؟

فقام أحدهما وبلّغَ الأميرَ بوجودي، فجاءني الإذنُ بالدخولِ على الفور، وما أن دخلتُ المكتبَ إلّا وهشَّ الأميرُ وبشَّ، ورَحَّبَ وخرَجَ من مكتبه، وجلستُ وإياه على كرسيين مُتقابلين، وتبادلنا أطرافَ الأحاديثِ العامة، وغادرتُ الإمارةَ وأنا أُحدثُ نفسي عن تواضعهِ ورفقهِ، وهشاشتهِ وبشاشتهِ، وأعجَبُ من سعةِ معارفهِ ومعلوماتهِ، والمُحُ فيه قوّةُ الشخصيةِ الواعدة، والطلاقةُ في الحديث، والتمكُّنُ المعرفي، وأستشرفُ له وللوطنِ بهِ مستقبلاً واعدًا، وغداً مشرقاً بإذن الله.

ومضتِ الأسابيعُ عجلي، وزرتهُ في مكتبه مرّةً أخرى وثالثة، وشرفني بالاستجابة لدعوةٍ خاصّةٍ في منزلي بحي المحمّدية، وكانت أمسيةً معرفيّةً علميةً، حضرها نخبةٌ لا تتعدّى أصابعَ اليدِ من ذوي العلم والرأي، تبادلنا معه الرّأيَ والمشورةَ حولَ عدَدٍ من الأمورِ المجتمعية،

وقد أُعجبَ الحضورُ بحُسنِ تركيزه وإصغائه، واهتمامه بالمتحدث، ثم أجوبته واستيعابه وتعليقاته، وكانت ليلةً خالدةً في أذهان الحضور، وما يزال عددٌ من المشاركين في تلك الليلة يستعيدون ذكراها.

وشاءَ اللهُ وقَدَّرَ أنه في سنواتٍ وجيزة، ينتقلُ سموه الكريم مع والده **حفظه الله** إلى وزارة الدفاع، وهناك زرتُهُ أنا وأخي فهد، وجلسنا في صالون الاستقبال، وتفاجأنا بنزوله من مكتبه بالدور الثاني، وأسرع إلينا، وجلس معنا؛ تواضعًا وتقديرًا لزائريه، وكان كما عهدناه في الإمارة؛ يسمعُ بتركيز، ويأخذُ ويُعطي في الحديث، ثم لمحنا وفدًا زائرًا، ورأيناه بعد أن ودَّعنا يسرعُ لمكتب والده، ويُبادرُ بالجلوس بالقرب من كُرسي الملك سلمان، وكأني به يسمعُ ويشاركُ في الحوار والمناقشة، ويزدادُ تعلُّمًا وخبرة.

ثم أرادَ اللهُ بالمملكة خيرًا، فبعدَ تلك التربية والدروس السلمانية، وصلَ سموه الكريمُ إلى مركز قيادة الدولة، وشاركَ والده في إدارة الملك وإدارة شؤون الدولة - حرسهما اللهُ بعينه التي لا تنام - لقد اجتمعتِ الخبرة والفتوة؛ حكمةُ الشيوخ ورزانتهم، وهمةُ الشباب وطموحهم، نسألُ اللهَ للمملكة المزيدَ من فضله وأمنه وأمانه.



حديثٌ مع المَلِكَيْن

الملك فهد

الأول الملك فهد رَحِمَهُ اللهُ عَرَفْتُهُ، وتحدّثْتُ معه حينما كنتُ مديرًا لتعليم الرياض، وعضوًا في مجلس مدارس الرياض، كان يحضُرُ حفلات تخرج مدارس الرياض حين كان ابنه عبدالعزيز يدرس فيها تلك المرحلة، وفي إحدى المرات حضر، وما أن سلّمت عليه مع أعضاء مجلس الإدارة إلا وأمسك بيدي، وسرّْتُ معه لمنصّة الجلوس، وقال: استمعتُ لحديثك قبل يومين في التلفزيون. وأشاد بقولي ورأيي، وحَثَّنِي على المزيد من الحضور الإعلامي، ومضتِ الأيام، وانتقلتُ وكيلاً لوزارة التعليم، وجاء معالي الدكتور محمد الرشيد ليكون وزيراً للتعليم، وكان رئيساً لمجلس إدارة مدارس الرياض يوم حدثني الملك فهد ذاك الحديث، وصحبنا الوزير الرشيد في زيارات لقادة الوطن، فكان لنا معهم لقاءات وأحاديث حوارية حول التعليم وشجونه.

وتذكّرني الصورة الآتية بمداعبة كانت لنا مع الملك فهد رَحِمَهُ اللهُ تحكي مدى قرب ولاية الأمر في وطننا الغالي من العاملين معهم؛

فلا تهيب، ولا خوف، ولا رهبة، ولا قلق، بل احترام، وصراحة،
ومداعبة، ومودة.



بعد أن قرأ الوزير الرشيد رَحْمَةُ اللَّهِ ما دَوَّنه، عَرَضْنَا على الملك ما
نرغبُ طَرَحَه عن التعليم وهمومه ومطالبه، واستمعنا لتوجيهاته
رَحْمَةُ اللَّهِ، وقبل الوداع صار الحوار الآتي:
قال الملك فهد: كيف أنت يا محمد والشجاعة؟
قال الوزير: جبان وخوَّاف.

وضحك رَحْمَةُ اللَّهِ ثم خاطبني، وقال: وأنت يا عبدالعزيز، ورغبت
المزيد من المفاكهة والموانسة فقلت: أما الشجاعة فمِثْل وزيرنا، لكن
لي طلبٌ متَّعك الله بالصحة والعافية.

قال الملك: وما هو طلبك!

قلت: طلبي سهل عليكم، مرغوبٌ لنا، يحلُّ الخوف، ويُنهى التردد.

قال الملك: شوِّقْني، اشرح المطلوب.

قلت: الضباط من حولك قريبون، أرجو أن تُصدر أمرًا لهم الآن: أن يأخذونا إلى السجن، ولا نخرج إلا بشرط وتعهده، نلتزم فيه بالزواج من ثانيةٍ وثالثة.

فضحك، والتفتَ إلى ابنه محمد بن فهد رَحِمَهُ اللهُ، وكان واقفًا خلفه، وقال: أَسَمِعْتَ الطلبَ الغريب، ماذا ترى؟! ثم استدرك وقال: أو تريد أن تجعلني في أفواه النساءِ يدْعُونَ عليَّ، طلبك مرفوض.

هذه المداعبة والمؤانسة تحكي مدى القرب والود بين قادة الوطن وأعوانهم.

لقد كان ذاك اللقاء أبويًّا واجتماعيًّا وتربويًّا، فقد حدثنا رَحِمَهُ اللهُ عن اهتمامه بالعلم وعن اعتزازه بوزارة التعليم، وكشفَ عن قصة تعيينه أول وزيرٍ للتعليم، وماذا قال للملك فيصل رَحِمَهُ اللهُ يوم عرض عليه التشكيل الوزاري وخيَّره في أي الوزارات يرغب.

قال: إنه طلب وزارة المعارف (التعليم)، وأن الملك فيصل تساءل عن أسباب تفضيله لهذه الوزارة، وأنه قال له: اخترتها

لأنها وزارة المستقبل، وبناء الرجال الذين هم أساس التنمية. وأكّد على اهتمامه بالعلم، وأنه في مجلس الوزراء يقف مع وزير التعليم يؤيّد مطالبه، ويدعم مشاريعه.

وأذكر موقفًا للملك فهد أسجّله للتاريخ، وأرويه عن أخيه الرجل الصالح القريب من ربّه صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ الذي طالما عاتبنا لم نتأخر عن زيارته. ذات مرة في شهر رمضان وفي غرفة مُعتكفه ببوابة الملك عبدالعزيز، تشعب الحديث وتنوّع، وتطرّقنا للقضاء واستقلاليتّه، فروى ذلك الموقف.

يقول الأمير متعب: كُنْتُ ذات يومٍ في زيارة أخي الملك فهد في الطائف، والتقيتُ عند المدخل برجل الأعمال عبدالرحمن فقيه، فأمسكتُ بيده، وما أن رأنا الملك فهد حتى رَحَّبَ وابتسمَ ونظرَ لفقيه، وقال: أهلاً بالرجل الذي غلبني، وحكمت له المحكمة ضديّ، أهلاً ومرحباً.

يقول الأمير متعب: وارتبك فقيه، وحاول الاعتذار، ولكن الملك فهد سارع في القول: بأنه سعيدٌ بالحكم، وأنه حين يتحدث أمام الملاء ليخبرنا نحن إخوانه وغيرنا من المسؤولين والوجهاء، أن الشرع فوق الجميع، وأنه شخصياً أول المُتَثَلِّين.

ذكريات مع الملك عبدالله

أمّا معرفتي ولقائي بالملك عبدالله رَحِمَهُ اللهُ فكان مُتأخراً بعد أن كان ولياً للعهد، وذلك الوقت كُنت وكيلاً لوزارة التعليم؛ وصارت لنا زيارات نلتقي فيها بالقيادة، فتحدث معهم عن التعليم وإنجازاته ومطالبه. والصورتان أدناه تعرضان تلك الزيارة، وكيف هم ولاة الأمر قريبون من المسؤولين يُجاورونهم ويسمعون منهم.





كان اللقاء في الديوان الملكي، وفي غرفة صغيرة، وكان الحضور مجموعة من كبار المسؤولين في وزارة التعليم، وحين انتهى الوزير الرشيد من كلمته تحدث الملك عبدالله - وكان آنذاك ولياً للعهد - وذكر أهمية التعليم، وذكرنا بمسؤوليتنا، وأنا بين والد وأبنائه يَمَحُضُهُمْ نصيحته، وتشكى وتحسّر، بل كاد يبكي أسى على انحراف بعض الشباب، وكيدهم لوطنهم، وقال **رَحِمَهُ اللهُ**: كيف يعقُّون المملكة التي يرضعون ثديها؟ ثم خاطبنا وسأل عن التعليم ووضعه، فتحدثت وصدَّقْتُه القول، ذكرتُ له شمول التعليم مناطق المملكة، وأكدتُ له أن المدارس عمّت المدن والقرى والأرياف، وأكدتُ له حرص

رجال التعليم على الأمانة التي تحمّلوها، وكان يستمع وهو طلقُ الوجه، مسرورٌ بكلمات الثناء والشكر، ثم قلت له: ولكن يعلم مقامُكم الكريم تنامي سكان المملكة، ومتطلبات الزيادة والتنمية، ورفعتُ كأس ماءٍ كان على الطاولة تحجبه الزهور في الصورة المرفقة، وقلت له: هذا الكوب لا يتحملُ أكثر من طاقته، وهي مدارسنا القائمة؛ المسجلون الجدد يفوقون المُتخرّجين من الثانويات؛ ولهذا لا بُد من أكوابٍ جديدة، وتبسم الملك عبدالله، وقال: ما أحسن كلامك حتى قولك: ولكن!

قلت له: والأمانة تستوجب أن نقول لكم كل شيء؛ الحسن، والأقل حسناً.

قال الملك: يبدو أنك المُتحدث باسم زملائك، ماذا لديك بعد؟ قلتُ: أعرض لمقامكم الكريم أن لدينا في المدن فصولاً تُكَلّف الدولة مئة ألف ريال، وأخرى ثلاث مئة ألف ريال، وهذا هدرٌ مالي كبير، وذكرت له المثال التالي لأُقَرِّبَ له الموضوع وأُبَسِّطُ عرضَه!

قال وقد ازداد تركيزه: كيف؟ اشرح ذلك!

قلت: في الرياض مثلاً مدرستان متقاربتان هذه مبناها حكومي، في الفصل خمسة وثلاثون طالباً، بمعلم واحد راتبه في السنة مئة ألف ريال، وبالقرب من هذه المدرسة مدرسة أخرى في مبنى مستأجر، غرفة صغيرة

ونضطر إلى توزيع الطلاب وفق سعة الغرف، فينقسم الخمسة والثلاثون إلى ثلاثة فصول، بثلاثة معلمين رواتبهم في السنة ثلاث مئة ألف ريال. قال الملك: بارك الله فيك، الأمر واضح، نادوا وزير المالية الدكتور إبراهيم العساف لسمع شرح الأخ عبدالعزيز.

وحين انتهى اللقاء، وأردنا النهوض، نادى علينا جميعاً وقال كلاماً هزّ القلوب وأدمع العيون، قال: التعليمُ أمانةٌ في رقابكم، أمانةٌ في رقابكم، أمانةٌ في رقابكم. ردّدها ثلاثاً.

لقد كانت لقاءات بساطة وتبسّط، واستماع ونقاش، وحين أدوّن هذه الذكريات، فإنما الغاية هي عرض قصة التعامل بين المسؤولين وولاة الأمر في وطننا الغالي، حفظ الله له أمنه وأمانه.

ومضت الأيام وتوفي الملك فهد رَحِمَهُ اللهُ، وتولى الملك من بعده ولي العهد عبدالله بن عبدالعزيز، وكُنْتُ قد تقاعدت من العمل في وزارة التعليم قبل ثمان سنوات، وتشرفتُ أن أكون المتحدث باسم الأهالي، فألقيتُ كلمة أهالي الرياض في حفل تولي الملك عبدالله الحكم في ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٦ هـ الموافق ٢ أغسطس ٢٠٠٥ م.

مما قلته في تلك الكلمة:

خادم الحرمين: تحملتُم أمانة الوطن فكانت السكينة، ورفعتم راية البيعة فكانت الطمأنينة. اجتمعت حولكم القلوب، والله هو

الجامع، وتآلفت معكم النفوس، والله هو المؤلف: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ
لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾
فلله الحمد على التآلف واجتماع الكلمة، والله الشكر أن صار حكامنا
في هذا العصر المضطرب نموذجا، والله الثناء أن أصبحت مملكتنا مع
هذه الأحداث الجسام وفي هذه الأيام العظام مثلاً. إذا حل القضاء
والقدر ونحن مؤمنون به، وراضون بأحواله، توارث المجد فينا كابر
عن كابر بكل محبة ومودة، وبأسلوب حضاري فريد متميز. وكل
ذلك بفضل الله وتوفيقه. بارك الله لكم وفيكم وبكم.

خادم الحرمين: إن أبناءكم المواطنين مستبشرون بمضامين
كلمتكم التاريخية بمناسبة البيعة التي هزت مشاعرهم حين قلتم
فيها - أعزكم الله - : (أعاهد الله ثم أعاهدكم أن أتخذ القرآن دستوراً،
والإسلام منهجاً، وأن يكون شغلي الشاغل، إحقاق الحق، وإرساء
العدل، وخدمة المواطنين كافة بلا تفرقة) إنها كلمة تاريخية، وعهد
عظيم، تضمن الكثير من بشائر الخير والحب، والوعد والصدق. وإن
زياراتكم الميدانية، ولقاءاتكم المتكررة، وقراراتكم المتوالية، تحكي
وتبشر بالمستقبل المشرق للوطن والمواطنين وبالمزيد من قرارات
الرفاهة والرخاء والبناء.

خادم الحرمين: رحل الفهد - طيب الله ثراه - والرياض وأهلها
يذكرون مآثره الخالدة وقراراته التاريخية الصعبة التي تحملها يوم

اشتدت الخطوب، فكانت بتوفيق الله النجاة من الأخطار، وكان الاستقرار والأمان، وكانت التنمية في كل المجالات الحضارية من تعليمية وصحية واقتصادية واجتماعية وغيرها، فله وهو أحوج ما يكون اليوم أجزل الدعاء وأصدق الترحم.

خادم الحرمين: تخليد الأحداث التاريخية، منهج درج عليه أهالي الرياض منذ عهد الملك عبدالعزيز وسنة يتوارثها الأهالي ويحكونها لأبنائهم وأحفادهم، ويجسدونها واقعا عمليا، يظل مع الأيام يحكي صورة التلاحم يروي حقيقة الوفاء والحب، ويخلد مثل هذا اليوم المبارك، ولهذا فإن أهالي منطقة الرياض يعلنون في هذه الليلة الكريمة، تبرعهم لإنشاء معلم حضاري باسم الملك عبدالله بن عبدالعزيز في غرب مدينة الرياض، على مساحة مليون وخمسمائة ألف متر مربع، وهو معلم سوف يطرح تصميمه في منافسة عالمية لشركات متخصصة وسيكون بمشيئة الله نواة لمركز حضاري يضم مجموعة من الحدائق التعليمية والترفيهية، وأندية لصحة الإنسان، ومتاحف لعلوم الأحياء وسوف -إن شاء الله - نحتفل بافتتاح هذا المعلم النموذجي الذي يسجل هذه الذكرى الخالدة.. حفظكم الله ورعاكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان
عضو مجلس الشورى

وكان أعضاء لجنة احتفال الأهالي بالرياض:

سمو الأمير د. عبدالعزيز بن محمد بن عياف، عبدالله النعيم، د. ناصر بن عبدالعزيز الداود، عبدالرحمن بن علي الجريسي، حمد بن عبدالعزيز الجميح، د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان، د. أحمد بن محمد السيف، د. خالد بن عبدالله الدغثير، م. سعد بن عبدالمحسن السويلم، محمد بن عبدالله أبونيان، د. عبدالله بن عبدالرحمن البشر، سلطان بن محمد بن صالح، صلاح بن راشد الراشد، عبدالله بن محمد الرميزان، عبدالعزيز بن علي الشويعر، خالد بن عبدالعزيز المقيرن، عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فهد الكريديس، عبدالله بن محمد الحقييل، سليمان بن عبدالقادر المهيدب، ناصر بن محمد السبيعي، عبدالله الزيد، د. إبراهيم العبدالله، د. عبدالعزيز الدخيل.

جلسة مع النائب الثاني

إنه سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ الحكايات عنه كثيرة، وكرمه يسبق اسمه، ومع أن علاقته بالمجتمع قوية، فإني قليلاً ما التقيتُ به وجلستُ معه، له جلساتٌ مع المثقفين، وله لجانٌ استشاريةٌ من زملاء وأصدقاء يروون عنه بساطته واستيعابه. كان هو رئيس معظم اللجان المتفرعة من مجلس الوزراء؛ كان يرأس لجنة سياسة التعليم، ويرأس لجنة الإصلاح الإداري، ويرأس لجنة الإعلام، ويرأس، ويرأس.

وحين تعيّنت وكيلاً لوزارة التعليم، كان مَنْ سبقني في هذا المنصب يتولون منصب أمين عام اللجنة العليا لسياسة التعليم، فكانوا بهذا العمل يرتبطون بالأمير سلطان مباشرة، لكنني حين توليتُ وكالة الوزارة بعد حرب الخليج ودخول صدام الكويت، طرأت في تلك المرحلة تعديلاتٌ في إدارة الدولة، فقد انشغل رَحِمَهُ اللهُ بأمورٍ أهم، وترك رئاسة تلك اللجان للوزراء؛ فرأس لجنة التعليم وزيرُ التعليم الدكتور عبدالعزيز الخويطر رَحِمَهُ اللهُ؛ ولهذا لم يكن لي ثمة ارتباطٌ بالأمير سلطان رَحِمَهُ اللهُ.

ومضت الأيام وحين تولى الدكتور الرشيد رَحْمَةُ اللَّهِ وزارة التعليم، ونظّم لقاءات بالقيادة، صارت لنا أكثر من جلسة مع الأمير سلطان، والصورة أدناه تحكي لقاء كبار المسؤولين في التعليم به.



وأذكر حين قابلناه وجلسنا معه، بهرنا باستيعابه هموم التعليم، ومعرفته بواقعه، ولعلّ رئاسته للجنة العليا لسياسة التعليم لسنواتٍ خلّت مكنته من الغوص في الشأن التعليمي، ومعرفة واقعه.

سألنا رَحْمَةُ اللَّهِ في واحدة من الجلسات، وكان ذاك اللقاء قُرب نهاية العام الدراسي، عن وضع الطلاب في الإجازة، وهل نظّمت لهم

الوزارة برامج صيفيّة؟ فرفع مدير عام التعليم في الرياض الدكتور عبدالله المعيلي رَحِمَهُ اللهُ يده فأذن له بالحديث، وقد أجاد المعيلي القول؛ حيث أكد لسموه أهمية احتواء الطلاب في المدارس وضرورة استيعابهم، وذلك يتطلب توفير مبالغ مالية لهذه النشاطات.

وسأل رَحِمَهُ اللهُ المعيلي قال له: كم تحتاجون في الرياض لهذا النشاط؟

قال المعيلي: عشرون مليون ريال.

قال: مبلغٌ يسير، تستحقون أكثر وأكثر.

إن تلك اللقاءات وهاتيك العلاقات تعرض كيفية الحكم السعودي، وكيف هي إدارة الدولة.



لقائى بسموّه

هو سمو الأمير نايف بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ رزين هادى، يترك
المتحدّث يعرض ما لديه، التقيتُ به عدّة مرات؛ مرةً بمفردي، وثانيةً
مع مسؤولين من وزارة التعليم بحضور الوزير الرشيد، وثالثةً مع
فضيلة الشيخ صالح بن حميد والصاديق معالي الدكتور عبدالرحمن
السويلم، وكذلك جلستُ بجواره في مناسبة اجتماعية. الصورة الآتية،
كانت في منزل حفيد الملك سعود رَحِمَهُ اللهُ صاحب السمو الملكي الأمير
سعود بن منصور.



وتحدّثنا مع الأمير أحاديث شتى، وفي كل اللقاءات كنّا نتحدّث

مع الأمير بشفافية وصراحة، نخالفه الرأي فيسمع ويراجع، سمع منا وسمعنا منه.

لديه ذاكرة وقادة وتقدير للعلم والعلماء، طالما ردّد أماننا منهج الدولة الفكري ووسطيته، وكثيراً ما يُذكر بأساس الدولة السعودية وما قامت عليه، وجمعها بين القوتين الناعمة والصلبة.

وكان رَحِمَهُ اللهُ يزور وجهاء المجتمع، ويتواصل معهم، والصورة أدناه كانت في زيارةٍ منه لبيت ابن عمّي محمد بن عبدالله الثنيان (أبو سلطان).



وأتذكره كان مُتَبَسِّطًا في تلك الجلسة، وأشعر الحضور بِقُرْبِهِ
منهم. هذا هو وزير داخلية المملكة العربية السعودية، وولي العهد
بعد وفاة الأمير سلطان رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وكم لوزراء داخلية العرب من هيبة وجبروت!

يُؤَثِّرُ عَنْهُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ مقولته لأحد وزراء العرب، حين اقترح عليه
محاسبة أسرة الجاني، والزجّ بهم في السجون؛ ليكون الردع أقوى
وأشرس، فقال: نحن في المملكة مقيّدون بشريعة الله، ومُلتزمون
بأحكامها، والله يقول في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].



ثقافة أمير



مع الأمير فيصل بن فهد في تونس

هذه الصورة في أثناء توقيع مذكرة بين الحكومة التونسية والمملكة، ويقف معالي الدكتور بكر بن عبدالله بكر سفير المملكة في تونس في الوسط، وأنا من بعده.

الأمير فيصل بن فهد رَحِمَهُ اللهُ رَجُلٌ وهبهُ اللهُ مَلَكَةً ثقافيةً وشخصيةً قياديةً، وكان لي معه رَحِمَهُ اللهُ أكثر من موقف بقي في الذاكرة؛ من ذلك أنه في عام ١٤٠٧ هـ، كان افتتاح إستاذ الملك

فهد رَحِمَهُ اللهُ وبطولة رياضية عربية؛ حيث تزامنت المناسبتان في وقتٍ واحد، وجاء توجيهٌ من المقام السامي بتشكيل لجنةٍ من عدّة جهاتٍ حكوميةٍ برئاسة الأمير فيصل، وقد مثّلت وزارة المعارف في تلك اللجنة.

وصار الاجتماع الأول، وأُستعرض فيه برنامج الاحتفال، ثم عرض شخصٌ اسمه عرفان أوبري متطلبات أوبريت الحفل، وبيّن أن الرأي هو مشاركة عددٍ كبير من الطلاب في الملعب؛ ليعرضوا لوحاتٍ رياضيةٍ بأشكالٍ مُتنوعة، وهذا يستلزم تفريغهم من الدراسة قُرابة شهرين، ليتمكّنوا من الحضور للملعب والتدريب قبل موعد الافتتاح، وبارك الحضور هذا الرأي، وأكّدوا أهمية الحدث، فسيحضره خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، ووزراء ومسؤولون كبارٌ من الدول العربية، كما أيّد هذا الرأي عمداء الكليات العسكرية والرياضية المشاركون، وأكّدوا التزامهم بحضور طلابهم التدريبات المقترحة. وهناك كان الموقف الذي بقي خالدًا في الذاكرة، وكأني أرى تلك الجلسة ماثلة أمامي.

قال الأمير فيصل: لكن المهم هو رأي وزارة المعارف ومشاركة طلابها، فهل سيُقرّغون الطلاب لهذه المهمّة؟

قلت: يا سمو الأمير، هذا طلب يتعدّر تنفيذه؛ فالطلاب لا يمكن تفرّغهم وتركهم شهرين دون تعليم، وحتى لو وافقنا فأولياء أمور الطلاب لا يوافقون.

فردّ الأمير: إنه الواجب الوطني!

قلت: يُمكنُ الجمعُ بين الواجب الوطني والمشاركة والتعليم اليومي. وقال أحد العمداء: الأمر يسير.

ورددتُ عليه بالقول: يسيرٌ عليكم في كلياتكم، فطلابكم محجوزون، فلديكم إسكان لهم.

وتطوع أحد الحضور فقال: امنحوا لهم الدرجات العلمية، واعتبروهم مثل زملائهم الحاضرين. جهلٌ، وغباءٌ، وكأن العلم أُعطياتٌ تُمنح.

وقال الثاني: يمكن لرعاية الشباب التواصل مع المدارس مباشرة دون تدخل وزارة المعارف.

وتبسّم الأمير فيصل، وقال: هذا لا يمكن، فأنا لا أسمح بالتواصل مع مؤسسات الرئاسة مباشرة.

وتداخلت الأصوات؛ مُستنكرين تحفظي، ومُستغربين موقفني.

ونادى الأمير فيصل: يا عرفان، لنترك الوزارة وطلابها.

قال عرفان: وجود الطلاب ضروري لملء الملعب وتحريكه، ولا يمكن تنفيذ الأوبريت دون الطلاب.

قلت للحضور: الرأي أن يُجزأ التدريب؛ ليكون أغلبه في المدارس، فطالما أنه حركات وتمارين رياضية نعهد لمعلمي مادة الرياضة، بعد تفريغهم وتدريبهم على الأوبريت، بتنفيذ التمارين في المدارس في حصص التربية الرياضية، وتكون التمارين الجماعية في الإجازة الأسبوعية.

وتم قبول هذا الرأي على مَضَض، وبعد نهاية اللقاء، تحدث إليَّ بعضُ الحضور قائلًا: كيف تجرؤ على مخالفة الأمير فيصل.

وقال أحدهم: أنت تربية الخويطر.

ومضت الأيام وتدرَّب الطلاب، وأقيم الحفل، وحضره الملك فهد رَحِمَهُ اللهُ.

وفي أمسية تلك الليلة بعد انتهاء الاحتفال، وردني بالمنزل اتصال هاتفي من الأمير فيصل رَحِمَهُ اللهُ يُشيد بنجاح الحفل، ويذكرني بموقفني وتحفظي على تفريغ الطلاب، ويشكرني على ذلك الموقف.

إن إبداء الرأي برفق وموضوعية أدعى للقبول، ولا ضير إذا جَلَوَتَ رأيك، وأبْنَتَ فكرتك حتى وإن لم تُقبل، فقد يكون الرأي

المعاكس هو الأسلم. يُروى عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «كُلُّ
يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُرَدُّ، إِلَّا صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وبعد عشر سنواتٍ ونيف، كان لي موقف آخر مع الأمير فيصل
رَحِمَهُ اللَّهُ في تونس، فقد شاركت ممثلاً للوزارة بصفتي وكيلاً لوزارة
التعليم، في اجتماع مؤتمر وزراء الثقافة والشباب العرب في تونس،
برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد رَحِمَهُ اللَّهُ يوم أن
كان الرئيس العام لرعاية الشباب، وكانت القصة الآتية:

في ليلة السفر، وفي تلك الرحلة التي تستغرق ليلتين في تونس،
وطيران لمدة ستّ ساعات، فكّرتُ كيف سيكون الحديث، وكيف
ستمضي ساعات الجلسات الجانبية؟!؛ فجهاز رعاية الشباب
نشاطه الرئيس حول كرة القدم، وأنا لا أفقه ولا أهوى الكرة،
ومن أجهل الناس في معلوماتها؛ فلا أعرف زيّ هذا النادي من
ذاك، ولا هذا اللاعب في أيّ النوادي، ولا مَنْ هو؟ فمنذ طفولتي
وما زلت -ولله الحمد- أُمِّيًّا في هذا النشاط الرياضي، كما أنني
لا أُجيدُ لعبة الورقة (البلوت).

وحادثتُ نفسي أن مشاركتي خطأ، وسأكون ثقيلاً بين الجميع،
فإذا لم تستطع الحديث والمشاركة في الجلسات الرسمية والخاصة،

فخيرٌ لك عدم الحضور، هذا ما أراه! ولكن هل يمكن الاعتذار؟ وهل يمكن تكليف بديل؟ لقد فات الفوت، ويتعذّر الاعتذار.

وفي ضُحى يوم السفر، مشيتُ للمطار وئيدَ الخطى، ثقیل المشاعر، وكانت الرحلة بطائرة ملكية خاصة بصحبة الأمير فيصل رَحْمَةُ اللَّهِ ومضت ساعات الطيران على خير، ووصلنا لتونس قبيل أذان المغرب وذهبنا للغرف، وبعد قُرابة ساعةٍ من الاسترخاء، رنَّ هاتف الغرفة، وإذ هو جناح الأمير، وأخبروني أن الأمير جالسٌ، ويقترحون عليّ الحضور والمشاركة في الجلسة، وهنا حضرتُ هواجسي، فكيف أشارك في جلسة يغلب على ظني، أن الحوار فيها سيكون حول كرة القدم والنوادي الرياضية، أو أنها ستكون جلسة لعب ورقة البلوت، وأنا لا أفقه في هاتين الحالتين، فقرّرت عدم المشاركة، وبعد نصف ساعة، جاءت المكالمة الثانية وطلبوا حضوري، ولم أستجب، وفي المرة الثالثة قال المتحدث: تأخرتُ والأمير يسألُ عنك. وعند ذاك أسرعْتُ إليه، وما أن وصلتُ وسلّمتُ، حتى وقف الأمير وقال رَحْمَةُ اللَّهِ: هيا نُصلي معاً، وصلينا المغرب والعشاء، ثم تحولنا لمائدة العشاء في جناحه، وبعد ذلك عُدنا للمجلس.

وهناك كانت الجلسة الماتعة؛ سألني الأمير: لماذا تأخرتَ في الحضور؟ ولماذا تمنّعتَ ولم تسرع إلينا؟

ولم أستطع أن أقول له هو اجسبي وظنوني منذ كنت في الرياض:
إن جلستكم لا أصلح لها!

وإنما تعلّلت أنني مُدمن قراءة، وأنساني الكتاب نفسي والحضور.

قال الأمير: وما الكتاب الذي كنت تقرأ فيه؟

قلت: كتابٌ عنوانه (من بلاط الشاه إلى سجون الثورة).

قال الأمير: لقد قرأت هذا الكتاب، واستمر يتحدث عن الكتاب،
وصارت جلستنا تلك الليلة أدبية تاريخية، ولم نسمع كلمة واحدة عن
الرياضة واللاعبين، وطالت الأمسية، وقبل انتهاء الجلسة، التفت
الأمير إلى أحد الحضور - علمت أنه الشهيل رَحِمَهُ اللَّهُ - وقال له: كلمتي
في المؤتمر غداً، أعطها الأخ عبدالعزيز. وقال لي: اقرأها وعدّل فيها
بما تراه، واضطرتُّ للبقاء مع الشهيل لمراجعة الكلمة وتطويرها،
وقد أعملتُ فيها قلمي وضممتها رسالة المملكة الحضارية، وهويتها
الإسلامية، وقوتها الناعمة المتمثلة في رسالة الحرمين الشريفين، ورأيت
في ملامح بعض منسوبي رعاية الشباب تلك الليلة تضجّروهم من تلك
التعديلات، لكن في يوم الحفل ألقاها الأمير وفق ما عدّلت وحوّرت.

وفي الليلة الثانية كانت جلسة سمرٍ ثقافية أخرى، اكتشفتُ فيها
أن لدى الأمير مواهب متعدّدة، وملكاتٍ ثقافيةً ثريّةً، يحفظُ كثيرًا

من شعر المتنبي وجريير والفرزدق والمعلقات، ومُتمكنٌ من معرفة التاريخ الإسلامي وأحداثه. ليلتان مع الأمير رَحْمَةُ اللَّهِ بقيتا في الذاكرة.

وفي اليوم التالي ودّعنا الأمير، ولكن الطائرة أمسك بيدي وأخذني على انفراد، وقال: كانتا ليلتين مُمتعتين أرغبُ أن نكرّرها أسبوعياً في الرياض، وأرجوك: أن ترشح عشرة أشخاص لديهم ثروة ثقافية، وتكون لنا جلسات سَمَرٍ متكررة مثل البارحة، وسوف أتواصل بك في الرياض -بإذن الله- لترتيب اللقاءات.

وبعد العودة، أرسل بعض الكتب وذكرني برغبته، وبينما كنت أفكر في الأسماء التي سوف أقترحها؛ تفاجأت بنأ وفاته رَحْمَةُ اللَّهِ وأسكنه فسيح جناته.



الأسفار

قال الإمام للشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى
وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ
وَعِلْمٌ، وَآدَابٌ، وَصُحْبَةٌ مَا جِدِ

وقال الشافعي كذلك:

مَا فِي الْمَقَامِ لَذِي عَقْلٍ وَذِي أَدَبٍ
سَافِرٌ تَجِدُ عِوَضًا عَمَّنْ تُفَارِقُهُ
إِنِّي رَأَيْتُ وَقُوفَ الْمَاءِ يُفْسِدُهُ
وَالْأُسْدُ لَوْلَا فِرَاقُ الْغَابِ مَا افْتَرَسَتْ
وَالشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ فِي الْفُلْكِ دَائِمَةً
وَالتَّبَرُّ كَالتُّرْبِ مَلَقَى فِي أَمَاكِنِهِ
مِنْ رَاحَةِ فَدَعِ الْأَوْطَانَ وَاعْتَزَّ بِ
وَأَنْصَبْ فَإِنْ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ
إِنْ سَالَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجِرْ لَمْ يَطْبِ
وَالسَّهْمُ لَوْلَا فِرَاقُ الْقَوْسِ لَمْ يَصِبْ
لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبٍ
وَالْعُودُ فِي أَرْضِهِ نَوْعٌ مِنَ الْحَطَبِ
وَإِنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ عَزَّ كَالذَّهَبِ

السفر كما يصفه الشافعي ليس حركةً في المكان فحسب، بل في الإنسان نفسه.

فيه تتبدل الرؤية، وتنضج الفكرة، وتنكشف النفس على حقيقتها. السفر في جوهره ليس تنقلاً بين البلدان فحسب، بل بين الأفكار والعقائد، بين الإنسان فيك والإنسان في الآخر.

وقد علّمني السفر: أن بعض الدروس لا تُدرّس في القاعات، بل قد تُكتشف على الطرقات، بين دهشةٍ وتأملٍ وحوارٍ صامت مع النفس. بدأت علاقتي بالسفر منذ مرحلة الشباب، للصحبة والسمر، وطلباً للمعرفة وخبرة الحياة، تعلّمت أن الرحلة الواحدة قد تُغنيك عن مئة درس، وأن الطريق مُعلّم صبور لا يملّ التكرار.

زرتُ في حياتي دولاً كثيرةً، تنوّعت بين الشرق والغرب، منها: الكويت، العراق، البحرين، الإمارات، قطر، عُمان، اليمن، سوريا، الأردن، مصر، المغرب، تونس، السودان، تركيا، جورجيا، أذربيجان، إيران، ماليزيا، سريلانكا، إندونيسيا، رواندا، بريطانيا، اليابان، إيطاليا، فرنسا، سويسرا، ألمانيا، إسبانيا، الصين، أمريكا، كندا، باكستان، الهند، سنغافورة، واليونان، وأثيوبيا.

كل بلدٍ منها ترك أثراً في الذاكرة، وعَبَقاً في القلب، وأدركت

أن الأسفار ليست مجرد انتقال بين أرضٍ وأخرى، بل هي عبورٌ بين تجاربٍ ومعانٍ، وسطورٌ تُضاف إلى كتاب العمر. كنتُ أقرأ لابن بطوطة وابن جبير، فأدرك أن أدب الرحلات ليس تسجيل مشاهد، بل حكاية روح وموقف، ومن هنا جاءت فكرة أن أجعل في **(لؤلؤ وحصى)** فصلاً خاصاً بالأسفار، أستعيد فيه بعض الذكريات التي صاغت في نفسي معاني الصبر، والعبر، والتأمل، ولعلي فيما بعد أكتب كتاباً خاصاً عن أسفاري ورحلاتي بشيء من التفصيل والصور التوثيقية، لعل وعسى.

«أولى الرحلات: إلى الكويت والعراق»

كان ذلك عام ١٣٩٦هـ، رحلة الشباب الأولى إلى الكويت والعراق، بصحبة أبناء العم، في صندوق سيارة (ونيت داتسون) لابن عمتي وصهري إبراهيم بن عبدالرحمن المرشد، كأني أرى تلك السيارة المتواضعة الآن، خضراء اللون، لا تكييف فيها، ولا مقاعد مريحة. متجمعين في صندوقها كأننا أغنام، زائدنا يسير، وخيمتنا رفيقتنا، نبيت حيثما أدركنا المساء، وننصب خيمتنا أينما أدركنا الغروب. لا نعرف الفنادق، ولا نفكر في سُكناها، نملك روح المغامرة، وبهجة الصحبة، ودفع الأخوة.

حين وصلنا البصرة قبيل المغرب، أعجبتنا حديقة غناء وسط
المدينة، بين مفترق طُرق، فقررنا المبيت فيها. أدينا الصلاة وتعشينا،
ثم افترشنا الأرض، وغطَّ كلُّ منا في نومٍ عميق.

وقبيل منتصف الليل، دوى صوتٌ حادٌّ: استيقظوا! قوموا!
للموا أمتعتكم!

فتحنا أعيننا، فإذا كتيبة من الجنود تحيط بنا، أسلحتهم مصوَّبة
نحونا، وضابطهم يسأل:

من أنتم؟ ولماذا تنامون هنا؟

قفز أحد أبناء العم مهللاً مرحباً، والثاني أسرع يقطع الحجب،
والثالث فرش البساط وقدم القهوة والشاي! أدهشهم ترحيبنا
العفوي، فابتسم الضابط، وقال متعجباً: ألا تخافون من اللصوص؟
فأجابه كبيرنا عبدالعزيز بن عبدالله الثنيان رحمه الله: نحن ضيوفٌ
من المملكة العربية السعودية، وفي المملكة من شرقها إلى غربها نصب
خيمنتنا حيث نريد، آمنين مطمئنين، وظننا أن العراق مثل المملكة!

شعر الضابط بالخرج، تبسم وأمر جنديين أن يحرسا مكاننا حتى
الصباح. ظلَّ المشهد عالِقاً بذاكرتي، كلما رأيت أمن بلادي تذكَّرتُ
تلك الليلة في البصرة، وأحمد الله على نعمةٍ لا تُقدَّر بثمن: نعمة الأمن
في وطنٍ آمِنٍ مطمئن.

«الثانية: حمير الطريق في تبوك»

وفي العام التالي ١٣٩٧هـ، سافرنا في إجازة الحج إلى سوريا، رحلة شبابية جديدة، رفاقها ثمانية، اقتطعنا من مدخراتنا ما جمعنا به سيارة جيمس مستعملة بـ ٤٠ ألف ريال، كانت رحلتنا مفعمة بالنشاط والحماسة، حتى إذا وصلنا ما قبل تبوك بثلاث مئة كيلومتر، كانت أمامنا شاحنة تُبطئ في سيرها، فظنّ سائقنا محمد بن عبدالله الشيان أنها ستتوقف، فانحرف لتجاوزها، وفجأة ظهرت أمامنا ثلاثة حمير، تعبر الطريق ببطء.

اصطدمت السيارة بالثلاثة، واختل توازنها، لكن الله سلّم، وأوقفها السائق بمهارة على طرف الطريق. نزلنا نحمد الله على السلامة، توقفت سيارة أمنٍ كانت بقربنا، وسألت إن كنا بخير، وأجبنا بنعم، ولم نعلم أن علينا أخذ تقريرٍ رسميٍّ عن الحادث، ثم واصلنا السير غير مُبالين، وحين وصلنا منفذ حالة عمار الحدودي، وبدأ الضابط يُختم جوازاتنا، جاءه آخرٌ وهمس في أذنه، فرفع رأسه وقال بصرامة: سيارتكم فيها آثار دماء، ووضع جوازاتنا في مكتبه وأغلقه، وخرج يتفحص السيارة، ورأى بقايا الحادث.

وسأل: فأجبناه أنها دماء حمير، فقال: وأين أصحاب الحمير؟

قلنا: «حمير سائبة، لم نَرَ معها أحداً، وتمنع من ختم الجوزات فرجوناه وعرضنا عليه إيداع قيمة تقديرية للحمير، فاتصل بأمير المركز الخريصي يستشير، فقال له: وإن يكن فوق الحمار راكب! وأمر بحجزنا حتى يأتي تقرير من أمن الطرق. فنصبتنا خيمتنا هناك، وانتظرنا طيلة الليل. وفي الصباح طالت ساعات الانتظار، فلهاتف الجوال لم نعرفه بعد، وإنما اتصال بين مراكز الشرطة عَبْرَ المبرقات. وقُرابة العصر في اليوم التالي ظهر موكبٌ رسميٌّ بسياراتٍ أربع، وسألنا أحد الضباط عن الموكب، قال: هذا الأمير سلطان السديري رَحِمَهُ اللهُ أمير الحدود الشمالية، مكتبه هناك، وأسرعنا إليه، ودخلنا عليه، فرحب بنا وأكرمنا بالقهوة، وعرفناه بشخصياتنا، وروينا له القصة، فحمد الله على سلامتنا، وقال لأحد رجاله: بلِّغوا ضابط الخفارة السماح لهم فوراً، وإن جاء من يطالب بقيمة الحمير، فقولوا له: عند السديري!.

شكرناه، وغادرنا المكان، وقد حملنا معنا دروساً لا تُنسى:

- لا تجاوز شاحنةً إلا بحذر.
- لا تغادر موقع الحادث دون تقريرٍ رسمي.
- لا تترك على سيارتك أثراً قد يُثير الريبة.

▪ صنائع المعروف، وإنزال الناس منازلهم، له رجاله، الأمير السديري نموذجًا.

هي دروس الحياة التي لا تُتعلَّم في الكتب.

«درس في عَمَّان»

بعد تلك الرحلات الشبابية، وحين كنتُ موظفًا في الصفوف الخلفية بوزارة التعليم، سافرت إلى الأردن لحضور مؤتمر تعليمي عن المناهج، وصار لي تجربة علمتني درسًا في الحذر من الرفقة؛ فبعد الوصول لعمَّان قُبل المغرب، عرض عليّ ثلاثة رِفَقَةٍ لقيتهم في الطائرة، صُحِبَّتُهُمْ للسمر في مقهى بضواحي العاصمة، واستجبتُ بدافع الفراغ ومعرفة الجديد، لكنني ما لبثت أن أدركت أن المكان والرفاق لا أصلح لهم ولا يصلحون لي، اختاروا مقهى في أطراف المدينة تحيط به الأشجار، جلسنا سويًا، وبدأت طلباتهم، وإذا بها مشروبات محرّمة، تُقدَّم في صوانٍ صغيرة، توجّست ريبةً، وقمت متذرّعًا بالذهاب إلى دورة المياه، لكن المكان مظلم، والعودة أقرب من الضياع، جلست متحفّظًا، طلبت مشروبًا غازيًا، وأيقنت أني لا ينبغي أن أرافق من لا أعرف سلوكهم.

ومنذ تلك الليلة، كان درسي أن الرفقة الطيبة زاد السفر وأمن الطريق.

«لقاء في مدريد»

كنا في وفدٍ تعليمي نَدْرُسُ التجربة الإسبانية عام ١٤١٨ هـ،
وفي لقاءٍ مع نائب وزير التعليم الإسباني، دار حوارًا لا أنساه،
سألته: أنت الرجل الثاني في الوزارة، فما الذي يشغلك وتُفكِّرُ
في علاجه كل صباح؟

قال: أفكر في المدارس التي فرغت وتفرغ من الطلاب، ماذا
نفعل بها وبمُدْرَسيها؟
لدينا تناقص سكاني مقلق.

قلت مبتسمًا: ألا تُهدينا تلك الزيادات، نحنُ في المملكة نعيش
العكس تمامًا!

سأل متعجبًا: وكم نسبة النمو السكاني عندكم؟
قلت: ما بين اثنين إلى ثلاثة في المئة، تلفت لزملائه دهشةً
واستنكارًا، وكأنه لا يصدق.

قلت: خذ الدليل، نحن سبعة وأنتم سبعة، كم أولادكم؟
عدّوا، فكانوا خمسة فقط!

ثم عدّ زملائي فإذا أبناءنا أربعة وخمسون!
وقف الأسبان مذهولين، وقال أحدهم: كيف تستطيعون
السيطرة على هذه الأعداد؟

كيف توفرون لهم التعليم والعمل؟
 فقلت مبتسمًا: هو الله الرازق، والأُمور تسير بخير!
 كان هذا قبل عشرين عامًا ولكن الآن تغير الواقع في المملكة
 وقلَّت نسبة الإنجاب وهذا ما يجب التنبه له وتداركه فالمملكة
 بحاجة لزيادة السكان لا نقصهم.

«طهران وفضول المعرفة»

في عام ١٤٣٣ هـ زرتُ إيران للمرة الثانية لحضور معرض الكتاب
 الدولي في طهران، كانت الرحلة الأولى رسمية ضمن وفد مجلس
 الشورى، أما هذه الرحلةُ فمختلفة، لم تكن رحلة قراءةٍ فحسب،
 بل رحلة تأملٍ في واقعٍ مغاير، كنتُ أبحث عن المعرفة، لا في الكتب
 وحدها، بل في وجوه الناس، وأساليب عيشهم، ومظاهر عقيدتهم،
 رافقني صديقٌ قديم من زملاء الفكر والهَمِّ، ومعنا ناشرٌ إيرانيٌّ سنيٌّ،
 يُجيد العربية، عرفتهُ من مشاركته الدائمة في معرض الرياض الدولي
 للكتاب، رجلٌ لطيف المعشر، واسع الاطلاع، يقرأ ما بين السطور،
 وأكثر مما في السطور، بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث في طهران،
 حدَّثنا عن مدينةٍ يراها أهلها مركزاً روحياً كبيراً، مدينة (قُم)، وعن
 مسجدٍ هناك يُسمَّى مسجد جَمْكَران، له منزلةٌ عظيمة في نفوس

الإيرانيين، وأن أعمال توسعته تجري على قدم وساق. وتحرك في فضول الباحث، فقلت له: فلنزره. أريد أن أراه بعيني، لا من وراء السطور، ابتسم وقال: سترى ما يُدهشك، فهناك تلتقي العقيدة بالعادة، والإيمان بالخرافة، انطلقنا في صباح اليوم التالي من طهران نحو (قم)، وفي الطريق وقبيل وصول مدينة (قُم) رأينا مبنى ضخماً، توقفنا عنده ودخلنا ننظر، فإذ به قبر الخميني، صار مزاراً من المزارات الإيرانية التي يشدون لها الرحال، والعياذ بالله.

و حين وصلنا مدينة (قم)، وتجولنا في أحيائها، استوقفنا مبنى متعدد الأدوار، قالوا: هذا مركز [تبليغات]، أحسبه دار الفتوى لديهم، وبجواره مسجد، دخلنا وصلينا فيه الظهر والعصر جمعاً وقصرًا، وقبل أن نخرج تقاطرت العمام من مركز تبليغات، وجلسنا نرقب صلاتهم، وإذ هم يصلون خلف إمامهم، ولكن لاحظنا بعضهم يُنهي صلاته قبل الإمام ويخرج، وآخرون يجلسون ويضربون بأكفهم على أفخاذهم، بِطَرَقَاتٍ تَعْلُو أصواتها، وتركناهم في حالهم تلك، وخرجنا من المكان، واتجهنا نحو مسجد جمكران، وإذ هو في مكان فسيح لوحده، وتجري توسعته، ولكن ما شدني أكثر هو معلّم بجواره، تُحشد عنده الجموع، سألت مرافقي: ما هذا؟!

فقال: هو بئر جمكران، بئر إمام الزمان، كما يسمّونه.

بئر «إمام الزمان»

اقتربنا من المكان، وإذ هو بئرٌ بارزٌ للعيان، ذو فتحة دائرية صغيرة، وبجواره بناءٌ صغيرٌ مستطيل الشكل، له شبايك صغيرة، وخلف كل شباكٍ موظفٌ يجلس أمام صندوقٍ من الأوراق، وأمام كل شباكٍ طابورٌ طويل من الرجال والنساء والشباب. كان المشهد أشبه بمكاتب بيع التذاكر في محطات القطار، لكنّ التذاكر هنا ليست للسفر على الأرض، بل لما يظنون أنه سفرٌ إلى الغيب.

كُنْتُ أراقب الناس، كلٌّ منهم يدفع مبلغًا من المال، ويأخذ ورقة صغيرة يقرأها بعجلة، ثم يقذفها في فتحة عميقة، تُسمّى البئر. يتنهد بعدها، وكأنه أدّى فريضة.

سألت أحد الواقفين عن سرّ هذه الأوراق، فقال بلهجة مطمئنة: «هذه العروضيّة، أدعية جاهزة تُلقى في بئر الإمام، تُباع بعدة لغات، من ألقاها نال حاجته بإذن الإمام!».

تملكني الفضول، فاصطففتُ معهم، كأني واحدٌ من الحشود. وحين وصلتُ إلى الشباك، طلبت ورقةً بالعربية، دفعتُ ثمنها، وأخذتها، واحتفظتُ بها للذكرى، مُرفق صورتها.

عریضه به خدمت حضرت بقیة اللہ الاعظم امام زمان (عجل اللہ تعالی فرجه)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

کَتَبْتُ بِأَمْرٍ لَا يَزَالُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْكَ مُشْتَعِلَةً، وَشَكَوْتُ مَا نَزَلَ بِي مُشْتَجِرًا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَكَ مِنْ أَمْرِ قَدْ دَفَنْتِي وَأَشْغَلَ قَلْبِي وَأَطَالَ فِكْرِي، وَشَلَّتِي بَعْضَ لُحْيِي وَغَيَّرَ خُطْبِي: نِعْمَةَ اللَّهِ عِنْدِي، أَسْتَلْتِي عِنْدَ تَحْيَلِي وَرُودِهِ الْخَلِيلِ، وَثَبْرَةٍ مِنِّي عِنْدَ تَرَانِي إِفْهَالِهِ إِلَهِي الْحَكِيمِ، وَعَجَزْتُ عَنْ دِفَاعِهِ جَيْشِي وَخَاشِي فِي تَحْلِيلِهِ ضَيْرِي وَتَوْتِي، فَلَجَأْتُ فِيهِ إِلَيْكَ وَتَوَكَّلْتُ فِي الْمُسْتَلْةِ لَهُ جَلُّ شَاوَرِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْكَ فِي دِفَاعِهِ عَنِّي عِلْمًا بِمَكَانِكَ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِي التَّدْبِيرَ وَمَالِكِ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا بَكَ فِي النَّسَارَةِ فِي الشَّفَاعَةِ إِلَيْهِ جَلُّ شَاوَرِهِ فِي أَمْرِي، مُشَقًّا لِجَانِبَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِيَّاكَ بِإِعْطَائِي سُلُوبِي، وَأَنْتَ يَا مَوْلَايَ! جَدِيدُ بَشْعَقِي طَلْبِي وَتُعْصِدِي أَسْلِي فِيكَ فِي أَمْرٍ كَذَا وَكَذَا (به جای کذا و کذا حاجات خود را بنویسد)

فَمَا لَا طَاقَةَ لِي بِحَلِّهِ وَلَا ضَرْبَ لِي عَلَيْهِ، وَإِنْ كُنْتُ مُشْتَقًّا لَهُ وَلِأَسْعَافِهِ بِقَبِيحِ أَعْمَالِي وَتَفْرِيعِي فِي الرَّاغِبَاتِ الَّتِي لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَغْنِي بِأَمْرٍ لَا يَزَالُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْكَ عِنْدَ التَّلَهَّبِ، وَقَدِمَ الْمُسْتَلْةَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَشْرِي قَتْلَ حُلُولِ الثَّلَبِ وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ، فَبِكَ تَسْتَطِيعُ الْبَغْتَةَ عَلَيَّ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ جَلُّ جَلَالُهُ لِي نَصْرًا عَزِيمًا وَفَتْحًا قَرِيبًا فِيهِ يُلَوِّغُ الْأَمَالِ، وَخَيْرَ النَّبَادِي، وَخَوَاتِيمِ الْأَعْمَالِ، وَالْأَمْسُ مِنَ التَّخَاوُبِ كُلِّهَا فِي كُلِّ حَالٍ، إِنَّهُ جَلُّ شَاوَرِهِ لِمَا يَشَاءُ فَعَالَ، وَهُوَ خَشِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فِي الْمُنْدَرِ وَالنَّالِ.

آن گاه کنار نهر آب پا چاه بایستد و یکی از نمایان حضرت (عثمان بن سعید عمروی، محمد بن عثمان عمروی، حسین بن روح نوبختی، علی بن محمد سمری) را در نظر آورده و صدا نماید و بگوید: سلام عَلَیْكَ! أَشْهَدُ أَنَّ وَفَاتَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنَّكَ حَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مَرْزُوقٌ، وَقَدْ خَاطَبْتُكَ فِي حَيَاتِكَ الَّتِي لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذِهِ رُفْعَتِي وَحَاجَتِي إِلَى مَوْلَانَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَلِّمْهَا إِلَيْهِ، فَأَنْتَ الْيَقَّةُ الْأَمِينُ.

سپس نوشته (عریضه) را در نهر پا چاه اندازد، آن شاء الله حاجات او برآورده خواهد شد.

ونظرتُ وإذ فراغ في عروضيتهم أوسط الصفحة وسألت عنه
قالوا هذا الفراغ متروك ليُضيف الزائر ما في ذهنه من أدعية أخرى
يرى أهميتها ويكتبها في هذا البياض الشاغر.

وقرأتُ ما هو مكتوب فإذا فيها كلماتٌ تشهد على انحراف العقيدة،
يقول فيها: «... واثقاً بك في المسارعة في الشفاعة إليه، جلّ ثناؤه في
أمري، متيقناً لإجابته تبارك وتعالى إياك، بإعطائي سؤلي».

كلماتٌ تفيض استغاثةً بغير الله، وتقديساً لإنسانٍ يُرفع إلى مقام الربوبية!
أغمضتُ عيني لحظةً، كأني أستمع إلى صدى التاريخ القديم،
حين قال كفار مكة عن أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

هو الشرك نفسه، ولكن بثوبٍ جديدٍ، وشعاراتٍ مختلفةٍ.

«حين تُربّ الخرافة»

المشهد لم يكن يقتصر على العامة، بل كان منظماً بعناية تربوية!
رأيتُ عشرات الحافلات المدرسية تقف أمام المكان، ينزل منها
طلابٌ صغارٌ في زيٍّ موحدٍ، يتقدّمهم المعلمون، يشترون الأوراق،
ويُلقونها في البئر بابتسامةٍ واطمئنانٍ.

كأنهم يؤدّون تمريناً تربوياً لا طقساً بدعياً.

كانت تلك اللحظة مؤلمةً إلى أقصى مدى، أن ترى الجهل يُربّى باسم الدين، والخرافة تُغرس في قلوب الصغار باسم الولاء.

تساءلتُ بيني وبين نفسي: كم من الأجيال سيكبر على هذا الضلال، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟

رفعتُ بصري إلى السماء، وقلت في نفسي: «اللهم اهدِ ضالَّ المسلمين، وأرهم الحقَّ حقاً وارزقهم اتباعه، وأرهم الباطل باطلاً وارزقهم اجتنابه».

خرجنا من المكان، ونحن مثقلان بالأسى، نمشي صامتين بين الحشود التي تتقاطر من كل صوب، وفي القلب غصةٌ من مشهدٍ يعيدك إلى ما حذر منه الوحي منذ قرون. ذلك اليوم لم يكن مجرد زيارة، بل رحلةً في عمق الفكر الإنساني حين يضلُّ عن النور، وحين يستبدل الهدى بالعاطفة، والإيمان بالعادة.

قُلْتُ وأنا أدوّن تلك الذكرى:

لقد عدتُ من جَمكران بزادٍ من الحزن واليقين معاً؛ حزنٍ على ما آل إليه حال بعض المسلمين، ويقينٍ بأن النور لا يُطفأ وإن حجبته الدخان.

«تأملات الختام»

هذا، وأخيراً فقد علّمتني الأسفار: أن الدروس لا تأتي من المكاتب وحدها، بل من الطرقات، ومن المواقف، ومن المقارنات التي تراها بعينك، علّمتني الأسفار أن كل بلدٍ يحمل دروسه: في بصرة العراق عرفت قيمة الأمن.

وفي تبوك تعلمت الحذر.

وفي عمّان عرفت معنى الرفقة الصالحة.

وفي مدريد أدركت التحدي التنموي.

وفي جمكران أيقنت أن الهداية نعمةٌ، لا تُقاس بوفرة المساجد ولا زخارفها، بل بنور التوحيد في القلوب.

وهكذا يبقى السفر مرآةً تُريك ذاتك، قبل أن تُريك العالم، تجدد فيك الإحساس بالحياة، وتزيدك يقيناً بأن أعظم رحلات الإنسان، هي تلك التي تنقله من الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى البصيرة، والسفر لا يُريك الأرض وحدها، بل يُريك نفسك، ويفتح لك نوافذ على الناس والدين والدنيا.

وكم من مسافرٍ عاد إلى وطنه كما خرج، وكم من آخرٍ عاد وهو إنسانٌ جديد.

أشيعي أنت أم سُني؟

سؤالٌ طُرح عليَّ في مقهى بطهران!

في ظهر يوم الأحد الموافق ٨ / ٤ / ١٤٢٤ هـ، حَطَّت بنا الطائرة في مطار طهران؛ إذ كُنْتُ ضمن وفد مجلس الشورى برئاسة معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد، في زيارة لمجلس الشورى الإيراني، وكان في استقبالنا بالمطار السيد مهدي كروبي وعددٌ من أعضاء مجلس شورى إيران، والقائم بأعمال سفارة المملكة في طهران، وهناك كانت لنا لقاءات مع بعض المسؤولين الإيرانيين؛ إذ زرنا في اليوم الثاني مجلس الشورى الإيراني، وتعرفنا على مجلسهم، وصارت لنا أحاديث جانبية مع بعض الأعضاء. وفي عصر ذاك اليوم الإثنين، زرنا متحف المجوهرات في البنك المركزي الإيراني، واطلعنا على محتويات المتحف الثمينة، ومنها سرير أحد ملوك القاجانيين، وكلُّهُ مُوشى بالذهب والأحجار الكريمة، ولفتت أنظارنا قطعة ذهبٍ لامعة قالوا: إنها تُربط في ذيل حصان ذاك الملك، ومجوهرات من الزمرد الأزرق على شكل قلادة تُربط فوق غُرَّة الحصان ليطردها الذباب عن وجهه،

وأنواعٌ متعددةٌ من حُلِي الرجال والنساء وأدواتهم المنزلية الموشاة بمختلف أنواع الأحجار الكريمة والمجوهرات والألماس التي تفوق الخيال، وتدل على الترف، وتوحي بالعبارة لكل زائر أن البقاء لله، ومهما نال الإنسان في هذه الدنيا من نعيمٍ فهو زائل.

والتقينا وزير الخارجية الدكتور خرازي، وفي يوم الثلاثاء كانت لنا جلسةٌ مطولةٌ مع السيد هاشمي رفسنجاني رئيس مصلحة تشخيص النظام، وذلك في مكتبه الذي يقع في قصر قديم وسط بستانٍ كثيرةٍ حدائقه، وأحسب ذاك القصر يحكي قصةً جاهٍ دُنيوي رحل، وثرأٍ انطوى، وقومٍ صاروا في ذِمَّةِ التاريخ، تلك الدنيا دُول.

والتقينا كذلك بالرئيس خاتمي، وزرنا رابطة الثقافة والاتصالات الإسلامية، واجتمعنا بوفد من العلماء؛ شيعةً وسنة، وأتذكر في تلك الرابطة أنني جلست والزميل الدكتور زيد الحسين مع شيخٍ سُنيٍّ من منطقةٍ يسكنها السُّنة، وقد تحدث هذا الشيخ عن مشكلات السُّنة ومعاناتهم وهمومهم بصوتٍ خافت؛ حيث يخشى أن يسمعه أحد، وكان يتحدث والخوف يملأ جوانحه، ويود أن يقول كلامًا كثيرًا، ولكن المكان لا يسمح بذلك، كما التقينا بشيخٍ سُنيٍّ آخر، وكان يشارك الشيخ الأول في رأيه بأن أهل السُّنة يلقون معاناةً وهمومًا في إيران، وأنه لا مسجد لأهل السُّنة في طهران، وقال إن منطقتهم

في الشمال الشرقي لإيران، وأنها سياحية، وكانت مركزاً للأمريكان إبان مدة حكم الشاه، وأنها مشهورة بجمال الطبيعة؛ حيث الخُضرة والأنهار، وفيها ثلاثة أشياء: السجادة الفاخرة، والفَرَس الجميلة، والبنت الأجل. وقد قدّم لنا هدية تذكارية (زعفران وحلوى إيرانيًا).

وعلى هامش تلك الزيارة، كانت لنا جولات فردية خاصة، وفي ذات يوم بُعيد صلاة العصر، صحبتُ الزميل والصدّيق الدكتور زيد بن عبدالمحسن الحسين، وخرجنا من الفندق في جولة رياضية استطلاعية، واستوقفنا مقهى جبليّ جميل، فقرّرنا الجلوس فيه، وحين قدّم لنا النادل الإيراني أكواب الشاي، أدرك بفطنته أننا زوّارٌ، فرحّب وهلاً باللغة العربية، وردّيتُ عليه التحية بأحسن منها، وبادرتُه بالسؤال عن اسم المكان، وأشعرته -مُجاملةً- إعجابي بطهران وأهلها، فأجاب، ثم سألني وقال: يابا: أنت شيعيٌّ أم سُنيٌّ؟ وكان بقربه رفاقٌ له يعرفون اللغة العربية مثله، قد تنبّهوا إذ سمعوا السؤال، فأشرتُ للجميع، وطلبتُ منهم الجلوس ليسمعوا جوابي.

قلتُ: جوابي لك فيه شرحٌ وإيضاح: أنا مسلم، أحب سيدي رسول الله ﷺ، وسيدي علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، كما أحب السيدين الكريمين؛ الحسن، والحسين عليهما السلام، ولو كنت حاضراً مقتل سيدي الحسين لبذلتُ دمي وروحي فداءً له، كما

أترضى على سيدي علي بن الحسين زين العابدين، والإمام موسى بن علي الكاظم، والإمام جعفر الصادق، ومضيتُ أذكر أئمة آل البيت الإثني عشر، وأترحمُ عليهم بصوتٍ حزين، وما أن ختمتُ حديثي بذكر فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حتى صفق الجميع، وقالوا بصوتٍ واحد: أنتَ شيعيٌّ، أنتَ شيعيٌّ. قلتُ لهم: لا تتعجلوا دعوني أكملُ لكم لتعرفوا مَنْ أنا؟

قالوا: كيف، وهل بقي شيء؟

قلت: نعم، اسمعوا وركّزوا؛ فبقدر حُبِّي لآل البيت، أحبُّ سيدي وسيدكم أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخليفته، وسيدي وسيدكم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أوصل راية الإسلام إلى دياركم، ونقلكم من الشرك وعبادة النار إلى الخير وعبادة الله، وذا النورين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زوج ابنتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أحبُّ أمِّي وأُمَّكم الطاهرة عائشة أمنا جميعاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها

قالوا: يا با، حيرتنا مَنْ تكون؟

قلت لهم: هذا هو أنا، وهو مذهبُ كلِّ سعودي في المملكة العربية السعودية، نُحبُّ جميع الأئمة من آل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وَنُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ فِي صَلَوَاتِنَا، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ نُحِبُّ صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَرَامَ، وَنَتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ، وَنَتَرْضَى عَنْهُمْ، وَغَادَرْتُ وَصَاحِبِي الدَّكْتُورَ زَيْدَ الْمُقَهِّي، وَهُمْ يَتَنَاظَرُونَ وَيَعْجَبُونَ.

وَفِي مَسَاءِ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ١٠ / ٤ / ١٤٢٤ هـ، كُنَّا مَدْعُوِينَ لِلْعِشَاءِ فِي السَّفَارَةِ السَّعُودِيَّةِ بِطَهْرَانَ، وَفِي السَّفَارَةِ كَانَ الْاِسْتِقْبَالُ، وَمِنْ بَيْنِ الْمَدْعُوِينَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ الْإِيرَانِيِّينَ، جَلَسَ بِجَوَارِي أَحَدِهِمْ، وَتَحَدَّثَ إِلَيَّ بِالْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى، وَعَرَّفَ بِشَخْصِيَّتِهِ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ أَوْ هُوَ أَحْمَدُ نَعْمَانِي، وَأَنَّهُ يَعْمَلُ مُسْتَشَارًا لَدَى الرَّئِيسِ خَاتَمِي، وَمَا أَن شَرَعْتُ بِالْحَدِيثِ مَعَهُ حَوْلَ الزِّيَارَةِ، إِلَّا وَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتُمْ طَهْرَانَ، وَهَلْ حَدَّثَ لَكُمْ مَوَاقِفَ اسْتَوْقَفْتُمْ؟

قُلْتُ لَهُ مُجَامَلًا: وَجَدْنَا طَهْرَانَ مُرَحَّبَةً مُتَحَفِيَّةً، وَعَصْرُ هَذَا الْيَوْمِ صَارَ لَنَا مَوْقِفٌ فِي الْمَقْهَى الْجَبَلِيِّ الْقَرِيبِ مِنَ الْفَنْدَقِ الَّذِي نَسْكُنُ فِيهِ.

فَقَالَ: وَمَا الَّذِي حَدَّثَ؟

قُلْتُ: سَأَلُونِي: أَشِيعِي أَنَا أَمْ سُنِّي؟

قَالَ: وَمَاذَا أَجَبْتَهُمْ؟

قُلْتُ: بَيَّنْتُ لَهُمْ حَبِّي لِآلِ الْبَيْتِ، وَتَرْضَيْتُ عَلَيْهِمْ، وَأَعَدْتُ عَلَيْهِ مَا قُلْتُهُ فِي الْمَقْهَى، فَتَبَسَّسَ، وَقَالَ: حَتْمًا سَيَقُولُونَ إِنَّكَ شِيعِي.

قلت له: صَفَّقُوا وقالوا ذلك، ولكنني ذكرتُ لهم بعد ذلك مُعْتَقْدِي وهَوَّيْتِي!

قال: وماذا قلت لهم؟

قلت له: أَكَّدْتُ لهم مَحَبَّتِي ومُعْتَقْدِي في أبي بكر وعمر وعثمان وأُمّ المؤمنين الطاهرة المُطَهَّرة حبيبة رسول الله ﷺ وزوجته عائشة، ورويتُ له حوارِي كُلَّهُ مع أولئك البُسطاء، وما أن أكملتُ له مقالتي حتى احمرَّت عيناه وحدَّقَ بي بشراسة واستنكار، وقال: هذا الكلام يُربك، ولا يُقال هذا الحديثُ هنا في طهران. وأردف متسائلاً: أنت ما هي درستك، وما هو تخصصك، وماذا تعمل؟

وأجابه الزميل الجالس بجواري الدكتور محمد المرزوقي، وقال له: الأخ عبدالعزيز رجلُ تعليم، ويعمل في التعليم، فطأطأ المسؤول الإيراني رأسه، وهو يُتمتم بالفارسية ولست أدري ما يقول!

وقد ظلَّ هذا الموقف حاضراً بالذهن؛ فأولئك البُسطاء تساءلوا مختارين كيف تجتمع محبة آل البيت، وأصحاب رسول الله ﷺ وزوجته عائشة؟! إنهم مساكين لُقِّنوا أننا معشر السنة نكره آل البيت، ويتحمَّلُ ذاك السياسي وأمثاله وِزَرَ تجهيلهم وشحنَ صدورهم بالكراهية والحقْد. نور الله البصائر، وجمع شمل المسلمين!

هذا، وفي البرلمان الإيراني كان لي حديث جانبي مع مُعَمِّم يتحدث
العربية بطلاقة، أحسبُه في الخمسين من عمره سألني: ما هو رأيكم
في مقتل سيدنا الحسين بن علي؟

قلت: أو تُريدُ الحقيقة؟

قال وهو يتسم: أريد عين الحقيقة!

قلت له: اقرأ مراجع العلم ومصادره المعتمدة تجد الجواب؛
فشيخُ علمائنا في المملكة الإمام ابن تيمية يقول في فتاويه الجزء: ٤
صفحة: ٤٨٧ ما نصُّه: «وأما مَنْ قتل الحسين، أو أعان على قتله،
أو رضي بذلك: فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ لا يقبل الله
منه صرفاً ولا عدلاً».

قال الرجل المعمم الإيراني: أسألك بالله، وهل هذا هو رأي علمائكم؟
وعجبتُ من قوله فيا ترى أيتجاهل أم هي حقيقته؟! لست أدري!
قلت له: اسمع معلومةً أخرى: لقد سمى شيخ علمائنا الآخر
محمد ابن عبدالوهاب أبناءه: الحسن والحسين، وسمى ابنته فاطمة،
وكذلك هم علماء المملكة.

إن المُغالطات التاريخية، والتزوير في الروايات داء الفرقة، وسبب
البلاء، وهو ما يجب تصحيحه وتنقيته، فأعداء الإسلام ينشدون

فُرقة المسلمين والإيقاع بينهم، وهو ما حذر منه القرآن الكريم
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحُوا عَلَى مَا
فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].



صلاةُ العصر

من ذكريات السفر الرحلة المغربية للمشاركة في مؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي هناك عام ١٤٣٦ هـ، وفي طائفة السفر كان الموقف الذي ما حسبتُ أن يكون له ذاك الصدى وتلك الشهرة، وهو قصّةُ صلاة العصر بعد ركوب الطائرة وتأخرها في مطار الملك خالد، وكتبتُ مقالاً حول اختلاف العلماء واجتهادهم في أداء صلاة عصر ذاك اليوم، وبعد أن نشرته، وردّتي اتصالاتٌ تَثَبَّتْ من صحته، وبين الحين والآخر يردني تساؤلُ التثبّت؛ ولذا أعيد نشره في هذه السوانح.

قلت في ذلك المقال المنشور: تُنظم الندوة العالمية للشباب الإسلامي كلّ أربع سنوات مؤتمراً عالمياً تحضره شخصياتٌ علميةٌ وفكريةٌ من عدّة دول إسلامية، ويشارك فيه شيوخٌ وشبابٌ رجالٌ ونساءٌ، وفي هذا العام انعقد المؤتمر في مراكش، وكان الموضوع الرئيس للمؤتمر (الشباب في عالم متغير).

وقد استكثبت الندوة للقاء عدداً من ذوي الرأي والفكر؛ شيوخاً وشباباً، رجالاً ونساءً، ولأول مرة أشارك في لقاءات

الندوة. ومنذ حضوري لمطار الرياض للسفر إلى مراكش وأنا أتلقى دروسًا ذات فائدة وأثر؛ فالدرس الأول وجدته بعد صعودي الطائرة. فكلنا يقرأ تطاول البعض على علماء المملكة ووصفهم بالتشدد، ولو صحبوهم وحاوروهم لعرفوا البساطة، والفهم، والتيسير، والرفق، والفرق بين الجواز والأفضل، والحسن والأحسن. ولقد شرفت في يوم ٧ / ٤ / ١٤٣٦ هـ، بصحبة كوكبة من هيئة كبار العلماء إلى مراكش، وكان موعد صعود الطائرة قبيل أذان العصر؛ أي قبل دخول الوقت، وكنت قد صليت الظهر مع الجماعة في المسجد قبل توجهي إلى المطار، ووصلت للمطار، وبعد إغلاق بوابة الطائرة، أعلن قائدها عن تأخر الإقلاع لظروف الملاحة الجوية، وانتظرنا وحن وقت صلاة العصر، وكان بجواري فضيلة الشيخ الدكتور عبدالله المطلق، وقلت له: حان وقت الصلاة، وسوف نصلي العصر، فرد علي أنه سبق أن صلى. وبعد أن صليت وتبعت حالة المسافرين معنا، وإذ هم قد أدوا صلاة العصر وفق حالاتٍ متعددةٍ تتبعتها كالتالي:

الحالة الأولى: الشيخ عبدالله المطلق وصل للمطار فأدى صلاة العصر ركعتين، وقال: إنه صلى وفق قول شيخ الإسلام ابن تيمية بجواز الجمع، وعدم شرط التوالي بين الصلاتين المجموعتين، فرسول

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحج صلى المغرب، ثم قام الصحابة بتنزيل رحالهم وبعد ذلك صلى العشاء، فكان الفصل بين الصلاتين.

الحالة الثانية: الشيخ عبدالله المنيع انتظر في المطار، ولم يصل، وركب الطائرة، وبعد دخول الوقت صلى بالطائرة قصرًا، وسأله، فقال: إنه يرى أن المطار جزء من المدينة، ولم يقع ما يجوز معه القصر، ولم يشرع في سفره، وعندما ركب الطائرة (راحلة السفر) شرع في السفر، وبعد دخول الوقت وقبل الإقلاع، صلى العصر قصرًا ركعتين.

الحالة الثالثة: الشيخ صالح بن حميد، وصل للمطار ولم يكن قد أدى صلاة الظهر في الرياض، فصلّى في المطار الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، وسأله، فقال: فعلت ذلك في المطار؛ لأنني قد نويت وعزمت على السفر؛ ولهذا صليت جمعًا وقصرًا قبل ركوب الطائرة.

الحالة الرابعة: الشيخ سعد الشثري، وصل للمطار وكان قد صلى الظهر في الرياض، وفي المطار أعاد صلاة الظهر وصلّاها قصرًا، ثم صلى العصر قصرًا أيضًا.

الحالة الخامسة: بعض المشاركين صلى الظهر والعصر في الرياض جمعًا وليس قصرًا، وسأل الشيخ عبدالله المطلق فأجاز ذلك، وكذلك أجازهُ الشيخ صالح بن حميد.

الحالة السادسة: رواها الشيخ عبد الله المطلق، أنه يجوز الصلاة في البيت أداء الفرضين الظهر والعصر جمعًا وقصرًا بناءً على نية وعزيمة السفر، فالصحابي أنس بن مالك وأبو بصرة الغفاري جمعًا وقصرًا قبل ركوب الرحلة. وبناءً عليه، لو صَلَّى الظهر والعصر جمعًا وقصرًا في بيته بناءً على نية وعزيمة السفر جاز له.

وبعد، فهؤلاء علماء المملكة؛ فهم للنصوص، واجتهاد في التفسير، وتنوع في الفتوى، واحترام لاجتهاد الآخر، وكلهم من مدرسة فكرية واحدة، إنها الوسطية والسماحة. بارك الله بهم، ونفع بعلمهم.

هذا، وكانت رحلات ورحلات، ليس هذا موضوع ذكرياتها.



افتح الشبابك

في لحظة صفاء ذهني وأنا أكتب فصول هذا الكتاب (لؤلؤ وحصي) تذكرت ما قرأته في كتاب (قيمة الزمن عند العلماء) للشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وكيف كان العلماء يُحافظون على الوقت ويحسبون حسابَه، يقول الإمام الشافعي: **نفسُك اشغِلها بالحق، وإلاَّ اشغَلتكَ بالباطل.**

وحُكي عن العالم اللغوي المُحدِّث ثعلب تُوفي سنة ٢٩١هـ، أنه كان لا يُفارقُه كتابٌ يدرُسُه، فإذا دعاه رجلٌ إلى دعوة، شَرَطَ عليه أن يُوسِّع له مقدارَ مِسْوَرةٍ - وهي المُتْكَأ من الجلد - يضع فيها كتابًا ويقرأ^(١).

ورأيتُ أنا عبدُالعزیز الثنيان فضيلةَ الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في دعواته كذلك؛ ذات عامٍ استجاب الشيخ لدعوة والدي عبدالرحمن رَحِمَهُ اللهُ في بيتنا بحي الشفا بالرياض، وبعد حضوره والسلام، سَمَى بالله وشرع مرافقه يقرأ ثم يُعلِّقُ الشيخ. علماء حفظوا أوقاتهم، وأبقوا لهم الباقيات الصالحات.

(١) قيمة الزمن عند العلماء (ص ٧٦).

قال الشيخ أبو غُدَّة رَحِمَهُ اللهُ: «من أغرب ما جاء عن السلف في حفظ الوقت والمبادرة إلى تلقي العلم وسماع الحديث فيه، خشية انفلت الزمن: ما وقع للإمام أبي عبدالله سفيان بن سعيد الثوري. فقد ورد أنه قدم البصرة فلما نظر حماد بن سلمة، قال له: حَدَّثَنِي حَدِيثَ أَبِي الْعُشْرَاءِ عَنْ أَبِيهِ؛ فقال حماد: حَدَّثَنِي أَبُو الْعُشْرَاءِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا تَكُونُ الذَّكَاءُ إِلَّا فِي الْحَلْقِ وَاللِّبَةِ^(١)؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ طَعَنْتَ فَخَذَهَا لَأَجْزَأَكَ». قال الفقهاء: هذا عند الضرورة كالتردية في البئر وأشبهِه، والنافرة والمتوحشة. ولما فرغ حماد من الحديث أقبل عليه سفيان، فسَلَّمَ عليه واعتنقه، فقال حماد: من أنت؟

قال: أنا سفيان، قال: ابن سعيد؟ قال: نعم. قال: الثوري؟ قال: نعم، قال أبو عبد الله؟ قال: نعم.

قال: فما منعك أن تُسَلِّمَ عَلَيَّ، ثم تسأل عن الحديث؟

قال: خشيتُ أن تموتَ قبل أن أسمع الحديث منك^(٢).

كان للوقت عندهم قيمة، وكان العمل الصالح ماثلاً أمامهم.

(١) الذكاة: أي الذَّبْحُ للحيوان المأكول، واللبة للبعير موضع نحره.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء (ص ٥٢).

لقد بقيت لهم هذه الذكريات العلمية الخالدة فتعلّمنا منهم،
وترحمنا عليهم.

ولهذا استعدتُ -أنا عبدالعزيز الشيان- شريط الذكريات،
والأيام الماضية من عمري، وما بقي في الذاكرة من أعمال، فرأيت
عجباً؛ رأيت طفولتي وطفاعتي، وفتوتي وشبابي، وأشدّي وكهولتي،
وقوّتي وضعفي، وسروري وألمي، ويوم كنت طالباً، ويوم كنت معلماً،
وحين كنت موظفاً في الصفوف الخلفية بوزارة التعليم، ثم مسؤولاً
كبيراً في التعليم، وماذا عملتُ بعد تقاعدي، وتذكّرتُ مَنْ أحبّوني،
وَمَنْ جفّوني، وَمَنْ وَمَنْ، ومثّل أمامي ما بقي في الذاكرة، ونسيتُ
كثيراً منهم...

لقد انطوت مراحل العمر، وذهب الجاه والمتزلفون، وغاب
المتحلّقون والمستفيدون، وأفلت شمسُ حياتي وزهرتها، واصفرَّ
قُرْصُ دُنْيَاي ودانَ رحيلي، وحادثتُ نفسي: بأن الإنسان مهما كان
عمله، وأيّاً كان مركزه، وكيفما تحقّق له من مالٍ وجاهٍ، لا شيء
يدوم؛ الكراسي تدور، والمال يزول، والعمر يُنطوي، هذا راحلٌ
وذاك قادم، هذا قائمٌ وذاك قاعد. هذا ندبُه محبّوه وشَمَتَ به قائلوه،
وذاك أسرع إليه المنافقون، وصفّق له المتزلفون، هي الدنيا شهواتها
خداعة، وملذّاتها جاذبة، لكن تبقى الباقيات الصالحات، ماذا بقي

لك يا عبدالعزيز، ماذا قدّمت؟ هل أدّيت الأمانة في مختلف أعمالك؟ وهل قُمتَ بالمسؤولية؟ أم حابيت وقربت؟ وهل وفيت بالزمن وما طفّفت؟ أم اختلست وغفلت؟ وهل استحضرت حسن النية في العمل؟ أم سهوت وسدرت؟ وهلاً تداركت الزمن وغلبت أعمال الباقيات الصالحات؟ هذه تساؤلاتي اليوم في دنياي فكيف بسؤالِي في آخرتي، ربّاه أسألك المغفرة.

إن هذا الكتاب، وإن كان سيرة ذاتية، لكنه تذكير لي ولغيري بأن نستحضر الباقيات الصالحات في أعمالنا، وأن نتذكر الماضي دوماً، ونستغفر من الزلل والخطل، ونزيد من الأعمال الصالحة، طالما فينا نفسٌ يتردد.

افتح شباك العمل الخيري بنية صادقة، ستجد عون الله وتوفيقه.
اختر لنفسك ما يعود عليها بالفائدة في آخرتك، فكلُّ عملٍ مُدَوّن ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وحتماً سيأتي يومٌ يُقال فيه للسعداء في الجنة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].
ويقال للأشقياء في النار ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥].

إن استحضار العمل للأخرة خير، والعمل الخيري هو الأخلد

والأبقى. يقول عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

وفي القرآن الكريم بشارات لأهل الباقيات في آيات كثيرة اقرؤوا قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] وقوله جل جلاله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ﴾ [الرعد: ٢٩]، ووعدُه سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]. وحتى في الدنيا يجد أهل الباقيات الود والحب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

هذا، وسوف أدونُ بعض الأعمال الخيرية التي منحناها ساعاتٍ من وقتي، أسأل الله القبول.

إن العمل الخيري مجاله رحبٌ، وميدانه واسعٌ، ومساراته متنوعة، والسعيد من وفقه الله وحبب له هذا العمل. لكن كيف الطريق؟

إن أكثر الناس يُخفون أعمالهم الخيرية، كما يُخفون صدقاتهم،

والقرآن يأمر أحياناً بكشف الصدقات إذا كانت النية صافية، والهدف دفع الآخرين للبذل ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. وقد استوقفتني كلمة ﴿فَحَدِّثْ﴾، ورجعت لكتب التفسير فوجدت في تفسير مجاهد هذا الأثر: عن مقسم أبي عبد الرحمن قال: أتيت الحسن بن علي، فقلت: أ رأيت قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؟ قال: هو العمل الصالح، يعمل به الرجل فيحدث به إخوانه من أهل ثقافته ليستن به ويعمل مثله. وفي تفسير الرازي روي عن الحسين بن علي أنه قال: إذا عملت خيراً فحدث إخوانك ليقتدوا بك، إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياءً، وظن أن غيره يقتدي به، ومن ذلك لما سئل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم، فقالوا له: فحدثنا عن نفسك فقال: مهلاً، فقد نهى الله عن التزكية فقل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؟ فقال: فإني أحدث، كنت إذا سئلت أعطيت، وإذا سكّت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني. وقال الرازي كذلك: اختار قوله: ﴿فَحَدِّثْ﴾ على قوله فخير، ليكون ذلك حديثاً عنده لا ينساه، ويعيده مرة بعد أخرى^(١).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، تفسير سورة الضحى.

ولهذا سوف أعرض بعض تجاربي في العمل الخيري، فهو مدرسة تعلّمتُ فيها الصبر والتحمل، ووجدتُ في تلك المدرسة لذةً ومُتعةً ذكّرني بمقولة الدكتور عبدالرحمن السميط رَحِمَهُ اللهُ: من أنه وزوجته أمّ صُهيّب، ذات ليلةٍ وهم في إحدى القرى الإفريقية في سكن يُشبه مساكن الأفارقة، وليس في فندق نجمتين أو نجمة. يقول رَحِمَهُ اللهُ: «كنتُ وزوجتي أمّ صُهيّب نقول: يا لها من متعةٍ وسعادةٍ نعيشها يفقدها كثيرون». لقد صدق رَحِمَهُ اللهُ إن في مدرسة العمل الخيري مُتعة وسعادة، والأهم العاقبة والنهاية، تقبل الله من الجميع.

في عام ١٤٣٨ هـ وبصحة وفد من جامعة إفريقيا العالمية بالسودان، زُرنا الكويت للتَّعْرِيفِ بجامعة إفريقيا العالمية، وفي منزل السفير السوداني بالكويت، وقد تشعّب حديثُ السمر وتنوّع، قال أحدُ الحضور: تُوفيت والدتي رَحِمَهَا اللهُ وكُنْتُ أزور قبرها باستمرار، وأرى قبورَ حكام الكويت والوجهاء يَمْنَةً وَيَسْرَةً، لا مُؤنس ولا حرس ولا خدم، وعلى البُعد قبرٌ كُلُّما جئْتُ لزيارة قبر والدتي أرى حوله زُورًا، وعجبت من كثرة زائري ذاك القبر، وأخذني الفضول لأذهب وأسأل، وإذ هو قبر النموذج القدوة الدكتور عبدالرحمن السميط رَحِمَهُ اللهُ.

وفي صيف ١٤٤٤ هـ، صليتُ الجمعة في مسجد صغير ببلدة إفيان الفرنسية، وبعد أن وقف الخطيب وذكّر ووعظ، خاطب المصلين

وقال: اسمعوا عن رجلٍ لا أعرفه، ولكنني قرأتُ عنه، خرج في هذا الزمان، فكان قدوةً في الأعمال الخيرية، في البذل والعطاء وخدمة الفقراء والمحتاجين، إنه الطبيب عبدالرحمن السميّط. وبعد أن انتهى الخطيب من الشّاء على الرجل، قال: إني داعٍ فأمّنوا، واسترسل الخطيب في الدعاء له، ونحن نوّمن من ورائه.

إنه والله المجد والخير قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. لقد بقيت آثاره شاهدة له، ويُدعى له وهو في قبره رَحْمَةُ اللَّهِ. إنه العمل الخيري المبارك أبقى له ذكرًا حسنًا.

لقد أخذني مجال التعليم وبناء الإنسان في العمل الخيري، أسأل الله القبول والتوفيق. وسوف أعرض بعض النماذج الخيرية في الصفحات القادمة.



قصة جامعة

بناء الإنسان وتعليمه أساس مهم في نجاحه، والعمل في مجال التعليم رحب، سواء في العمل الحكومي، أو القطاع الخاص، أو في العمل الخيري. بعد تقاعدي من وزارة التعليم، صادف ذلك عودة الأمير سلطان بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ من رحلة علاجية أواخر عام ١٤١٨ هـ، ورغب أهالي الرياض إقامة حفل تكريمي لسموه، وأن يصاحب التكريم الإعلان عن مشروع خيري وقت الاحتفال، فكان الاقتراح من الأهالي هو التبرع لإنشاء كلية تكون نواة لجامعة خيرية خاصة، وقد تبنى المشروع الملك سلمان - حفظه الله - عندما كان أميراً لمنطقة الرياض ذلك الوقت؛ فقد رحب بالاقتراح ودفع به، وكنت واحداً ممن تشرفوا بالعمل في تنفيذ ذلك المشروع الخيري منذ أن كان فكرة؛ فقد استدعاني الملك سلمان، وقال: علمت بتقاعدك وأنت من أهالي الرياض، وأنت رجل تعليم، والتعليم مهم، وأهالي الرياض تقدّموا بفكرة باركتها، وهي تقديم هدية لمدينتهم بمناسبة عودة سمو الأمير سلطان، ويجب أن نمنح هذه الفكرة جُلّ

اهتمامنا، ونجعل العمل ينطق ويتحدث عن جهودنا، وأرغب أن تكون مع الأمير الدكتور عبدالعزيز العياف أمين منطقة الرياض، وتتساعدون لإنجاز المشروع. وكان سموه قد كلف معالي الدكتور العياف برعاية المشروع، بصفته خبير تعليم جامعي؛ فسمو الأمير العياف قدّم من الجامعة ليتولى أمانة منطقة الرياض، وإني وقد صحبت العياف في هذا المشروع الخيري، فقد وجدته نعم الرجل؛ أمانة، ونباهة، وحباً للخير ومساعدة الآخرين، وحقاً إنه رجل دولة.

هذا، وقد علمت أنهم في الإمارة قد وجهوا الدعوة لعدد من رجال الأعمال والبنوك، لحضور لقاء في القاعة الكبرى بإمارة منطقة الرياض؛ لإبلاغهم بنية إعلان المشروع ليلة الاحتفال بالأمير سلطان، والطلب إليهم المشاركة في التبرع، وتفاجاناً يوم اللقاء بحضور الأمير سلمان وافتتاحه الجلسة، وقال في كلمة الافتتاح: إنني لا أحضر هذه الاجتماعات، فلا أرغب إحراج الحضور في أي حملة من حملات التبرع، لكن لأن المشروع تعليمي خيري، ولخدمة أجيال المستقبل؛ فقد أثرت الحضور، وإن أخرجتكم، فالتعليم له الأولوية، وخدمته شرف. وفي ذلك اليوم التزم الحضور بالتبرع بأكثر من مئة مليون ريال، وليلة الاحتفال تبرع الأمير سلطان رحمه الله بمبلغ ثلاثين مليون ريال، ثم تبرع بعد تحويلها إلى جامعة بخمسين مليون ريال.

وجرى تشكيل لجنة للمشورة من رجال أعمال وبعض مسؤولي الجهات التعليمية حول التنفيذ وإقرار التخصص العلمي للكلية، وتفرع منها لجنة صغيرة لمتابعة العمل. ومعلومٌ أن إنشاء المشاريع التعليمية يتطلب أمورًا عدّة؛ فما هو التخصص الدقيق المطلوب؟ وكيف يتوفر المبنى التعليمي، والتصاريح الرسمية، والقوى العاملة، وغير ذلك من المتطلبات الأساسية؟

وأذكر بعد أسابيع من الإعلان عن الفكرة والتبرعات، زُرْتُ أنا وسمو الأمير العياف الأمير سلمان في مكتبه بالإمارة، وطلبتُ منه السماح لنا بالحديث لوسائل الإعلام حول المشروع، وكان جوابه: مشروعكم تعليمي، والتعليم له وقاره وأهميته، اتركوا أعمالكم هي التي تتحدث، أسرعوا في الحصول على التراخيص النظامية، وتابعوا الخطوات الكفيلة بسرعة التنفيذ، وإذا تطلّب الأمر تدخل فباب مكّتي مفتوح، المهم السرعة في التنفيذ، وإذا تحصلتم على الموافقات فتحدثوا. ثم عرضتُ على سموه ذلك الوقت أن جمع المبالغ، وشراء أرضٍ للمشروع، والتخطيط والبناء يحتاج لوقتٍ طويل، ومن ثم سيتأخر بداية انطلاق الكلية، واقترحتُ عليه الطلب من الدولة: إعارتنا مبنى حكوميًّا نبدأ فيه، وقد رحّب بالفكرة وتحمّس لتنفيذها، وسأل أين هو المبنى

الحكومي؟ فأخبرته أن وزارة المعارف - وأنا ابنها - لديها مشروع جاهز، ويمكنها الاستغناء عنه، هو مبنى كلية المعلمين الجديد يقع شمال الرياض، وجرى بناؤه ليكون بديلاً عن مبنى كلية المعلمين الواقع في شرق الرياض، وبالفعل طلب الأمير سلمان من المقام السامي الموافقة على إعارة المبنى المذكور، وجاءت الموافقة سريعة.

وطلبنا منه - رعاه الله - التدخل مع جامعة الملك فهد لتتولى تشغيل السنة التحضيرية في عامنا الأول، وعلى الفور صدر خطابٌ بتوقيعه للجامعة، كان مدير جامعة الملك فهد ذلك الوقت معالي الدكتور عبدالعزيز الدخيل رَحِمَهُ اللهُ، وكُنْتُ على معرفةٍ به وتواصل، وقد حملتُ الخطاب إليه في الظهران؛ حيث مقر الجامعة، وبارك التعاون، وعلى الفور هاتف أحد المسؤولين في الجامعة، ووجهه بدراسة الكلفة المالية، وكانت مليوني ريال ونيفاً. وجرى توقيع اتفاقية معهم، واعتبروا كلية سلطان امتداداً لكلياتهم، وبلغوا لجنة التعاقد لجلب مدرسين لصالح كلية سلطان في الرياض، وأُسْتُعِير الدكتور أحمد بن محمد السيف لعمادة الكلية، وخلال شهور بدأت كلية الأمير سلطان استقبال الطلاب، ونحمدُ الله بعد مدةٍ وجيزة افتتحت كلية للبنات ثم حوّل المشروع إلى جامعة خاصة للبنين والبنات، وبتخصصات مرغوبة في سوق العمل، وأصبحت - والله الحمد -

جامعة مرموقة، ومعلماً من معالم مدينة الرياض، وصارت نموذجاً للعمل الخيري يجري تشغيلها برسومها دون أرباح تُوزَّعُ للمؤسسين. هذا، وقد بدأت مع أخي المهندس عبدالله، ونعم الأخ الوفي، والصديق الصّفي والعضدّ البار، والساعد السّارّ، بدأنا مشروعاً تعليمياً وقفياً على غرار جامعة الأمير سلطان، في خير بقاع الأرض، في مكة المكرمة إنها جامعة العلوم والتقنية بمكة الوقفية، وقد التزّمت (أوقاف العبيكان الخيرية) بقيادة المشروع، والإنفاق عليه. نسأل الله التوفيق.



مؤسسة الأسرة

أمر ديننا الحنيف بصلة الرحم، وجعل لهم حقاً في المال ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذَرْ بَذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقد كنتُ مع أبي رَحِمَهُ اللهُ أسمعُ في مسامراته مع أبناء عمومته الذين يقاربونه في السنُّ أُمْنِيَّاتِهِمْ أن يكون لهم مكانٌ يتشاركون في إنشائه، ليكون مركزاً للقاءاتهم ومناسباتهم الاجتماعية؛ وذاك رغبةً منهم في لمّ شمل العائلة وجمعهم، وتقريب بعضهم من بعض، وتعلُّم بعضهم من بعض. إنه عملٌ خيرٌ نوعيٌّ يقتصر على أبناء العمومة، ولا غرو! فلذوي القربى في ديننا أولوية، إنه يتطلب مَنْ يتطوَّعُ له، ويندُبُ نفسه لهذه المهمة الصعبة، ويستلزمُ جهداً وصبراً، ومقابلات وإقناعات، فكلُّ فردٍ في العوائل غالباً يرى في نفسه الكفاءة والقدرة العقلية، وإن كان العكس في القدرة المالية. يقولون في الأمثال: «كُلُّ بَعْقَلَةٍ رَاضٍ إِلَّا بِمَالِهِ فَلَا». وأخذتُ تلك الأُمْنِيَّةَ الأبوية، فحزمتُ أمري وقلتُ: هذا من الأعمال الخيرية الخاصة، فصلةُ الرحم وتواصلُهُمْ أمرٌ يَحْتَثُّ عليه ديننا الحنيف، وأحمدُ الله أن سَعِيتُ وصبرت، وبعد سنواتٍ من الجهد

والمثابرة، تكونت مؤسسة آل عمران الخيرية، أسرة عائلتي المباشرة التي تنضوي تحت شجرة أسرة آل عمران (الثنيان، العبيكان، الراشد، العبد القادر، العمران). وصدر للمؤسسة تصريح نظامي من الدولة برقم (١١) في ٧/ جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ باسم (مؤسسة آل عمران الخيرية)، وأعدنا لها نظاماً اجتهدنا في كتابته واعتمدته الجهة الحكومية المشرفة على الجمعيات الخيرية، وفتحنا لها حساباً خاصاً في البنك العربي نستقبل فيه التبرعات والزكاة، وصار للمؤسسة بيتٌ تقيم فيه الأسرة بفروعها الخمسة مناسباتها الاجتماعية؛ الزواج، والأعياد، وحفلات التخرج الدراسي، واجتماعات دورية. وتقاطر الموسرون من أبناء الأسرة، فدفعوا زكواتهم، وجادوا بتبرعاتهم.

وأحمد الله أن أصبح لجميع المحتاجين من أفراد الأسرة رواتب شهرية تصرفها لهم المؤسسة، وترعاهم صحياً؛ إذ وفّرت لهم بطاقات تأمين ممتازة، وتمكّنت من مساعدة راغبي الزواج؛ بحيث تصرف مئة ألف ريال للشاب، وخمسين ألف ريال للشابة، وتُسهم في توفير السكن بثلاث مئة ألف ريال وأكثر. وتُسهم في قضاء ديون المعسرّين من الأسرة. لقد ازداد التعارف، وتنامى التواصل، وتقاربت القلوب. نسأل الله القبول.

هذا مجالٌ خيري لم يصل لهذه المرحلة من النضج والتمام إلا بعد جهدٍ وصبر، لقد واجهتني مشبّطات؛ فمن ساخرٍ من الفكرة، يحسب أن تحقيقها مُحالٌ مهما بُذلت الأسباب، وثانٍ يائسٍ من

المشروع، يظنُّ أن اجتماع القلوب عصي، وثالثٌ يحسبُ أن توفير المال مستحيل، ورابعٌ تغلبه الغيرة؛ فلا هو مساهم، ولا هو مسالم، وخامسٌ وسادسٌ... إلخ. لكن للعمل الخيري مزيةٌ يجهلها كثيرون، وهي أنه يتطلبُ الإقدامَ والعزيمة، والإخلاصَ وصدق النية، فطالما أنه لله فإن البركة تصحبك، وتدفعك للمزيد من الجهد، فلا تتردد في طلب العون، ولا تتحرّج في سؤال المساعدة، يمنحك الله طلاقةً في الحديث، وجسارةً في العرض، فيتحرّج المعارض، ويتلثم المناكف، ويخجلُ الغائر، ويتراجعُ المعاند.

وفي هذا السياق أروي موقفًا كاد يقضي على المشروع، ولولا توفيق الله لما قامت مؤسسةٌ تخدم - حسب آخر إحصائية لها أول عام ١٤٤٦ هـ - «١٨٥٩» فردًا؛ ما بين ذكر وأنثى من أسرة آل عمران بفروعها الخمسة، وهم (الثنيان، العبيكان، العبد القادر، الراشد، العمران)؛ إذ تشملهم جميعًا خدمات الأسرة.

وخلاصة ذلك الموقف أنه بعد قطع مرحلةٍ مهمّةٍ من الجهد والإقناع، وعمل زياراتٍ فرديةٍ لشيوخ العائلة، والحديث إليهم عن المشروع؛ وافق مجموعةٌ من أبناء العمّ على الفكرة وباركوها، فشجّعوني على المضي في العمل، واغتنمتُ فرصةً تشجيعهم وتعاطفهم، فاستضفتُ نخبةً من المؤيدين في منزلي أكثر من مرة، وتحدّثنا عن أهمية الفكرة، وطرحنا مقولة رسول الله ﷺ:

«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةٌ»^(١)، ورجونا بعضَهم أن يكون عُكَّاشَةُ العائلة، وانبرى نُخْبَةٌ من أثرياء العائلة - أثابهم الله - والتزموا بشراء أرضٍ تكون نواةً لمشروع الأمل، وخلال أيامٍ وجيزةٍ، اشترينا أرضاً تقع على الدائري الشمالي مساحتها ثمانية آلاف ومئتا متر مربع، بمبلغ يزيد عن أربعة ملايين ريال، وبعد امتلاك الأرض، جرى الاتفاق على دعوة العائلة لعرض ما توصلنا إليه، وذلك في قاعة فندق الرياض كونتنتال، وجرى حجز الفندق، وتحديد الموعد بيوم السبت الموافق ١٦ / ٦ / ١٤١٩ هـ. وفي الليلة المحددة حضر عددٌ يزيد عن المائتين من كل أفرع عائلة آل عمران، وبعد اكتمال الحضور، قمتُ مع الشيخ عبدالمحسن العبيكان بالجلوس أمامهم على مكتب أعدناه في تلك المناسبة، وتحدثتُ عن المشروع، وبيّنتُ ما توصلنا إليه، وتكلم الشيخ عبدالمحسن العبيكان عن أفضلية هذا المشروع، وأنه عملٌ مبارك، وحضّهم على التبرع لاستكمالهِ، ثم توجّهتُ للحضور وأخبرتهم أننا نرغبُ ترشيحَ لجنة للإشراف وإدارة المشروع، ونرجو ممن يُرشّح نفسه أن يقف لكي يعرفه الحضور.

وهنا صار الموقف الصّعب الذي كاد أن يعصف بالمشروع، فقبل أن أسترسل في النقاش رفعَ أحدُ الأعمام يده وطلب الإذن بالكلام، وبعد أن رحّبَ وأشاد، عاتبَ ولامَ بأن الموقع الذي اخترناه غير مناسب، وأنه

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦)، وأحمد (٩٢٠٢).

بعيد عن سكن أغلب أسرة آل عمران، وأن الأفضل أن يكون في موقع متوسط لكافة الأسرة، ثم قال: إن العائلة لم تُستَشَر في اختيار الموقع، وركزَ عليَّ شخصيًا، ولا مني بأنني مضيتُ في الجري وراء الموضوع دون جمع كبار الأسرة واستشارتهم ونقاشهم في كل الإجراءات، لام **رَحِمَهُ اللَّهُ** وقسا في اللوم، وصمتَ الحضور، وهمهم آخرون مؤيدون، ثم قام شابٌّ من أبناء العم وأيد العمَّ المُعْتَرِض، وشاطره الرأي في العتاب واللوم، وحين جلسَ رَانَ على الحاضرين شيءٌ من الهدوء والترقب لمعرفة الجواب، فهل يا ترى سيكون هناك تلاسنٌ وتعاتبٌ؟ أو تحاصمٌ وتجادلٌ؟ أم سينقسمُ الجمعُ بين مؤيدٍ ومعارضٍ؟ أم سينفضُ السامر وينسحبُ المتبرعون ويقفُ المشروع؟ وتبادلتُ النظر مع الشيخ عبدالمحسن العبيكان، وكنتُ وإياه في المنصة، وكأنه يُشجّعني على الحديث والرد، ثم نظرتُ في بعض الشخصيات الباذلة المتحمسة للفكرة، فرأيتهم مطرقين، وأحسبُ أنهم قد احتاروا؛ فهم ينشدون جمع الأسرة لا تفريقها، ويبدلون المال لربط العائلة بعضها ببعض، لكن إذا كان المشروع سيسببُ بلبلةً وقطيعةً فلا بارك الله في عملٍ يقطع الرّحم، ويُفَرِّق القلوب.

وأرشدني الله للصواب، فطلبتُ من الحضور ومن المعارضين السماح لي بإبداء الرأي، وبدأتُ في الإشادة بتفاعل الحضور واستجابتهم للدعوة وحضورهم اللقاء، وأكبرتُ مداخلة المعارضين وإبداء رأيهم، وبيّنتُ أن الصراحة والمكاشفة أساسُ البناء والاستمرار، وذكّرتُ

الجميع بجولتي على بعض كبار السن من كل فروع العائلة منذ سنوات، وأنني سبق أن عرضتُ لهم الفكرة، وطلبتُ منهم التأييد والتبرّع، ثم أعلنتُ للجميع أنني أول الأوابين، وأول التائبين من أيّ قصورٍ أو أيّ خطأ. وقلت: إننا اجتهدنا، ونحن كالقاضي إذا اجتهد فأصابَ فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد. ثم قلتُ: أرجوكم أعمامي وأبناء العم اعتبروني سكرتيرًا لكم وكُويتبًا، اجتهد لتنفيذ الفكرة التي طرحها الآباء، والأعمام، وجمع الأوراق، ولاحقَ هذا وذاك، وجامله الأول، ولاطفه الثاني، فإن أكن أصبتُ فلي أجران، وإن أخطأتُ فلي أجرٌ واحد. ثم تَوَسَّلْتُ إلى الحاضرين أن يقبلوا زَلَّتِي ويتجاوزوا عن قصوري، وأن يتفضّلوا ويختاروا فريقًا يرأسه العمُّ المُعْتَرِض، وسأكون سكرتيرًا لدى الفريق المختار. ثم قلت: إن الأرض التي اخترناها ليست جَمْرَةً تُحْرِق، ولا عَجُوزًا شَمِطَاءَ لَن تَجِدَ عَرِيسًا، إنها أرضٌ في موقعٍ ثمين، وجزى الله خيرًا الذين بادروا وتحملوا قيمتها، إن بيعها سهلٌ، ولكن قبل أن نُقَرَّرَ بيعها، سوف نبحث عن المكان الذي ترون أنه الأنسب، والموقع الذي يخدم الجميع، وبعد ذلك؛ هدأتِ النفوس، وطابتِ القلوب، وتبسمَ الحضور.

إن العمل الخيري يتطلّب الحلم والصبر. ألم يصبر رسول الله ﷺ ويتحمل وهو يدعو قومه، وقد جاءهم بخيري الدنيا والآخرة، جاءهم بعزّ السماء، ومجد الأبد، فعابوه، وسخروا منه، ﴿فَمَا

رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

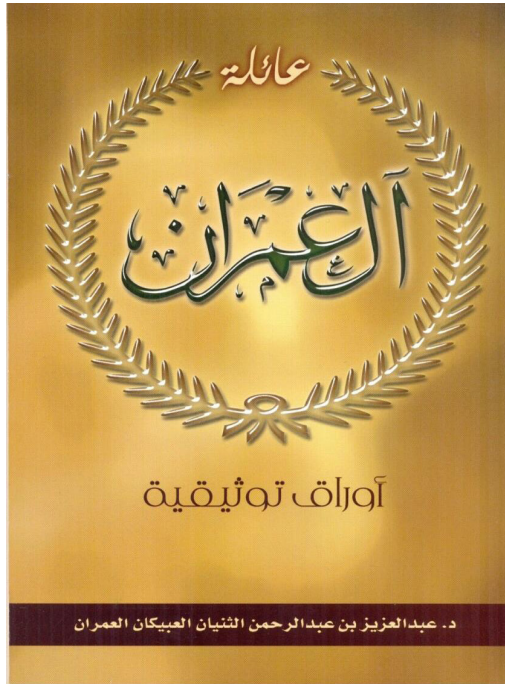
إن نجاح أي عمل يكمن في الرفق، واللين، والمشورة والعزيمة. وإن رد الفعل في هذه المواقف يجب أن يكون هادئاً، وأن يتحمل البعض الآخر، فالكمل مجتهد، وكل يرى أن له رأياً ونظراً، فاسم العائلة للجميع. إن أغلب الأسر فشلت فيما اتفقت عليه أسرة آل عمران، وأحمد الله أن الآباء والأجداد من أسرة آل عمران بينهم ترابط وتواصل، ويربون أبناءهم وأحفادهم على أن يحترم الصغير الكبير، وأن يسمع الأدنى ممن هو أكبر منه، وأن نقبل الرأي والرأي الآخر. وألا يهزأ أحدٌ بأحد، وألا يسخر فردٌ من أخيه، ولا يحقر ابنٌ عمَّ عمه الأدنى أو الأبعد.

إن كبار عائلتنا الأوائل سنوا سنة حسنة في توقيير الكبير، واحترام رأيه، وإكبار شيبته، وتوارثها الأبناء عنهم.

وبعد أن انجلت غمامة الكدر، وأدبر إبليس وانهزم، اتفق الحضور على تشكيل لجنة لمتابعة المشروع، وعاد المتحفظون للمباركة والتشجيع، وقرّر الجميع أن تجتمع الأسرة في كل عيد للسلام والمعايدة والتعارف، وأن تكون البداية في عيد الفطر القادم مباشرة بأحد الفنادق حتى يكتمل بناء القصر، ومضى العمل في المشروع، وبعد أن اكتمل بناؤه، جرى الافتتاح الرسمي لبيت العائلة والمؤسسة في اليوم الأول لعيد الفطر المبارك من عام ١٤٢٢ هـ، وقامت المؤسسة وصارت كياناً

نظاميًا، ومجلسُ إدارة يُنتخبُ من أفراد العائلة، وقد حظيتُ بثقتهم لرئاسة مجلس الإدارة، ونعملُ حاليًا لجمع تبرعاتٍ إضافية لإيجاد أوقاف تضمنُ لهذا المشروع الاستمرار.

أسألُ الله لهذه المؤسسة وللقائمين عليها التوفيق والنجاح. هذا، ولقد كتبتُ كتيبًا عن هذه التجربة العائلية في كتاب سمّيته (أسرة آل عمران.. أوراقٌ وثائقية). مرفقُ صورة غلافه.



منحة هارفارد

هارفارد، جامعةٌ أمريكيةٌ ذاتُ شهرةٍ عالميةٍ عريقةٍ، أُمْنِيَةُ الكثير من الطلاب الجادّين في أنحاء العالم الدراسة فيها؛ فخريجوها لهم الأفضليّة في العمل.

وأذكّرُ حينما كنتُ وكيلًا لوزارة التعليم، والدكتور عبدالعزيز الخويطر رَحِمَهُ اللهُ كان هو الوزير آنذاك، أن قَصَدَنِي في مكتبي بالوزارة ذاتَ يومٍ أحدُ موظفي الوزارة -تُوفِي رَحِمَهُ اللهُ- وهو من خيرة كفاءات موظفي الوزارة، وبعدَ السلام والتّحية، سألتُهُ عن ابنه، وهل تخرّج في الجامعة؟ فأخبرني أنه تخرّج وتعيّن معيدًا في كلية الطب، وهنّأته بتميّزه وتفوّقه، وأخبرني أن طموح ابنه كبير؛ إذ يرغبُ في استكمال دراسته العليا.

وقال: لعلّك يا أبا تركي، تسمع بشهرة جامعة هارفارد الأمريكية؟

قلتُ: نعم.

قال: لدي الجامعة برنامجٌ دوليٌّ لاستقطاب الطلاب الموهوبين من أنحاء العالم، وقد تقدّم ابني لمنحة تلك الجامعة المرموقة، وحظي بالقبول، ولكن تعذّر انضمامه للمنحة؛ فنظام الابتعاث في جامعة الملك سعود يقضي التزام المعيد بسنوات عمل قبل الموافقة على ابتعاثه. وطلب رَحِمَهُ اللهُ رأيي في الأمر.

قلتُ له: ابنُك لا يطلبُ ابتعاثًا، ابنُك يطلبُ الموافقة على تفرّغه للمنحة المجانية الخارجية؟

قال الأب: نعم، هو كذلك، وقد حاول ابني الحصول على موافقة الجامعة لكنّه عجز، وسوف تضيع المنحة إن لم يوافقوا، فلعلّك تساعدنا في ذلك.

قلتُ له: أمهلني اليوم، وأراك بعد يومين.

وبقي طلبُ الرَّجل حاضراً في ذهني، هو يطلبُ بذلَ جاهي ومساعدته في موضوعٍ خارج الوزارة، وكان من توفيق الله وإرادته أنّ هناك عوامل ثلاثة تُساعدني في بذل جاهي لمساعدة الأب وابنه، وهي: أولاً: كُنْتُ ذلك الوقت أمثُلُ وزارة التعليم في اللجنة العليا لابتعاث موظّفي الخدمة المدنية.

ثانياً: كان رئيسُ اللجنة العليا؛ معالي الأخ/ تركي بن خالد

السديري، رئيس ديوان الخدمة المدنية، وتربطني به علاقة احترام ومودة، فنعم الرجل هو؛ منحه الله رزانه وعقلاً وتفانياً في خدمة الوطن.

والعامل الثالث: هو أن وكيل وزارة الصحة آنذاك، معالي الأخ د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز السويلم، صديق وأخ لم تلده أمي، في الأمثال العربية (رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ). والحمد لله تطورت الصداقة والعلاقة بيننا بعد تقاعدنا نحن الاثنين، وبتنا رفاق درب في العمل الخيري.

واستحضرت هذه العوامل الثلاثة، وعقدت العزم على مساعدة الرجل؛ ولذا حين راجعني بعد يومين اقترحت عليه أن يُضحي ابنه بوظيفة المعيد في الجامعة، ويترك هذه الوظيفة المرموقة، ويطلب الانتقال إلى وزارة الصحة؛ ليشمله نظام ابتعاث موظفي الخدمة المدنية، وسوف أبذل جاهي وجهدي في مساعدته. وخرج الأب من مكثي لاستشارة ابنه، وعرض هذه الفكرة المقترحة عليه، ومن ثم إذا وافق مضيت في متابعة حالته.

وبعد أيام جاء الأب وابنه، وتبادلت معهما الرأي مرة أخرى، واستعرضنا كل الاحتمالات، وكان الابن جريئاً وشجاعاً ومُصمماً على استكمال تعليمه العالي، وأتذكر أنه قال في نهاية الجلسة: هذه فرصة لن أتركها، حتى ولو استقلت من وظيفة مُعيد، وشجعتُه

وبذلتُ جهدي في مساعدته، فكلّمتُ معالي د. عبدالرحمن السويلم، وعرضتُ عليه الأمر، وشرحتُ له الحالة، ورجوتهُ المساعدة وحجزَ وظيفةً له، وطلبَ نقله إلى وزارة الصحة، ومن ثمّ رفع طلبه للجنة العليا لابتعاث موظفي الخدمة المدنية، فرحب وشجّع أثابه الله.

وأحسبُ أن الابنَ، وهو اللوذعي الموفق، أسرع في اليوم الثاني إلى وزارة الصحة، وتمّت إجراءات نقله بسهولة، وبعد شهرين تقريباً وصلتُ أوراقه للجنة العليا لابتعاث الموظفين، وعُرضَ موضوعه على اللجنة، فقررتُ أن أكون آخرَ المعلقين، وقد أبدى بعضُ الأعضاء تحفظهم من أنه حديثُ التّخرج، وأيده ثانٍ وثالث، ثم طلب رئيسُ اللجنة أبو زياد الأخ/ تركي بن خالد السديري من كافة الأعضاء رأيهم النهائي، وتوقّف الجميع عن التعليق، وعند ذاك طلبتُ الإذن لأبدي رأيي، فبيّنتُ أهمية الاستزادة من العلم، وشرعتُ في الردّ على المتحفّظين، وذكرتُ لهم ما تتمتع به جامعة هارفارد من قوّة علمية وسمعة أكاديمية، وأنّ هذه منحةٌ مجانيّةٌ في مجال الطب، وللطبّ الأولوية في برامج الابتعاث، وإذا لم نوافق ضاعت المنحة المجانية، وخسر الوطنُ رفع كفاءة طبيبٍ من أبنائه، وبيّنتُ أن ما أورده الإخوة المتحفّظون ينطبق على الموظف الذي سوف تتحمل الدولة تكاليف بعثته. وعلى الفور، أيّدني رئيس اللجنة، وتراجع المتحفّظون، وتمّت

الموافقة على تفرغه، وحمدتُ اللهَ أن يَسَّرَ أمرَه ونفع الجهد المبذول.
ومضتِ الأيام، وانطوتِ أسابيعٌ وشهور، وانتهى الطبيب من بعثته، وأبلغني والده بنجاحه بتفوق، ورجوعه للوطن، فهنَّأته، وزوَّدني بهاتف ابنه، واتصلتُ بالابن الطبيب، وباركتُ له، وبلَّغني أنه انتقل من وزارة الصحة للعمل طبيبَ قلبٍ في مستشفى الملك فيصل التخصصي، وفقه اللهُ وبارك به.

ونسيتُ حكايته، وتقاعدتُ من العمل الرسمي، وترشَّحتُ لعضوية مجلس الشورى ثماني سنوات، وبعد سنتين من مغادرة المجلس، وتسارعِ سنواتِ العمر، وذاتَ أسبوعٍ في عام ١٤٣٠ هـ، شعرتُ بآلامٍ في الصدر، فراجعتُ المستشفى التخصصي، ومن طبيبٍ لآخر، وفجأةً وإذ بي أجدُ ذاك الطالب الذي ساعدته في بعثته، يقف أمامي وتبدأ يدهُ الكريمةُ بجسِّ نبضاتِ قلبي، وهو يهَلِّلُ ويُرحِّبُ بالعمِّ عبدالعزيز، وفتحَتُ عيني وأغمضتُها، واستعدتُ الماضي، ورجعتِ الذاكرةُ للوراء تستعرضُ شريطَ الذكريات، وقصةَ دراسته، وجلساتِ النقاشِ حول بعثته، وكيف أصبحتُ واحدًا من مئات المستفيدين من ذلك الطبيب الماهر، فقد تقرَّر لي إجراء قسْطرةٍ للقلب، فأجراها بأنامله الكريمة، وصار طبيبي المتابع لحالتي، أسعده الله.

والحمد لله، فقد نلتُ ثوابَ عملي معه في الدنيا، وبقي أجرُ الآخرة
أسأل اللهَ القبول، وأن يجمعني الله وإيَّاه بوالده في الفردوس الأعلى!

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ



وفي قم كتبنا الفكرة!

النبوغُ عطاءُ رباني، وهو الثروة البشرية الأعلى والأندر، ولو كان للبشر سُلطة، لأخذ الذكاء ذوو القوة والمال لهم ولأولادهم، ولكنه العدل والعطاء الإلهي.

أتذكر حين كُنتُ مسؤولاً في وزارة التعليم رأستُ وفد المملكة ذات عام لاجتماعات اليونسكو بباريس، وعرضوا في ذاك اللقاء تقرير المنظمة حول التنمية البشرية، وجاء فيه أن دول العالم الثالث تُقدم معونةً عكسية للعالم الغربي تتمثل بهجرة عقول مجتمعاتها لتلك الدول الغنية، وقرأتُ عن الجامعات الأمريكية المشهورة، وكيف نالت الثقة والسُّمعة باقتناصها العقول، وزُرتُ إيران ضمن وفد مجلس الشورى في ٨ / ٤ / ١٤٢٤ هـ وعلى إثر المشاهدات الإيرانية واللقاءات، عقدتُ العزم على العودة لإيران مرةً أخرى بصفة شخصية لا رسمية، وهو ما كان، فقد كان لمكتبة العبيكان علاقةً بناشرٍ سنّي هناك في طهران، وحين زار الرياض في مناسبة معرض الكتاب، تحدثتُ معه عن رغبتني في الزيارة، فأشار عليّ أن أشارك في معرض الكتاب القادم بطهران،

وبالفعل ذهبْتُ إلى هناك بصحبة الصديق الدكتور عبدالله المعيلي رَحِمَهُ اللهُ عام ١٤٣٣ هـ؛ أي بعد زيارتي الأولى مع مجلس الشورى بتسع سنوات، وحين كنّا نتجول في المعرض بطهران رأينا أجناسًا مختلفة من إيران ومن الدول المجاورة لإيران يشترون الكتب العربية، وسرّنا شراء عددٍ منهم المطبوعات العربية، ورأينا تقاطرَ عددٍ منهم لاقتناء منشورات العبيكان.

وذاث مساء التقينا بأربعة شباب من أهل السُّنَّة تحدّثوا إلينا أنهم درسوا في جامعة الملك سعود، وتعذّر عليهم استكمال الدراسات العليا، وعادوا دون استكمال طموحهم التعليمي، واقترحوا علينا أن نزور المدرسة الفيضية بقم؛ مدرسة الإمام الخميني، وسألّتهم لماذا؟ وهل تستحق الزيارة؟ وهل يسمحون لنا بالدخول والسؤال؟ فقالوا: المدرسة مفتوحة والزيارة مُتاحة. وهناك سترون كيف يبذلون ويعتنون بذوي النبوغ العلمي والموهبة من الطلاب الوافدين، فقررت وصاحبي أن نتوجه إلى قُـم بصحبة مرافقنا الناشر الإيراني لنرى الواقع. وفي اليوم التالي انطلقنا مُبكرين؛ حيث تبعد قُـم في حدود مئة وخمسين كم عن طهران، ولما وصلنا قُـم، اقترح مرافقنا أن ندخل مبنًى ضخماً بالقرب من المدرسة، وحين ولجناه؛ وإذ بداخله قُبَّة زجاجية فيها قبرٌ معصومٍ كما يقولون: إنها فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر

الكاظم سابع الأئمة الإثني عشر، يقف الزوار بجوار القبر وعبر فتحة بالقبة الزجاجية يقذفون رسائل التوسل والرجاء والنقود؛ جهلٌ وسذاجة، واستغلالٌ للبسطاء والعامّة. ثم اتجهنا للمدرسة الفيزيائية التي تبعد عن المرقد بضعة أمتار، واتضح أنها مدرسة ذات رسالةٍ ومنهجٍ محكمٍ وتخطيطٍ للمستقبل البعيد، لقد وجدنا فيها طلابًا من جنسياتٍ مختلفة. وعلمتُ أنهم يُختارون بعناية فائقة؛ إذ يرقبون طلاب المنح الدارسين بجامعاتهم، ويختارون ذوي النبوغ والموهبة منهم، ويُغرونهم للالتحاق ببرامجٍ إثرائية في المدرسة الفيزيائية بقم، ويجري إعدادهم ليعودوا إلى أوطانهم وهم يحملون رسالة إيران الفكرية التي تعملُ على نشرها، وجدُّهم هناك يختارون صفوة الشباب من أنحاء العالم الإسلامي، ويصنعون منهم رجالاً لهم.

وفي كتاب جامعات عظيمة لجوناثان كول، ترجمة الدكتور ناصر الحجيلان، بيانٌ عن هجرة العلماء من دول العالم إلى أمريكا، وكيف بان تأثيرهم واستفاد منهم المجتمع الأمريكي، وتقدمت أمريكا في نيل جوائز نوبل التي ارتفعت نسبتها من ١٨٪ إلى ٧٩٪؛ وذلك بسبب استقطاب تلك العقول الذكية. وفي عام ٢٠١٨م، تبرع رجل الأعمال الأمريكي بلومبيرج بمليار دولار لصالح الطلاب الموهوبين غير القادرين ماليًا على الالتحاق بجامعة التي تخرج منها (جونز هوبكنز).

وتذكرت الحديث النبوي الشريف: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِئَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١).

وتشربت همّ الرواحل، نوابغ الوطن من طلاب الدراسات الجامعية والعليا، سواء أكانوا سعوديين أم طلاب المنح، وضرورة رعايتهم وتمكينهم، وكيف يسهم القطاع الخيري في تنفيذ هذا البرنامج النوعي؛ ولهذا بدأت في قُوم ورفيقي في الرحلة الدكتور عبدالله بن عبدالعزيز المعيلي رحمهُ اللهُ تُوفي بعد تلك الرحلة بخمس سنوات - بكتابة فكرة مشروع خيري نحسبه من الأعمال الصالحة؛ فالأعمال الصالحة مجال رحب، فدونا هناك في طهران وقُوم الأسطر الأولى لجمعية خيرية سمينها (جمعية آفاق التعليمية) لرعاية ذوي النبوغ العلمي والموهبة.

وبعد عودتنا من طهران، التقينا بزملاء لنا، وعرضنا عليهم مشروع جمعية آفاق، فباركوا وأسهموا في بلورة الفكرة، ثم تقدّمنا رسمياً لوزارة التعليم العالي، نطلب التصريح الرسمي، فهي الجهاز المسؤول عن تعليم الفئات المستهدفة، وتحدثت مع وزير التعليم العالي آنذاك معالي الدكتور خالد العنقري، ووضّحت له أهداف المشروع، ورحّب بالفكرة، وهاتف وكيل الوزارة، ووجهه بدعم رغبتنا، ولكن توقفت الوزارة عن إصدار الترخيص المطلوب؛ بحجة أن ذلك ليس

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٩٨)، ومسلم (رقم ٢٥٤٧).

من اختصاصها، وحاولتُ لكن لم تسمح الأنظمة ذاك الوقت بهذا العمل النوعي، وبقيتِ الفكرة حاضرةً بالذهن، وأوراقها محفوظة، إلا أن الحديث عن المهوبين ورعايتهم وتعظيم أثرهم ظلّ موضع اهتمام عدد من المؤسسات المانحة والعاملين في المسارات الخيرية.

وجاءت رؤية المملكة الطموحة ٢٠٣٠م ببرامجها المتنوعة، ومنها تشجيع العمل التطوعي، وتسهيل إجراءات الترخيص للجمعيات الخيرية، فأعدنا دراسة مشروع رعاية النوابع في برامج الدراسات العليا، وتدارستُ الفكرة من جديد مع نخبة من الكفاءات الوطنية المُتفاعلة مع العمل الخيري؛ فالنوابع أوقافٌ خالدة، وعرضتُ عليهم ما سبق أن كتبناه حول (جمعية آفاق التعليمية)، فاستحسنوا الفكرة، ومضينا في طلب الموافقة عليها من جديد، وتقدّمنا للمركز الوطني للقطاع غير الربحي نطلب الترخيص للجمعية التي طال انتظارها، وجعلنا مقرّها مكة المكرمة؛ فلمكة رمزيّتها؛ فمن مكة أشرقت شمس الإسلام، وأهدت للبشرية خيري الدنيا والآخرة، ومكة -بعون الله- سوف تهدي علماء الإسلام في كل التخصصات العلمية، وتمّ -بحمدِ الله- التصريح الرسمي؛ لتباشر هذه الجمعية رسالتها الخيرية الهادفة، وأشرفُ الآن برئاسة مجلس إدارتها الأول.

وبدأت الجمعية بلقاءاتٍ وورش عملٍ لوضع معايير الاختيار

والترشيح، وبرامج الرعاية والتمكين. فالهدف الكبير للجمعية إعداد علماء ربّانيين في مختلف التخصصات الإدارية والعلمية والتربوية والشرعية وغيرها، والتواصل معهم بعد التخرج.

إنَّ العلم والتعليم وصناعة الرجال خيرٌ مجالٍ للعمل الخيري.

هذا، وقد شاركتُ في عضوية مجلس إدارة جمعية الإحسان الطبية بجازان، ووجدتها تجربة مُمتعة، فخدمة الفقراء صحياً ومساعدتهم بابٌ من أبواب الخير المباركة، كما أسهمتُ في إنشاءِ وعضوية مؤسساتٍ وجمعياتٍ خيرية أُخرى كـ (جمعية البرهان لخدمة السُّنة والقرآن)، و(جمعية قناديل لتنمية الطفولة)، و (جمعية خبراء الوطن). أسأل الله القبول والتوفيق.

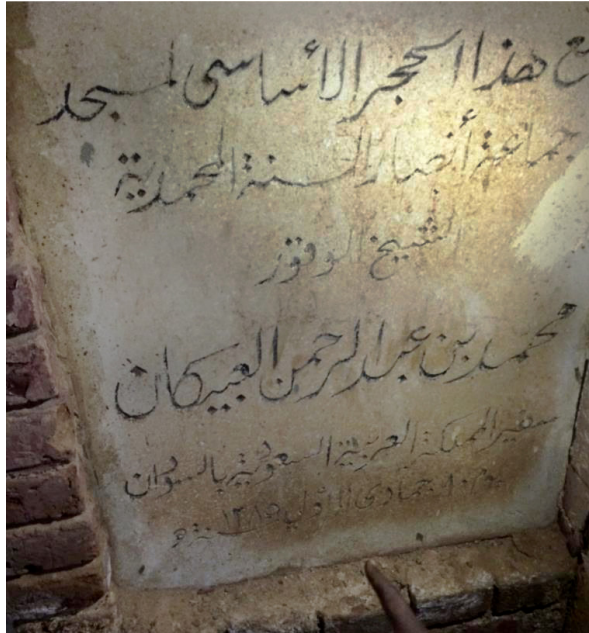


جامعة إفريقيا

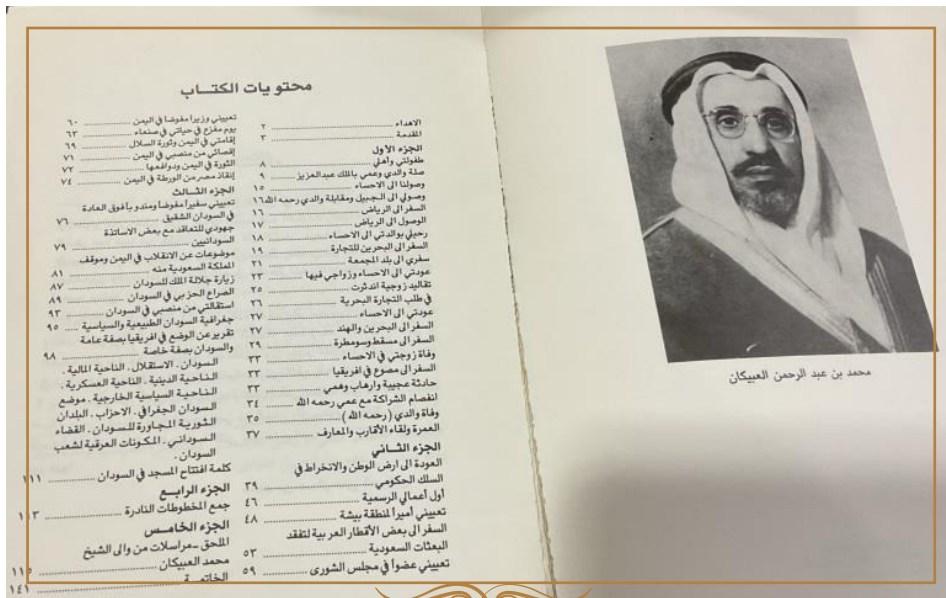
هذه الجامعة نالت جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام للعام ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م، ووقّعت معها وزارة التعليم في المملكة العربية السعودية مذكرة تفاهم، بناءً على توجيه مجلس الوزراء بتاريخ ٨ / ٥ / ١٤٣٩هـ.

قالوا: المرءٌ بجليسه، قُلْتُ: ولكن الإنسان هو الذي يُختار جلساءه، وهو الذي يُحدّد رفاقه. ومن نعمة الله عليّ أن صَحِبْتُ أحبةً أعانوني على العمل الخيري، ورغبوني فيه، ومنهم الزميل الدكتور إبراهيم بن محمد أبو عباة؛ فهو صاحب همٍّ ورسالة، ينشدُ خدمة دينه ووطنه، قضى شطراً من عمره في السودان مديراً للمركز الإسلامي هناك الذي تحول فيما بعد إلى جامعة إفريقيا العالمية، وبعد تقاعدي من العمل الرسمي وانتهاء عضويتي بمجلس الشوري، عرض عليّ الدكتور إبراهيم أن أشاركه في عضوية مجلس أمناء جامعة إفريقيا بالسودان، وشجّعني للعضوية، فأنا رجل تعليم، ويهمني بناء الإنسان علمياً، ومن ثمّ شاركت في عضوية مجلس أمناء الجامعة متطوعاً،

وهي شبيهة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، يدرس فيها قرابة خمسة عشر ألف طالب وطالبة، خمسة وسبعون في المئة منهم من جنسياتٍ مختلفة من أربع وسبعين دولة، ويتنا نساfer للخرطوم لحضور جلسات مجلس الأمناء السنوية واحتفال الجامعة السنوي، وعلى هامش تلك اللقاءات نزور بعض المؤسسات الخيرية هناك، وذات مرة صلينا في مسجد جماعة أنصار السنة، فاستوقفتني كتابة تاريخية في حجرٍ يُورِّخ تاريخ بناء المسجد بالعاشر من شهر جمادى الأولى عام ١٣٨٥ هـ، وحين ركزتُ نظري فيه، وإذا اسم العم محمد بن عبدالرحمن العبيكان رَحِمَهُ اللَّهُ يتلأأ بذاك الحجر، فقد كان سفيراً للمملكة في السودان ذاك الوقت.

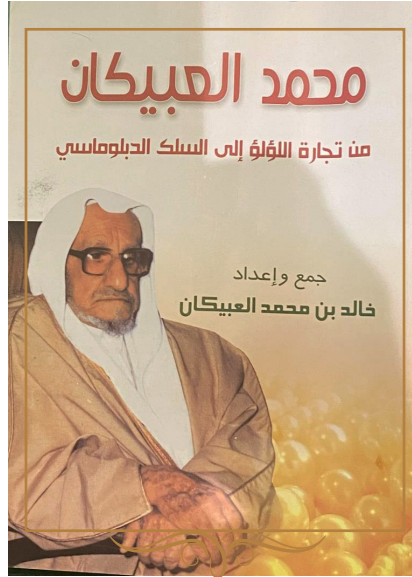


لقد وجدت بعضي هناك في هذا النُصب التذكاري، فما أن قرأت النقش إلّا وتذكرتُ العمّ الراحل، وتذكرتُ جلساته والحديث معه، حين تحصّلت على شهادة الدكتوراه أقيم لي احتفالاً في بيته، ودعا له كبار عائلتنا، وفي تلك المناسبة شجّع وأشاد. وقد صدرت سيرته الذاتية التي عرض فيها قصة حياته ومعاناته، وفيها معلومات عن الماضي ورحلاته، فقد سافر لتقويم الطلاب المتبعثين للدراسة في عهد الملك عبدالعزيز، وكان أميراً لبشة، ثم سفيراً في اليمن، ثم سفيراً في السودان، وهو أكبر من والدي، وهذه صورته وفهرس مذكرته رَحِمَهُ اللهُ.



وكانت له في بيته مكتبة ثمينة طالما استقبلنا فيها، وأطلعنا على محتوياتها، وقد أهداها لجامعة الملك سعود قبل وفاته.

هذا، وقد أعاد ابنه خالد إخراج مذكراته، وعرض فيها فصولاً مما دونه والده رَحِمَهُ اللهُ في سيرته الجديرة بالقراءة.



وهناك في السودان زُرتُ أنا والصديق الشهم المتطوع في كثير من الأعمال الخيرية الدكتور صالح بن حسين العايد، أحدَ مشاريع سليمان الراجحي الخيرية في بلدة الأبيَض، تبعد عن الخرطوم بالطائرة أقل من ساعة، ويتكون المشروع من مجموعة حظائر أبقار في ثلاث قُرى متقاربة؛ كُل حظيرة فيها مئة بقرة، ويرعى كل حظيرة خمس وعشرون امرأة أرملة، لكل واحدة أربع بقرات، تقوم المرأة بخدمة بقراتها وتوفير غذائها، بقص وجمع الحشائش، وتربية العجول، وحلب البقرات وأخذ حاجتها وأطفالها من الحليب، كما يقوم المشروع بتوفير طبيبٍ بيطري، وتكملة غذاء الأبقار،

وبيع العجول، وتسلم الحليب الزائد عن حاجة النساء وتصنيعه في مصنع مركزي للقرى الثلاث، ومن ثمّ تسويقه، والعائد لكل امرأة من هذا المشروع ثلاث مئة ريال سعودي تقريباً كل شهر، ووفّر المشروع في كل قرية بئر مياه، وداعية لتعليم وتوجيه أهل القرية. وحين قابلنا النساء المستفيدات من المشروع رأينا البشاشة في وجوههن، وسمعنا الدعاء للراجحي، تقبل الله منه.

إن هذا المشروع الخيري النوعي وإن مؤنّه وقف سليمان الراجحي، فإن المشرف على التنفيذ وبطله الساهر عليه هو الأخ السعودي المبدع صالح الغزلان أثابه الله. تجارب نوعية وأعمال خيرية نافعة. تقبل الله، وأجزل الأجر للباذلين والعاملين والداعمين.

هذا، ولئن سرّتنا تلك الأعمال الخيرية المتنوعة، فإن اهتمامنا بالتعليم أكثر، وتركيزنا نحو بناء الكفاءات العلمية أكبر؛ ولذا بعد أن تعرفنا على منهج جامعة إفريقيا وتركيزها على التعليم الواسطي المعتدل، وبُعدها عن الغلو والحزبية، وحرصها على جودة المخرجات، وتأكدنا من نبل رسالتها والتقينا بالطلاب، جرى الاتفاق مع الجامعة على أن نقوم بالتواصل مع نخبة من الطلاب الموهوبين؛ وذلك تجربة لفكرة رعاية الموهوبين، فرشحت الجامعة خمسة وعشرين طالباً من عدة دول مختلفة، قضينا أكثر من سبع ساعاتٍ نتناقش ونتحاور معهم.

وبدأنا في التواصل معهم، وصارت لي وللصديق الدكتور صالح ابن حسين العائد لقاءات متكررة معهم، استضافناهم للعمرة أكثر من مرة، وكان لهم برنامج علمي حافل بكثيرٍ من المناشط، قابلوا بعض أئمة الحرمين، واقتربنا منهم وقربوا منا، ومن أحاديثهم قصةٌ جديرةٌ بالرواية لطالبٍ كيني اسمه (كَيَّا).



كَيَّا والعناية الربّانية



هو طالبٌ من كينيا المعنيّ لودعي، تظهر عليه علاماتُ الفطنة والنباهة، ومنذُ بدءِ معرفته ومقابلته، لمحتُ تركيزه وإصغاءه ونحن نناقش زملاءه فردًا فردًا.

سألته ذات مرةٍ عن طموحه، فقال: كما هو واضحٌ في أوراقِي التي أمامكم فأنا تَخَصَّصْتُ في الاقتصاد، وهويتُ علم الاقتصاد، وأطمحُ أن أعود إلى وطني؛ لعلِّي أسهمُ في خدمة مجتمعي، بخاصةٍ

ذوي الظروف المماثلة لحالتي التي عشتُها. وسألتُه عن اهتماماته ونشاطه، فذكر أنه يحفظ أربعة أجزاءٍ من القرآن الكريم، وأنه الأمين العام لرابطة الطلاب الكينيين، وأنه حضر دورات في الشريعة عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكادت تدمع عيناه وهو يحكي تاريخ أم المؤمنين الطاهرة، وكيف يتناول عليها أحقرُ البشر وأخسُّهم. ودورةً أخرى عن شيخ الإسلام ابن تيمية، فذكر مؤلفاته، وكاد يُسهبُ في الحديث عنه لولا أن عُدْتُ به ليحكي قصة حياته التي وَجَّهَتْهُ لدراسة الاقتصاد، فقال: تزوّجَ أبي النصراني من أمي المسلمة، وبعد الزواج عَلِمْتُ أمي أن زوجها نصراني، فأبَت العيش معه وتَرَكَتْهُ، ولكن بعد أن تَكُونْتُ جَنِينًا في رَحِمِهَا، وبعد ولادتي تزوّجَتْ أمي برجلٍ مسلم، وتربَّيتُ في بيتِ زوجِ أمي حتى بلغتْ ستَّ سنواتٍ، حينها تُوفِّيتُ أمي، وذهبتُ للعيش عند أعمامي النصاري، وذلك أن أبي قد تُوفي كذلك، والتحقْتُ بمدارس القرية، وتدرجتُ في المراحل التعليمية حتى انتهاء المرحلة الثانوية، كُنْتُ في المدرسة والشارع مُسلمًا أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُصلي ولكن أعمامي يمنعوني من الصلاة، ففي بيتهم لا أُصلي العشاء ولا الفجر. لقد كان أعمامي متعصبين لنصرانيتهم، ويصدونني عن الإسلام، وقد باعوا إرثي من أبي، شجرةً وبقرة، وأنفقوها على تعليمي وتربيتي عندهم.

وبعد نجاحي في الثانوية العامة، انتقلتُ من القرية للعيش مع عمي الآخر في نيروبي عاصمة كينيا؛ لعلِّي أجدَ عملاً، وأُوَفِّرُ تكاليف الدراسة الجامعية، وكان عمي في المدينة أرقَّ من أعمامي في القرية، وزاد اختلاطي بالمسلمين، وازددتُ تمسُّكاً بالإسلام، ومضت سنتان ولم تتحقق أحلامي في الدراسة الجامعية، وذات شهرٍ عُدتُ زائراً لقريتي التي تعلَّمتُ فيها وفي مسجدِها، فرأيتُ إعلان جامعة إفريقيا العالمية، ففرحتُ وقَدَّمتُ أوراقِي للجامعة عن طريق المسجد، وبعد ثلاثة أشهرٍ وأنا في نيروبي، وإذا بأستاذٍ مسلم سبقَ أن درَّسني في التعليم العام بالقرية يرسل إليَّ رسالة يخبرني بالقبول، ففرحتُ، وعُدتُ للقرية مرةً أخرى، وتأكدتُ من قبولي، وعشتُ همًّا ومأماً، فلا نقودَ لديَّ لاستخراج جواز السفر وتأشيرة وتكاليف نقلِي من كينيا إلى السودان، لكن عَطَفَ عليَّ المحسنون وجمَّعوا لي التكاليف.

لقد حفظَ الله ديني، ويسَّر لي منحة الجامعة، وها أنا ذا مساعدُ أستاذٍ في الجامعة، وعلى وشك الحصول على درجة الماجستير ومن أوائل الطلبة، فالحمدُ لله أولاً وآخراً، وأنتم الآن جئتم لمدِّ يد العون لي؛ لأكمل مشواري التعليمي، وأعود إلى وطني خادماً لدين الله ولوطني.

ومضتِ الأيام وتابعتُ هذا الطالب؛ إذ تخرج في جامعة إفريقيا العالمية في السودان، ونال درجة الدكتوراه، وتزوج بفتاة من بلاده

تدرّس معه في الجامعة نفسها، وعاد الزوجان إلى بلديهما وشرعا في خدمة دين الله والدعوة إلى الله، وصارا يُدرّسان القرآن الكريم، ويعملان في ميدان التعليم في وطنهما كينيا، وبين الحين والآخر يتواصل عبر الواتساب يسترشد ويستعين.

إن أولئك الطُّلاب النابهين، خيرٌ خدامٍ لدين الله إذا وجدوا رعايةً وتوجيهًا، وهم قوةٌ ناعمةٌ للذودِ عن دين الله، وبابٌ من أبواب العمل الخيري المبارك. أسألُ الله لهم التوفيق.



أميرُ كانو النيجيري



هذا هو الدكتور أحمد سنوسي أحد طلاب جامعة إفريقيا العالمية. كانت لنا معه قصّة؛ فقد كُنْتُ عضواً في مجلس أمناء جامعة إفريقيا العالمية، وأشْهَدُ كُلَّ عامٍ احتفالَ الجامعة السنوي على شرفِ رئيسِ الدولة، وكان من ضمن فقراتِ الحفل السنوي، استضافةُ أحدِ طلابِ الجامعة السابقين؛ من ذوي المكانة العلمية أو السياسية؛ إذ كانت الجامعة تعرضُ كُلَّ عامٍ طالباً متخرجاً يتحدثُ عن ماضيه وحاضره، وأتذكّرُ مرّةً أنهم جاؤوا بطلابٍ أثيوبي تخرّج في الجامعة، وانتهى به

المطافُ أستاذًا في جامعة ستنفورد، وفي عامٍ آخر حضرَ طالبٌ صوماليٌّ يُدرِّسُ في جامعة بيركلي، وفي آخرِ سنةٍ احتفالية حضرَها، رأينا على المنصَّة طالبًا عرفناه بلباسِه أنه نيجيري، هو الدكتور أحمد سنوسي، وحين وقف وألقى كلمته، خاطبَ الرئيس السوداني آنذاك عمرَ البشير، وقال: «فخامة الرئيس: اسمحوا لي بكلمة أقولها، لا بدَّ من ذكرها في هذا الحفل البهّي»، فردَّ عليه الرئيس البشير بقوله: «تفضّل».

وتفاجأ الحضور الذين امتلأت بهم الصالة بقوله: «شكرًا للمملكة العربية السعودية، شكرًا للمملكة الخير والإنسانية، شكرًا للدكتور إبراهيم أبو عباة؛ فأنا جئتُ لهذه الجامعة يومَ كانت مركزًا إسلاميًا، ترعاه المملكة العربية السعودية، ومديره الدكتور السعودي إبراهيم أبو عباة، جئتُ من نيجيريا وأنا فتى لا وزنَ لي، واحتضنني المركز الذي تحوّل ليكون فيما بعدُ جامعة إفريقيا العالمية، وواصلتُ تعليمي في هذا الصَّرحِ الشَّامخ، حتى نلتُ شهادة الدكتوراه، ثم عدتُ إلى وطني نيجيريا، فكان لي شأنٌ واعتبار، تدرَّجتُ في المسؤولية حتى وصلتُ لإمارة كانو، وأصبحتُ مَلِكًا من ملوكِ نيجيريا، أحكم عشرين مليون إنسان، وما كان لي أن أصلَ لهذا المركزِ الحساس، لولا توفيق الله، ثم بركة المملكة العربية السعودية، عندما استقبلتني واحتضنتني في المركز المبارك بالخرطوم، وأكملتُ تعليمي في هذا الصَّرحِ العلمي الخالد».

وما أن انتهى الرجلُ من كلمته إلا ودوتِ القاعةُ بالتصفيق الحار؛ تعبيراً عن الفرحة، وانتشنا نحن السعوديون؛ فأن تسمعَ فجأةً هذا الشاءَ على وطنك، وفي دولةٍ أُخرى، وبحضور رئيسها، فهذا فخرٌ وشهادةٌ لأثرِ المملكةِ الكبير وقُوَّتها الناعمة.

وبعد الاحتفال، في الليلة الثانية، اتَّصلنا بالرجل؛ إذ كنّا نسكنُ وإيَّاه في فندقٍ واحد، والتقىنا به، وجلسنا معه في مركز رجال الأعمال بالفندق، وشكرنا وفاءهُ ونبْلَهُ، وحين كنّا نتحدّثُ معه، ونتناولُ موضوعَ التعليم وتأثيره في بناءِ الأمم، قال: لعلَّكم سمعتمُ بحَسَنِ زقزي النيجيري الذي كادَ أن يكون حسنَ نصرَ الله في دولة نيجيريا، التي يربو سكانها على مئتي مليون نسمة. لقد أوقفتُ حكومة نيجيريا نشاطه، وهدمتُ حُسينيّاته، وقبل أسبوعين من مجيئي إلى هنا كان من حُسَنِ الحظِّ أن كنتُ عند رئيسِ الدولة فخامة الرئيس إبراهيم داود، وجاء السَّفيرُ الإيراني إليه، وحضرتُ مقابلته وتحدّثَ السَّفيرُ عن حَسَنِ زقزي حديثاً ناعماً عذباً، قال: يا فخامة الرئيس، كيف تحاسبُ دولتكم رجلاً، جريمتهُ محبَّةُ آل البيت وتعظيمُهم في نفوسِ المجتمع؟ وصار يسترسلُ في الحديث الرقيق عن رسول الله ﷺ والحسن والحسين وأئمة آل البيت، وقد تميّزتُ غضباً وألماً لهذا الحديث الخادع، فطلبتُ من الرئيس أن يأذنَ لي بالحديث، فتكلّمتُ وقلتُ: سعادة

السَّفير، نحن مثلكم نحبُّ آل البيت ونُجلُّهم، ولقد درستُ المذاهبَ الإسلامية، وأحملُ شهادةَ الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، وأعلمُ قولكم الناعمَ هذا، لكنكم تشتمونَ زوجةَ رسولِ الله ﷺ أمَّ المؤمنين عائشةَ الطاهرة، وتتطاولون على أبي بكرٍ وعمرَ والصحابَةِ رضي الله عنهم، وتُكفِّرون من لا يؤمنُ بالإمامِ الغائب. إن هذا الفكر العقائدي هو ثورتكم التي تصدّرونها وتفرّقون الشعوبَ بها. واسترسلتُ في الشرح والإيضاح، حتى إنني تجرأتُ وقلتُ للرئيس: أرجو أن يكتفي بما قال، ويشرب كأسَ العصير الذي أمامه، ويتركَ هذا الإقناع الباطل.

ثمَّ أثنى على المملكة كثيراً، فشكرناه وشجّعناه للمضي قدماً في خدمةِ دين الله الوَسْطِي السَّمَح. وبقي هذا الموقف حاضراً في الذاكرة، أرويه في بعض المناسبات في معرضِ الفخرِ والعزةِ بوطني، وأدوِّنه في ذكرياتي؛ ليبقى شهادةً تاريخيةً عن التعليم، وكونه قُوَّةً ناعمةً لوطننا المعطاء، لمملكةِ البذلِ والخير، حرسها الله بعينه التي لا تنام.



سائقُ الأجرة المكي

مما أرى أنه مجالٌ مهمٌّ من الأعمال الخيرية، هو بذل الجاه لذوي الحاجة، فإذا أعطى الله الإنسان جاهًا ففيه صدقة، وهذا أمرٌ يغفل عنه كثيرون، بل تجدهم يتسابقون لبذلِ جاههم؛ لأجل الدنيا، فيساعدون هذا ليساعدهم، تبادل منافع، أو يهبُّون مع الآخر؛ بدافع الحياء والمجاملة، فجُهدُهم دُنيوي محض!

إن العمل الخيري ليس ببذل المال، فقد يكون الجاه في بعض الحالات أهمّ. ورد أن العتابي وقف بباب المأمون يلتمس الوصول إليه، فصادف يحيى بن أكثم جالسًا ينتظر الإذن، فقال له إن رأيت -أعزّك الله- أن تذكر أمري لأمر المؤمنين إذا دخلت فافعل. قال له: لستُ -أعزّك الله- بحاجبه. قال العتابي: فإن لم تكن حاجبًا فقد يفعل مثلك ما سألت، واعلم أن الله **عَزَّجَلَّ** جعل في كل شيء زكاة، وجعل زكاة المال: رِفْدَ المستعين، وزكاة الجاه: إغاثة الملهوف، واعلم أن الله **عَزَّجَلَّ** مقبلٌ عليك؛ بالزيادة إن شكرت، أو التغير إن كفرت، وإني لك اليوم أصلحُ منك لنفسك؛ لأنّي أدعوك إلى ازدياد نعمتك وأنت

تأبى، فقال له يحيى: أفعلْ وكرامة. وخرج الإذن ليحيى فلما دخل يحيى لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن استأذن المأمون للعتابي، فأذن له. إن بذل الجاه كما قال العتابي زكاةً لخير خَصَّكَ الله به، لقد بشرت الملائكة مريم بنبي الله عيسى عليه السلام، وأنه وجيهٌ في الدنيا والآخرة: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. رزقنا الله وجاهة الدنيا والآخرة. ويعلم الله أني حين أذكر بعض الصور فليس هدي في منها إلا عرض تجارب تدفع لمحاكاتها، فلا تتردد أخي في الله، فيما تستطيع عليه، وكُن عبد الله الباذل، ومحمدًا المساعد.

أتذكر أنه في بداية مشروع الملك عبد الله لابتعاث الشباب، وفي الطريق من مكة المكرمة إلى جدة بسيارة أجرة، سمع السائق محادثتي الهاتفية، وعرف أني كُنْتُ مسؤولاً سابقاً في التعليم، فرغب أن أساعده في موضوع تعليم ابنه، وعلمتُ من سياق حديثه أن ابنه قد أنهى المرحلة الثانوية! وظننته بادئ الأمر غير سعودي، ويرغبُ تسجيل ابنه في إحدى الجامعات، ولكنه وضح أنه سعودي، وله أسرة مكوّنة من زوجة، وثمانية من الأبناء والبنات، وهو من سكان مكة المكرمة، وبين أن ابنه أمضى قرابة عامٍ دراسي في أمريكا، وقد أنهكه الصرف

عليه، فمصدر دخله تقاعده، وكان يعمل برتبة جندي رقيب، فضلاً عما يحصل عليه من سيارة الأجرة التي يتردّد بها بين جدّة ومكة!

وفتح الله عليّ أن أبذل جاهي وجُهدي لمساعدة هذا الرجل المكافح، فزوّدته بهاتفني، وبريدي الإلكتروني، كما طلبتُ منه هاتف ابنه في أمريكا! وبعد يومين تواصل معي ابنه نايف، وأخبرني بمعاناته، وأرسل تفصيلاً عن وضعه التعليمي، وصوراً من مؤهلاته. وأخذت ملفّه، وكنت أعرفُ معالي وزير التعليم العالي الدكتور خالد العنقري، فطلبتُ من مدير مكتبه موعداً لمقابلته، وحين عرف الوزير برغبتني في زيارته، على الفور خصّصَ وقتاً، فقابلته في اليوم الثاني!

وعرضتُ عليه وضع الطالب وطموحه، وحرّص والده على تعليمه وهو سائق تاكسي، فتعاطف - جزاه الله خيراً - ووجّهه بسرعة ضمّه للبعثة!

وفي اليوم التالي قابلتُ وكيل الوزارة الدكتور عبدالله الموسى، وحين علم بهمة تلك الأسرة بذل جهده في إنجاز موضوعه أثابه الله، وأحمد الله؛ فخلال أسبوعين، أبلغ نايف هناك في أمريكا، أنه بات من ضمن طلاب مشروع الملك عبدالله رَحِمَهُ اللهُ للابتعاث!

ومضت الأيام، وبعد سنتين، وإذ بالطالب نايف يهاتفني من

أمريكا، وينشد مساعدته في مشكلةٍ حدثت له، وذلك أنه تمكّن من اصطحاب زوجته. وزوجات المبتعثين يصرف لهن مكافآت تُقدّر بثمان مئة دولار شهرياً، ثم زيدت عام ٢٠١٤م إلى أكثر من ألف دولار.

قال نايف: إن زوجتي عادت للمملكة للولادة ثمانية أشهر، واستمر الصرف لها، ولم أكن أعرف أن النظام يمنع ذلك؛ ولذا بعد أن عرفتِ الملحقيةُ بعودة زوجتي طالبتي بإعادة المبالغ المصروفة للمدة التي عادت فيها للمملكة، والمبلغ لا يتوفر لدي، فهل يمكن إعفائي أو تقسيطه أو خصمه من مكافأتي الشهرية، وأرسل تفصيل ذلك بالبريد الإلكتروني، وتوجّهت للوزارة بعد سنتين، وعرضت المشكلة، فذكروا أن الإعفاء مُتعدّد، ولكن يمكن تقسيط المبلغ! وجرى ذلك!

وانتهت بعثة نايف، وعاد مهندساً متفوقاً، فهاتفني وطلب مساعدته في البحث له عن وظيفة، ونجحتُ في توظيفه في مجموعة العبيكان براتبٍ مغرٍ، ثم وجد عملاً في مكة المكرمة، فانتقل إليه واستقرّ بين أهله وذويه. هذا الطالب حين بذلتُ جهدي لمساعدته، كان ذلك من دافعٍ خيري؛ فهو فقيرٌ الحال، ضعيفُ الجاه، وفي مالٍ الرجل صدقة، وفي جاهه صدقة.



تجربة حبيب الله الأفغاني

استضفت ذات مرة مجموعة من طلاب المنح في جامعة الملك سعود،
 بنية تكريم ضيوف بلدي القادمين لأجل العلم والتفقه في دين الله،
 ومذاكرتهم وإشعارهم بالتقدير والحب في الله، فهم ممن أحسبهم ممن
 قال الله في وصفهم: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ
 طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].
 وحين جلست وإياهم نتبادل أطراف الأحاديث، رغبت تذكيرهم
 بالله والعمل لخدمة دين الله، وإذ بأحدهم يُحدثني بحديثٍ صغرْتُ
 نفسي حين سمعته، وعَلِمْتُ أن في أرض الله جنودًا خفيين، يحملون
 همَّ الدعوة والرسالة، إي والله قسمي، جهودٌ يسيرةٌ لكنها جليلة.
 أثنى الطالبُ حبيبُ الله من أفغانستان على المملكة، وشكر أنها
 استضافتهم للعلم وأنفقت عليهم، وقال: بعد أن بدأت دراستي
 وصرْتُ أستمم مكافأة شهرية، فكَرْتُ في بلدي الذي جِئْتُ منه
 وواجبي نحو جماعتي، ووجوب تعليمهم دين الله وتبصيرهم بتعاليمه،
 فقررتُ أن أفتَحَ مدرسةً في قريتي، وحين عُدتُ في إجازتي رُبْتُ

الأمور، والتزمتُ بأداءِ درسٍ يوميٍّ لهم من بُعد، وعيّنتُ مُعلِّمين، والتزمتُ لكلِّ واحدٍ منهما براتبٍ شهريٍّ قدره خمسون ريالاً، أحولُه لهما من الرياض فور استلامي مكافأتي من جامعة الملك سعود، وبدأتُ الدراسة، وانتظم فيها قرابة تسعين دارساً، نُعلِّمهم كلّ صباح القرآن والعقيدة، ومعلومٌ فارق الوقت بين الرياض وأفغانستان؛ إذ أستيقتُ مُبكراً وأدرّس مادّتي قَبْلَ موعد الدراسة هنا.

هَمَّةٌ عظيمةٌ من هذا الطالب البسيط، أين نحن منها؟!

أخي في الله، هَمَّةٌ من شابٍّ دارسٍ يقتطعُ من مكافأته مئةَ ريالٍ شهريّاً لتعليم القرآن الكريم والعقيدة في وطنه.

ماذا عملنا لأنفسنا؟ لنسأل ذواتنا ونُحاسبها، ولا يستصغِرُ أيُّ منا جُهدَهُ.

هذا، وأحسبُ أن هذا الطالب من الضارين في الأرض يبتغون

من فضل الله. ﴿وَأَخْرُوجْ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

لقد آتى الله فضله لهذا الطالب الأفغاني؛ فوفقه وبارك له في

وقته وعلمه وماله.



إمام الفجر... يومٌ لا يُنسى !

ما أكثر أيامنا التي تمضي كأنها لم تكن! تمرّ بنا فتمضي، ولا تترك في القلب أثراً، ولا في الذاكرة طيفاً. لكنّ هناك من الأيام ما يُشبه الورد حين يتفتّح، والنور حين ينسكب، والنسيم حين يداعب الأرواح... تُخلّف أثراً لا يُمحى، وتُسجّل في القلب صدى لا يخبو. ومن تلك الأيام، ذلك الصباح البهّي الذي سجّد فيه القلب قبل الجسد، كان في مكة المكرمة .

قرأتُ في «نفح الطيب» أن الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر رَحِمَهُ اللهُ كتب بيده ما سمّاه: «أيام السرور التي صفتُ له دون تكدير»، فكانت أربعة عشر يوماً فقط! ملك الأندلس أكثر من خمسين سنة، وما جمع من بهجته إلا أقلّ من أسبوعين! فسبحان من جعل البهجة ومضات لا تُقاس بطول الأيام، بل بنورها في القلب.

وأقول: أنا عبدالعزيز، من أيامي السعيدة التي لا تُنسى، يومٌ طاب زمانه ومكانه، يومُ الثلاثاء، الثالث من ذي الحجة عام ١٤٤٢ هـ. في زمان جائحة كورونا، وقد قُنن دخول الحرم الشريف،

فأذن لي برنامج «توكلنا» بصلاة الفجر في المسجد الحرام ذلك اليوم المبارك، كان ذاك التصريح لي بمنزلة الكنز الثمين .

تململتُ في فراشي ليلتها، كأني على جمرٍ من شوق، لا أدري أهو الحنين إلى بيت الله، أم رهبة الطريق، أم كلاهما؟! فلما مضى الليلُ إلاّ الأقلّ، توضأتُ وخرجتُ بخطى الخاشعين، أطرقُ الأرضَ بجبهتي قبل قدمي، أستجدي الرحمة، وألتمس القبول.

عند نقطة التفتيش، قُوبِلْتُ بنظرة الحزم وعبارات التثبّت، ففتحتُ الهاتف وأظهرتُ الإذن، فتهلّلت الوجوه، وأذن لي بالعبور. كبرتُ ولبيتُ، ومضيتُ أظنني ذاهبٌ إلى صحن الطواف، فإذا بطريقي يأخذني إلى باب العمرة، ومنه إلى سلام كهربائية صاعدة إلى الدور الثاني.

هناك، وقف الزمانُ، وسكنتِ الأرواحُ وهدأتُ . نظرتُ حولي فما رأيتُ إلا فراغاً فسيحاً، كأنّ المكان ينتظرنى وحدي. اقتربتُ من الإطلالة على البيت العتيق، فوجدتُ رجل أمنٍ مباركاً، فقلت له: أريد القرب لأرى الكعبة، فقال: خيراً لك النزول من هناك لصحن المطاف، اسرّع قبل أن يرد الأمرُ بإغلاقه، فلملمتُ سجادتي، ورفعتُ حذائي، وهرولتُ بنبض الوَلَه، حتى وجدّني على مقربةٍ من صحن الطواف .

سلمتُ على رجل أمن آخر، فأجابني بأطيب من سلامي، فسألته: أأدخل؟ قال: أوترغب بالطواف؟ قلت: ليتني! قال: هو ذاك... أمامك!

رمى حذائي وسجادي بجوار إحدى الأعمدة، وأسرعْتُ غير مُصدق، فطُفْتُ قبل أذان الفجر، ووالله ما أدري ما قرأت، وما دعوت، وما همستُ به في الأشواط الثلاثة الأولى، كانت دموعي تطوف قبلي، وفرحتي تطوف حولي. ثم تذكّرت مكاني، فهللتُ وسبّحتُ، وإذا بي أستشعرُ الطوافَ كما يليق به. شعرتُ أنني أخفُّ من الهواء، أثقل من الجبال. الملائكة تقترب، والشياطين تنزوي. قلبي يُقبّل الأرض، ونفسي تعانق السماء، وفي الشوط الأخير تلفتُ يمنة ويسرة أين تلك الألوف المتراحة؟ وأين تلك المئات المُبتَهلة لقد غيَّهم الوباء، وقلَّلهم وجوب التباعد، وخوَّفهم الحذر من العدوى، رباه ارفع البلاء، رباه اكشف الغُمَّة وانتهيتُ في بضع دقائق !

ثم اتَّجَّهْتُ إلى خلف المقام، حيث سُجِّدَتْ سجاداتٌ قليلة، متباعدة، كأنها نجوم في فلك هادئ. صليتُ ركعتين، وكانت نفسي تحلّق مع الأرواح الزكية، بين مقام إبراهيم، ومقام الصدق، ومقام الحب. وهنيئةً وأذن مؤذن الفجر، وكبر، وشهد، ووحد، وارتبطت السماء بالأرض، وخلَّت الملائكة تهبط زُمراً لتشهد قرآن الفجر، كما وعد الرحمن: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾.

وبعد ركعتي سنة الفجر المؤكدة، تقدم الإمام للمحراب، وإذا

الأرواح تهدأ، والقلوب تخشع، والأنفاس تختلط بأنفاس الغيب.
سكنت الأرض، وارتفعت الأرواح، وساد في ذاك الركن من الحرم
نورٌ ربّانيٌّ لا يُقاس بضوء، ولا يُفسّر بكلام.

لم يكن إمام الفجر في ذلك الصباح إماماً للمصلين القلائل
فحسب، بل كان تجلياً من تجليات النور، ومقاماً من مقامات الطهر،
تبّلع فيه فجرُ الروح كما تبّلع شمسُ مكة، وبدت فيه ملامحُ
السماء وكأنها تقول: من سار إلى الله في ظلمة الدنيا، أشرق له
الأنوار من أبوابها السبعة.

صلينا صلاة أنستنا الدنيا، وربطتنا بالآخرة، وكأنّ الأرواح تشهد
الملكوت، والقلوب تطالع الجنان.

صلينا وكأن ملائكة السماء قد ملأت ساحات الحرم بعد أن
غيب وباء كورونا البشر، كان الهدوء والخشوع وهروبُ الشيطان
ووسوسته .

وبعد الصلاة، أمرنا بالمغادرة، فقلتُ في نفسي: أليس لنا عندكم
مقعدٌ إلى الإشراف؟ لكن القوانين لا ترحم. ابتعدتُ إلى جهة المراقبين،
وجلسْتُ قُرب المكبرية، أبحثُ عن سجّادتي فلم أجدها، ولم أر
حدائي. لعلهما ضاعا كما ضاعت الدنيا في لحظة الخشوع .

ثم طُفْتُ مرة أخرى قُبيل الإِشراق، وصليتُ ركعتين خلف سارية حُجَبَتْنِي عن أعين الحراس .

وبعد ذاك خرجتُ حافي القدمين، أبحث عن حذاء في الدكاكين، فلم أجد بائعًا ولا متجرًا، لقد غاب كل شيء... إلا النور الذي دخل القلب. خرجتُ أحمِلُ ما هو أثمن: طُمأنينة لا تشتريها الدنيا، وسكينة لا تُهدى إلا لمن ذاق ذاك الطواف الوحيد، وصلى الفجر خلف إمامٍ أتخيله ذاك اليوم ليس من أهل الأرض، بل من أنفاس السماء وجماعة أحسب أن أغلبهم من الملائكة الأطهار .

وبعدُ يا قارئِي، تلك اللحظات لم تكن عابرة، كانت عُمقًا في الروح، وسفرًا إلى السماء. لم تكن مجرد ركعات وسجادات، بل كانت لقاء وُدٍّ ورجاء... وبقي فجر ذاك اليوم منقوشًا بالذاكرة كلما زُرت الحرم تبدَّى بصوره وأشخاصه ورجال أمنه وإمامه أمامي أكاد أمد يدي للسلام عليهم أسأل الله القبول والمغفرة .



جماعةُ المسجد

لَمَّا فرغتُ من كتابة هذا الكتاب، وأغمضتُ عيني أستريح، أحسستُ
بأصواتٍ خافتةٍ تأتي من بعيد، كأنها حفيفُ مآذنٍ تهمس في أذني:
«نحنُ رفاقُ الصلوات، وأنسُ الركعات، وجيرانُ الخير والعون،
أما لنا في صفحاتِ ذاكرتك نصيب؟»

ففتحتُ عيني كمن أُوقظ من غفوةٍ طويلة، فإذا الوجوه التي
كانت تملأ حياتي خشوعًا وسكينةً تُطلُّ عليَّ من أطراف القلب.
وجوهٌ طاهرة، وعيونٌ تحمل عتابًا لذيذاً فيه دفء المحبة وصدق
الودِّ، كأنها تقول:

«أما تذكُرنا ونحن جيرانك نُصافحُك بعد كلِّ صلاة، ونتهادى
الموعظة والنصيحة؟»

أما تذكُرُ خفقات قلوبنا حين تُتلى آياتُ الوعد والوعيد، وأصواتُ
البكاءِ وهي تفيض مع كلِّ سجدةٍ وركوع؟»

ثم كأنهم رددوا بأصواتٍ خاشعة:

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦]

وقالوا: «تأمل عِظَمَ شأن الجار، أوصى الله به، وقرن وصيته بالجار بأمر عظيم، وشأن جليل بعبادة الله وتوحيده، وكذلك مع حقوق الوالدين وذوي القربى» والرسول ﷺ أوصى بالجار حتى كاد أن يورثه. وقالوا كذلك: «نحن جيرانك من ذوي القربى: أبوسعود عبدالعزيز المرشد، وسعد المحمود، وعبدالله الحمادي».

ثم أما تذكر حبيبك وجارك عبدالعزيز المقرن وجلساتكما التذاكيرية؟ وذاك عبدالرحمن الدحّام رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان يقوم قبل الفجر بساعة فيناجي ربّه، فترون تلالاً وجهه، وتغبطون تبكيه للمسجد» وأضافوا: «نحن نعرفك يا عبدالعزيز، لست بالمختال الفخور، لكنّ جيرانك لهم فيك ذكرى وعبرة. ففيهم من علّمك البشاشة وطلاقة المحيا، ومنهم من علّمك بخشوعه، وبينهم من جذبك بقراءته، ومن أنست بحديثه وتجربته، ومنهم من أطربك بمداعباته». فأيقظوا في داخلي صوت التربية والتعليم، فأنا ابن التعليم وسابح في بحره، وأدركت أن الجار مدرسة، وأن المسجد معهد إنساني رفيع.

تلك المساجد لم تكن جدراناً للصلاة فحسب، بل ساحاتٌ للتربية وبناء الإنسان، وربّتي على الخير والصبر والسكينة.

منفوحة... طفولة الركوع

ورجعتُ بذاكرتي إلى منفوحة، إلى المسجد القبلي في بلدة الأخوال، أرى الشيخ عمر بن محمود رَحْمَةُ اللَّهِ وقد احدودب ظهره من طول القيام، لكنّ صوته ما انحنى.

كان يقرأ القرآن بصوتٍ شجيٍّ يوقظ القلوب الغافية، وخلفه صفوفٌ ترتجف بخشية صامتةٍ كأنها صفوف الملائكة في محرابٍ من نور. وبجانبه أولئك الرفاق الذين لا تنطفئ ذكراهم: ابنه محمد بن عمر، وابن سحيم، وابن جمعان، والسلولي، وابن شايق. وجوهٌ وضّاءة كأنها نُسخ من خشوع واحد.

وفي جامع منفوحة الجنوبي، كان يعلو صوت الشيخ عبدالرحمن الشعيبي رَحْمَةُ اللَّهِ جهورياً يجلجل بالحق، يذكّر المصلين بالله ويعظهم بالصدق. كنّا فتیاناً نقف في آخر الصفوف، نرقب الكبار الذين يأتون قبل الأذان بساعاتٍ ينتظرون الصلاة كمن ينتظر لقاء الحبيب.

سمعتُ شاباً يوماً يقول لرفيقه وهو يرى شيخاً منحني الظهر يصلي:

«أما يملّ هذا الشيخ من طول الصلاة؟!»

فابتسم صاحبه وقال: «ذاك يصلي بقلبه، وأنت تصلي بجسدك.

وصلاة القلوب غير صلاة الأجساد!»

فوعيتُ أن العبادة حين تسكن القلب لا يعرف صاحبها الملل.

مسجد الموافق... دموع الفطرة

وفي مسجدنا الصغير المعروف بمسجد الموافق، ما زلتُ أسمع

خالي محمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ بنا في الصلاة الجهرية بصغار السور، فإذا صوته

يُكِيننا ونحن صغار، كأن كل آية تُخاطب الفطرة فينا.

وأرى خالي عثمان رَحِمَهُ اللَّهُ حين يرفع يديه للتكبير، يرتجف كأنه

يرى الجنة والنار رأي العين.

وكان المؤذن سلمان بن قباع يبتسم وهو يسلم على الداخلين،

يضيء المسجد قبل أن يضيئه المصباح.

كنتُ فتى لا أفهم سرّ الطمأنينة التي تغمر وجوههم، ثم علمتُ

أنها سكينه الإيمان إذا استقرت في القلب لم تبرحه.

مسجد أم ماجد... مدرسة السكينة

ثم أقامنا القدر في مسجد أم ماجد - رَحِمَهُ اللهُ ورَحِمَ ابنها الأمير ماجد بن عبدالعزيز - حيث كانت العبادة والعلم توأمين لا يفترقان.

ذلك المسجد كان مزدحمًا بالقلوب المضيئة:

عبدالعزیز الشقري يقرأ من حفظه في صمتٍ مهيب، كان قريب القلب لوالدي وبمقام الأب له، وطالما صحبه والدي في الحج .

يذكر أبى أن الشقري طول رحلة الحج يستيقظ في الثلث الأخير من الليل ويقترب من والدي يدفعه برجله ليستيقظ والدي من نومه ويصلي وإياه ثم يُسرِع لإعداد القهوة وبعد صلاة الفجر تطيب الجلسة.

وفي ذاك المسجد أرى جارنا الشعبي ، وابن عجلان يسبح في خشوعٍ لا يقطعه إلا الأذان،

والشيخ عبدالرحمن بن هويمل - الإمام الهادي - يسكب بصوته الطمأنينة في الأرواح.

وفي الزاوية كان والدي رَحِمَهُ اللهُ يجلس وحده كأنه اتصل بالسماء حتى نسي الدنيا وما فيها.

وأذكر عبدالمحسن بن عبدالله آل الشيخ، أخ سماحة المفتي عبدالعزيز آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ منكبًا على كتبه، وإلى جانبه طلابٌ غرباء

قدموا من خارج الرياض يسكنون غرفاً طينية داخل المسجد،
يتناوبون نظافتها بخُلُقٍ رفيع وصبرٍ جميل.
كان ذلك المكان مدرسةً للأدب قبل أن يكون مدرسةً للعلم.

صباح... نخيل ورفاق

ثم انتقلنا إلى صباح، وكان المسجد الطيني الصغير نواة حياةٍ
كاملة، يجتمع فيه الجيران من آل فياض وآل عون يملؤونه ذكراً وقرآناً.
وهناك ساق الله إلينا جيراناً من رياض الخبراء، كأنهم إخوةٌ
روح لا جيران سكن:

الشيخ ناصر السحيباني رَحِمَهُ اللهُ وأبنائه الثلاثة:

محمد (أبو عبد القيوم) بابتسامته الوداعة،

عبدالرحمن (أبو سلطان) زميلي وصاحبي في المذاكرة،

وعبدالله (أبو الطيب) بطبعه الهادئ وصدقه الفطري.

كنا نصلي ونذاكر، فإذا تعبنا رفعنا أبصارنا إلى النخيل السامقة
نستمد منها نسيم البركة.

وفي مساءات الصفاء، كنا نجلس على التراب نعدّ النجوم صفّاً
صفّاً، حتى يفاجئنا رجل العسة فرعاً من حيوانٍ غريبٍ رآه، فنطمئنّه
ونحن نضحك.

كانت تلك المزارع خالية بالأمس، وهي اليوم أسواق عامرة تتقاطعها طرق الرياض الحديثة. كم تغيّرت الأمكنة، وبقيت الذكريات تضيء القلب.

ومن مواقف تلك البقاع ما كان مع خير النخيل عبدالله بن سعد بن سلمان من منفوحة، يعمل في تأبير النخيل وتسلق جذوعها، رأي يومًا أذاكر كتابي قرب المزرعة فقال مازحًا:

«هل تتعلمون عن النخيل في كليتكم؟»

قلت: «لا، لكنني أتعلم منك الصبر والعزيمة!»

فتحدّاني وقال: «نتسابق، أنت في الأرض وأنا في الجذع، ومن يصل إلى الرطب أولاً فليأكل!»

وبين ضحكته ولهاثي صرخ من أعلى النخلة: «يا حلّو يا حلّو!»

فضحكت، وتعلمت أن الخبرة صنو التعليم، وأن المدرسة لا تكفي بلا خبرة الحياة.

الأفعى والنجاة

وفي مساءٍ آخر، كنت أذاكر قرب الجدار الطيني على ضوء لمبة خافتة، لا تكيّف ولا أنيس، وفجأة قُمْتُ من مجلسي وما أن ابتعدت خطوات وإذ بصوتٍ من علوٍ يهوي خلفي! حسبته بادي الأمر قطعاً سقط، والتفتُ فإذا أفعى سوداء تتلوى حيث كنت أجلس قبل لحظات.

جلست شاكرًا الله أن قُمت من مكاني قبل لحظات فلو بقيت
لكان سقوط الأفعى فوق رأسي، وأحسست أن المسجد الذي آواني
للمذاكرة قد آواني للحياة أيضًا، ومن لجأ إلى بيت الله لا يُخيفه شيء.

جيران الفجر

تتابعت السنين، وتبدّلت الأحياء والمساجد...

في الشفا كان المسجد يجمع الجيران بالودّ والسؤال - آل حمود،
المرشد، أبانمي، عبدالعزيز الشميسي، سعد بن محمود - وإمام المسجد
الشيخ الطريري، أقمارٌ غابت وسبقتنا إلى الجنة بفضل الله ومغفرته.

وفي شمال الرياض حطّطُ الرحال قرب المستشفى التخصصي، حيث
الجيران: الزامل، السليم، خالد الشريمي، وابن الشيخ، يلتقون خمس
مراتٍ في اليوم واليلة، وخصوصًا في صلاة الفجر، قلّ منهم من يتخلف.
وبعد الصلاة، جلساتُ ذكرٍ واستغفارٍ تزدان بقراءة خالد
الشريمي النجدية الشجية.

طالما حمسني جلوسه حتى الإشراف أن أكون مثله؛ جماعةٌ تتعلم
منهم، ويأخذونك إلى رياض الجنة.

وذاك إمامنا ناصر الخريف يتسم كمن يرى أبناءه يسرون إلى الجنة.

كم من صباحٍ جلستُ بينهم بعد الفجر، والنسيم البارد يداعب
وجوهنا، ونحن نقرأ من سورة النور أو الواقعة، حتى إذا همس أحدهم:
«اللهم اجعلنا من أهل المساجد الذين لا تُطفأ أنوارهم يوم القيامة»،
انهمرت دمعةٌ خفية، وشعرتُ أن هذه اللحظات أغلى من عمرٍ كامل.

المحمدية... وجيرة الصالحين

وأخيراً استقرّ بي المسكن في المحمدية الغربية، فوجدتُ فيها نعم
الجيران ونعم جماعة المسجد على النهج نفسه:

إخاء، ومودة، وسؤالٌ عن الغائب، وزيارةٌ للمريض، ووفاءٌ
يذكّر بقلوب السلف الصالح.

كأن النبي ﷺ أوصاهم بي شخصياً، حين قال: «ما زال جبريل
يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه». فحين تُحاط بجيران الطاعة
والعبادة، فقد أُحيط قلبك بالخير.

هم رفاق الطهر، وخلان الدعاء، وسر السكينة في زمنٍ مزدحمٍ بالضجيج.
قومٌ ربطوا قلوبهم بالسماء، فكانت الأرض لهم طيبة، وكانت
حياتهم صلاةً دائمة.

رفقاء الدنيا والآخرة

ما من سجادٍ صلّوا عليه إلا وبللته دموعهم، ولا من جدارٍ في

مسجدٍ إلا وحفظ سرًّا من أسرار توبتهم.

تلك بيوتُ الله التي تُضيء الأرض، تُحى فيها الأحران، وتُغسل
القلوب، وتُكتب الرحمة لمن خطا إليها.

المسجد ليس جدرانًا ولا أعمدة، بل قلب المدينة وروح الإنسان.

فيه يجتمع الغني والفقير، الكبير والصغير، صفٌّ واحدٌ أمام
الواحد الأحد.

يبدأ اللقاء بالسلام وينتهي بالسلام، وبينهما تغسل الأرواح بهاء الطهر.

يا صاحبي القارئ،

إن كنتَ تريدُ رفقةً لا تخون، وسعادةً لا تزول، فاجعل للجوار
احترامًا ومحبةً وتقديرًا وإكرامًا،

وللمسجد في قلبك بيتًا كما جعل الله له في الأرض بيتًا.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

تلك البيوت التي عمرها أولئك الأبرار فارتفعوا بها، وستظلُّ
أرواحهم فيها ما تعاقب الليل والنهار.

رحم الله من سبق، وبارك في من بقي، وجمعنا بهم في دارٍ لا
يُفترق فيها الرفاق،

في مساجدٍ من نورٍ تحت ظلِّ العرش العظيم.

رجع الصدى

تمرّ الأعوام، وتنطوي صفحات العمر، وتغيبُ معها ذكريات
العمل، كأنها أوراقٌ جفّ حبرُها. ثم فجأة... وبين زحام الحياة،
يأتيك صوتٌ من الماضي، رجّع صدىً بعيد، لا تزال أصداءه تسكنُ
في قلوب الأوفياء.

خرجتُ من الوظيفة، كما أفواج خرجت من قبلي، وستخرج
من بعدي، وظننتُ أن ما كان قد صار في طيّ النسيان، وأن الوجوه
التي عرفتُها وعرفتني ذابت في الزحام... لكن وفاء بعضهم أعادني
إلى تلك اللحظات كأنها الأمس، وبرزت مرآةً عكست الماضي أمامي
وتبدّى شريطٌ يدور برفق ترى فيه صور زيد، وعبدالله، وسعيد، ووو.
رجُلُ ألقاه في مسجدٍ فيسَلِّم عليّ، ويُعرِّفني بنفسه وموقفي معه
الذي نسيته ولم ينسه، وأنظر في عينيه، لا أذكر شيئاً مما كان لكنه
يتذكر فالقلوب لا تنسى !

وأخبراني في مناسبة اجتماعية فتحضره ساعة لقائه بي، وما

اتخذتُ معه، فُتَحَّتْ مُرْوَةٌ أَنْ يَشْكُرَ، وثالثٌ تكلَّفَ وبحث عني
وزارني بعد سنوات ليقول كلمة شكر ظلَّت حبيسةً في ذهنه من
سنين، ورابع يزور ويرغبُ المقابلة وإبلاغي بمشاعره، ومنهم
من سأل عن هاتفي وتواصل وشكر، وصار في الأعياد وبين
الحين والآخر يتواصل للسلام والشكر، ورابع وخامس وصلتني
رسائلهم تحمل بين سطورها شكرًا لمواقف نسيْتُها وبقيت في
صدورهم مشعلًا من نور.

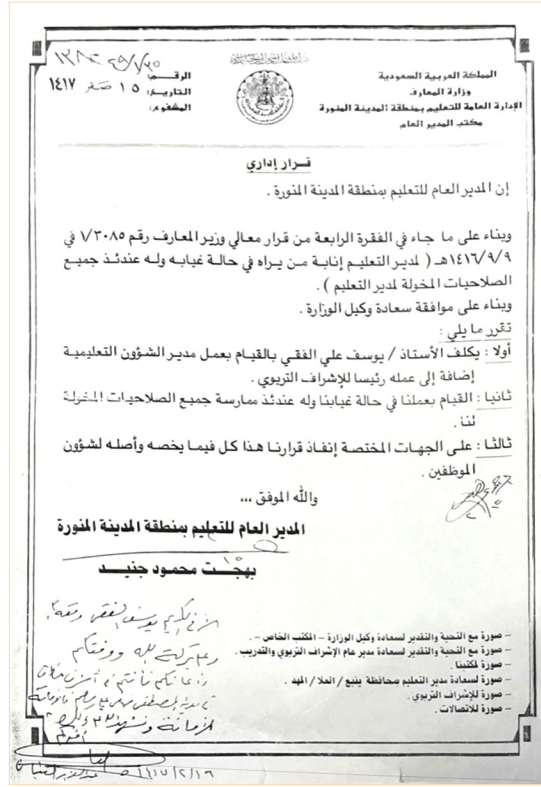
كُلُّ أَوْلَئِكَ الْكَرَامِ يَحْفَظُونَ الْجَمِيلَ؛ وفاءً منهم ونُبلاً لمواقف
اتخذتها معهم ونسيْتُها، ومرَّتْ تلك المواقفُ مرور الطيور المُحلَّقة
وغابت، إلاَّ أنها خالدة في أذهانهم.

هي المروءة تتكلم بعد صمت وإغفاء، ويثني الوفاء على صنائعٍ
لم تتنظر جزاء ولا شكورًا.

« في المسجد النبوي »

ألقاني القدرُ ذات مساءً بالمسجد النبوي برجلٍ من رجال التعليم،
هو الأخ يوسف الفقي. عانقني بحرارة ودعا، ثم أخرج من حافظته
ورقة قديمة، وقد خَطَطَتْهَا له قبل ثلاثين عامًا بخط يدي:

« أنتم في أشرف مكان، فالأمانة الأمانة... نُشهد الله على ذلك ».



صورة الورقة

احتفظ بهذا الخطاب ذاك الرجل النبيل ثلاثين عاماً، وجاء يذكرني بها أمام الروضة الشريفة، فغمرتني رهبة الذكرى، ودعوت الله أن يجعلها شاهدة لي وله لا شاهدة علينا.

وها تفني الأخ حامد بن جابر السلمي وذكرني بدراسته في الرياض عندما كنت مديراً لتعليم الرياض وموافقتي له بالسكن في بيت الطالب، ودعا وشكر، أعانه ذاك القرار السهل على أن يصعد حتى بلغ قمة سلم التعليم في مكة... وأنا؟ نسيْتُ الأمر تماماً.

والمشرف التربوي يحيى بن مفرح الفيافي زارني وروى أنه قرأ ما كتبتُه عن حادث طلاب مدرسة العُلا في كتابي بوح الذاكرة الجزء الأول صفحة [٦٩] بعنوان (مأساة وموقف)، وبقي الموقف عالقاً بذاكرته، وفي إحدى مدارس فيفا بعد تركي العمل بسنوات، صارت حادثة لطفل تُوفي في فيفا، وأسرع أثابه الله لإدارة التعليم هناك وأخبرهم بقصة حادثة طلاب العلا وتعويض الدولة لهم، وصوّر لهم من الكتاب القصة المحكية فيه، وفيها المستند النظامي للصرف، وهو قرار مجلس الوزراء رقم [٢٢٨] في ١٨ / ١٢ / ١٤٠٠ هـ، وذكر الأخ يحيى أنهم في إدارة التعليم بعد أن عرفوا المستند النظامي، رفعوا الأمر لوزارة التعليم، وتم تعويض ذوي الطلاب، وبَنَوْا بيتاً بذاك المبلغ كلما مرَّ به الأخ يحيى يقول : هذا بيتُ الشَّيْآن.

هو رجع الصدى، اعمل الخير وانسه، فلن ينساه ربُّك ولا الأوفياء.

ما أعظم أن يكون لك في القلوب أثرٌ، ولو نسيت أنت ما فعلت.

« د. الربيش وكتابه المواقف الإيجابية »

من مواقف رجْع الصدى وهي كثيرة والله الحمد، أنه بعد نيفٍ وعشرين عاماً من تقاعدي، هاتفني أخُ شهم غاب مع أخيار

كثيرين هو الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن محمد الريش الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم، كان إبان عملي في وزارة التعليم عميداً لكلية المعلمين في الرس، وباعدت بيننا الدنيا، وتفرقت بنا السبل، وكُلُّ سار في طريقه، اتّصل وقال : عندي كُتِيبٌ عن المواقف الإيجابية التي حَصَلَتْ لي أو عايشْتُها إبان عملي في وزارة المعارف، ويتضمن الكتاب موقفاً لكم، أستاذُكم في نشره. فشكرُته وسرّني نُبلُه ووفاءُه. جاء في كتابه ما نصّه: وكيل وزارة المعارف السابق الدكتور/ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشيان وموقفه الإنساني النبيل، قال : كنتُ عميداً لكلية المعلمين بمحافظة الرس ١٤١٥ - ١٤١٧هـ، وكان هناك اجتماعٌ لعمداء كليات المعلمين بالملكة، وهو مجلس كليات المعلمين برئاسة وزير المعارف، وكان الوزير آنذاك الأستاذ الدكتور/ محمد بن أحمد الرشيد رَحِمَهُ اللهُ وأظنُّ أن الاجتماع كان في عام ١٤١٦هـ، وكان يجلس بجانبني في الاجتماع وكيل وزارة المعارف السابق الدكتور/ عبدالعزيز الشيان -متَّعه الله بالصحة والعافية- ومن المعروف أن الاجتماعات إذا طالت قليلاً فإنه يكون فيها استراحة قصيرة لتناول الشاي والمرطبات، وفي أثناء الاستراحة التفت الدكتور عبدالعزيز الشيان إلى أحد عُمداء الكليات، وكان يجلس بجانبني من الجهة الأخرى؛ لذلك سمعتُ حديثهما،

وهو حديث ليس سرّياً، ولكنه حديث ذو شجون أدركت بعدها أن الدكتور الثيان يحمل قلباً كبيراً، وإنسانيةً فذة، يتمثل أخلاق الإسلام في محبته الخير للآخرين كما يحبه لنفسه.

ومدار القصة أن الدكتور الثيان كأنه يعاتب ذلك العميد الذي لا أعرف اسمه الآن، ولو تذكّرت ما ذكرته هنا، وأعرف أنه عميدٌ لإحدى المحافظات الكبيرة. هذا العتاب المحبّب هو أن أستاذاً في تلك الكلية قد ترقى من درجة أستاذ مساعد إلى درجة أستاذ مشارك، وكُنّا على مشارف أول السنة الهجرية الجديدة، وكان الدكتور عبدالعزيز الثيان يقول للعميد: لم تتابعوا معاملة ذلك الأستاذ، ولولا أنني اهتمّيت بالموضوع، ووجهتُ أحد الموظفين بسرعة الإجراءات ومتابعتها لفاتته العلاوة، وكان من المفترض، والكلام للثيان، أن تتابع الكلية ذلك ولا تهمله.

هل تجدون أروع من هذا العمل! إنه عملٌ كبيرٌ عند الله وعند الناس. من المؤكد أن الدكتور الثيان لا يعرف ذلك الأستاذ، وقد يكون الأستاذ لا يعرف ذلك على الرغم أنني أكتبها في العام ١٤٤٠هـ، وقد مضى على تلك القصة أربعة وعشرون عاماً؛ لأن الأعمال الإيجابية، الأعمال الرائعة لا تُنسى.

إن عمل الدكتور / الثيان ليس مجرد خوف فوت العلاوة، إن له دلائل عميقة في صفاء القلوب وعدم الحسد، بل حبّ الخير والنفع

للآخرين مادام في حدود الشرع والنظام. وفي المقابل قد تسمع أن من الموظفين أو المسؤولين من قد يحجب المعاملة في الأدرج حتى تفوت العلاوة، شتان بين هذا وذاك.

كيف لا والنبي قال: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»، وجعل سلامة الصدر سبباً في دخول الجنة.

وكما قال الشاعر الجاهلي:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدُمُ جَوَازِيهِ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

هذا الأستاذ لو عرف بذلك في حينه، كيف سيكون وقع ذلك في نفسه، وفي بذله وإخلاصه وتفانيه في عمله، إذا عرف أن هذه هي أخلاق أحد أكبر المسؤولين في وزارته التي يعمل بها، لا شك أن ذلك من أكبر الدوافع للإنتاجية والجودة والتميز. لله درك من قلبٍ يحمل الحب والإخلاص والإنسانية.

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامَ

إن محبة الخير للناس من أعظم الأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام، وهي تورث السعادة لدى الفاعل، وبخاصة إذا نسيها وذكرَّ بها، فما أجملها! لأنك إذا التفتَّ إلى الوراء ووجدت شيئاً من ذلك عند الناس كنتَ أسعد الناس به، وبخاصة بعد ترك العمل.

وأقول: لقد ذكّرني الدكتور الريش -جزاه الله خيرًا- بما كنتُ أعدّه واجبًا على المسؤول أن يستشعره في عمله، بأن يُحب لغيره ما يُحبه لنفسه، نعم هي معاملة ترقية لأحد أساتذة كلية المعلمين لا أعرفه، لكن حين وقّعتُ قرار ترقية ذاك الأستاذ، في أواخر شهر ذي الحجة، كنتُ على معرفة بالنظام؛ إذا صدرَ قرارُ ترقية الموظف قبل واحد محرم، يُحصّل على علاوتين زيادة في راتبه؛ علاوة مع الترقية، وعلاوة أخرى مع جميع موظفي الدولة في أول محرم، وإن تأخرَ صدورُ قراره إلى بداية السنة الهجرية الجديدة حُرِمَ من إحدى العلاوتين؛ ولهذا بعد أن وقّعتُ القرار خَشِيتُ أن تفوتُ ذاك الرجل العلاوة الثانية فاستدعيتُ مدير الاتصالات في ذلك الوقت الأستاذ ياسين أولياء، وطلبتُ منه حجز عددٍ من الأرقام، قبل واحد محرم لذاك الأستاذ ولآخرين يماثلونه؛ ليكسبوا العلاوتين. في الأثر: «أحب لأخيك ما تحبه لنفسك».

« أبلغ ما مرّ بي من صدى »

أحسبُه ذاك المشهد الذي لا أنساه؛ رجلٌ يدخل عليّ، يجهد بالبكاء، ويقبل رأسي... جاء لا شيء سوى الشكر.

ففي يوم الإثنين ٢٤ / ٣ / ١٤٤٥ هـ أي، بعد سبع وعشرين سنة من وداعي لساحة العمل الحكومي، كنتُ ذاك اليوم المبارك

جالسًا في مكتبي وقلبي واجمُّ هادئ، لا يطرُقُه إلا وقع الذكرى،
ولا يقتحمه إلا خطأ التجربة... وإذ ببابي يُفتح، ورجلٌ مجهول
القسمات يُقبل، فإذا هو يشهُقُ بالبكاء، ثم يهوي على رأسي يُقبله
بحرقة المشتاق، ودموعُه تنثال كما تنثال المزن على رُبي العطاشى.

أدهشني المشهد، وارتجف قلبي، وقلت في نفسي: ما خطبه؟ أي
ألم دفين هذا الذي يحمله؟

فسألته برفقٍ يرقى إلى مداراةِ الوجع: من أنت يا أخي،
وما الذي جاء بك على هذا النحو وما القصة؟

فأجاب بصوتٍ مختنقٍ بالبكاء:

« أنا ح.ع. ر. ، أحد أولئك الذين أغلق في وجوههم بابُ
الرجاء منذ سنوات يوم كُنت وكيلاً لوزارة التعليم، وكنت
أنت من فتح له نافذة من نور! »

ثم أطرق قليلاً، ومسح دموعه، وأردف يقول :

« يا سيدي، كنتُ شاباً أحمل في قلبي رغبة أن أكون معلماً بين
أبناء وطني، أعاني من عَرَجٍ خفيفٍ في الساق، جعل لجان القبول
تنبذني، وتقسو عليّ بنصٍّ جافٍّ لا يعرف الرحمة... »

أربعة أشهر وأنا أطوف أبواب الوزارة، أجر جرّ قدمي، وأتجرّج مرارة
الأمل المذبوح، وأتقلّب بين الدوائر كما تتقلّب الكفّ بين الجمرات...
حتى دلّوني عليك: قالوا، اذهب إلى الشيان... إلى عبدالعزيز،
فإن في قلبه متسعاً.»

ويصمت قليلاً... ثم يقول:

« رأيتك خارجاً من مكتبك، فأسرعت إليك أشرح لك حالتي،
وأقص حكايتي وكيف رفضوا تعييني معلماً لكوني أعاني من عرج
خفيف، وسرتُ أمامك مقبلاً ومدبراً، لتُبصر في مشيتي بما يحكم
عليه الأطباء لا البيروقراطيون!

فنظرت إليّ، وقلت: لا بأس، هذه ليست إعاقة تمنع من التعليم...
ثم وقّعت على طلبي، وقلت: لا يجوز أن نظلّ أسرى الحرف، إنما المرء
بقدر ما يستطيع ويؤدّي...

وبعدها بيومٍ واحد، صدر قرار تعييني معلماً، وهرعتُ لأبشّر
أبي... فما وصلت إلا وكان قد مضى إلى ربه، ومات القلب الذي حلم
لي بالحياة!»

وبكى الرجل، بكاء طفلٍ ضيّع صدر أمه في الزحام، ففاضت
عيناي، وأطرقتُ حياءً من الموقف، ووجلاً من الأثر.

ثم قال لي:

« ما جئت اليوم إلا لأقول لك: جزاك الله عني خير الجزاء، لقد دعوتُ لك منذ ذلك اليوم، واليوم فقط رأيتك لتسمعها من فمي: شكرًا! »
 آه يا صاحبي...! ما أغلى هذه الكلمة إذا جاءت بعد ربع قرن!
 وما أطيب الحياة حين تترك أثرًا يبكي له رجلٌ من الشمال، يحمل لك في صدره وفاءً أدفأ من مدفأة الشتاء، وأصفى من ماء العين!

« العميد (خ) والوفاء الذي لا يشيخ »

قيل في الأثر: «اعمل الخير وانسه، فإن الله لا ينسى، والأوفياء لا ينسون».

كلمة كأنها خرجت من فم نبيٍّ لتبقى على مرِّ الدهور دستورًا للقلوب النبيلة، وسراجًا للنفوس التي تهوى فعل الجميل، لا طمعًا بثناء، ولا انتظارًا لجزاء، بل لأنها وجدت في الإحسان راحةً وسعادةً، ورضًا يُضاهي النعيم.

قُبيل صدور هذا الكتاب، طرق باب بريدي الإلكتروني طارقٌ غريب، يحمل رسالةً قصيرةً في ألف معنى، تقول:

أخي الدكتور عبدالعزيز الشيان،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،
أنا ممن أحسنت إليهم، وصنعت لهم معروفًا، وأحتاج إلى التواصل
معك.

أخوك: خ. س. ق.
ثم ذيلها برقم هاتفه.
اتصلتُ به، فكان صوته كصوت ذكرى بعيدة تستيقظ بعد
أربعين عامًا ونيّفًا من الصمت، كأننا الزمن كله عاد في لحظة واحدة
إلى بداياته الأولى.

حيّاني بحرارة صادقة، وقال بصوت يغلبه التأثر:
«يا دكتور... أنا أحد الذين فتحت لهم باب الأمل يوم أغلقت
في وجوههم الأبواب».
ثم بدأ يسرد قصته...

كان طالبًا في الصف الثالث الثانوي العلمي بالجنوب، تعثر ثلاث
سنوات متتابة، يرسب في الدورين الأول والثاني، يلاحقه الفشل
في المواد العلمية كما يلاحق الظل صاحبه، حتى أثقل الحزن قلبه،

وأظلمت الدنيا في عينيه. حاول أن يتحول إلى القسم الأدبي، فلم يُقبل طلبه، وبدأت الأحلام تتهاوى أمامه كسفينة فقدت شراعها. غادر إلى الرياض يبحث عن عمل، علّه يجد للحياة وجهًا آخر بعد أن سدّ باب التعليم.

وفي الطائفة، وقعت عيناه على إعلان لإدارة تعليم الرياض يمنح فرصة لطلاب القسم العلمي المتعثرين أن يُجربوا حظهم في القسم الأدبي بعد اجتياز اختبار المواد الأدبية للصّف الثاني الثانوي. يقول العميد (خ):

«كأن الله بعث إليّ طوق نجاةٍ في عرض البحر، فهبطتُ وأنا أتشبّث بالأمل».

سألتُ عن مقر الإمتحان، وأسرعتُ وسجلتُ مع الطلاب الراغبين، واختبرتُ ونجحتُ والله الحمد.

لكنّ رئيس اللجنة قال لي ببرود:

«لستَ من طلاب ثانويات الرياض، وقد دخلتَ خطأ».

فتبدّد الأمل ثانيةً، لولا أن الأقدار ساقتني إلى مكتبك، حيث جلستَ تستقبل المراجعين في إدارة التعليم بالرياض، فقصصتُ عليك حكايتي وأنا أدعو الله في نفسي أن أجد لديك عطفًا واستجابةً.

وعلى الفور وجهت بإعداد تقرير رسمي يُثبت نجاحي، وقلت لي بهدوء أبوي:

«ارجع إلى ... ، فباب العلم لم يُغلق بعد».

أخذتُ التقرير، وعدتُ إلى الجنوب، وقبلتُ إدارة التعليم هناك النتيجة، والتحقْتُ بالقسم الأدبي، ونجحتُ في الثانوية العامة، والتحقْتُ بكلية الملك فهد الأمنية، وتخرجتُ منها عام ١٤٠٥ هـ، وتدرّجتُ في المناصب حتى بلغتُ رتبة عميد. وبينما أنا أستمع إلى قصته على الهاتف، كان صوته يرتجف بالدعاء والشكر، كأنها يقدم باقة عمره عرفاناً لتلك اللحظة التي بدلت مساره من ظلمة اليأس إلى فجر الرجاء.

ثم قال في نهاية المكالمة بصوتٍ يقطر وفاءً:

«يا دكتور... أرجو أن أزورك قريباً لأقابلك وأسلم عليك عن قرب».

فرحبتُ به بحرارة، وقلت:

«مرحباً بك يا ...، أتشوق للقاء وجهٍ ما نسي الخير يوماً، وإن طال البعد».

ومنذ تلك اللحظة وأنا أترقب قدومه، أحمل له في القلب دعاءً

صادقًا، كما يحمل هو في قلبه ذكرى لا تنطفى.

إنه موقفٌ عظيمٌ في بساطته، كبيرٌ في أثره!

مددتُ يدي منذ أكثر من أربعين عامًا لتُمسكَ بيد شابٍ
يائس وترفعُهُ، فإذا بها تُثمر حياةً مليئةً بالعطاء، برجلٍ يخدم
وطنه في شرفٍ وكرامةٍ ووفاء.

ذلك هو العميد (خ)، نبيلُ الجنوب ووفيه، جاء من أبها ليقول:
«شكرًا»، كما جاء الآخر من شمال المملكة من قبل ليقول الكلمة نفسها.
وما بين الجنوب والشمال، تمتد خيوطٌ من المحبة والعرفان، تغزل
ثوب وطنٍ كبيرٍ اسمه السعودية... وطنٌ يعرف كيف يردّ الجميل، ويقدر
المعروف، ويُعلم أبناءه أن الخير لا يضيع، وإن ضاع اسمه من الدفاتر.
أيها القارئ الكريم...

افعل الخير وامض، لا تسأل أين يذهب، ولا تنتظر أن يعود
إليك، فالله لا ينسى صنائع المعروف، والقلوب الطيبة لا تنسى من
أنقذها يومًا من اليأس.

ازرع الإحسان في أرض الناس كما تحب أن يُزرع فيك، وأحبّ
لهم ما تحب لنفسك، فإن يدًا تُمسك بيدٍ ملهوفة، هي في ميزان السماء
من أفضل أعمال الخير.

واجعل من كل معروفٍ تؤديه بذرة رجاءٍ في فجرٍ جديد، فربّ معروفٍ صغيرٍ تغرسه اليوم، فيثمر بعد أربعين عامًا حياةً بأكملها. ذاك هو رجع الصدى... ذاك هو الصدق حين يسكن في قلوب الناس، ويظلّ نابضًا في وجدانهم، وإن نسيتَهُ أنت، فإن الله لا ينساه، والأوفياء لا ينسونه.

وما كنتُ أرجو من عملي جزاءً ولا شكورًا، لكن الله يأبى إلا أن يُريَ الإنسانَ بعضَ غرسه قبل الرحيل، ليطمئنَّ أن العمل الطيب لا يموت، وأن الخير لا يضيع، وأن من يعمل للناس، فإن الله يحفظ عمله.

هذه مواقف لنماذج من الرجال الأوفياء يحفظون الجميل، كبارٌ في أخلاقهم.

كم هو عذبٌ رجع الصدى حين يأتي من قلبٍ صادق ! هؤلاء من يبقى أثرهم كما تبقى رائحة الورد على اليد التي قَطَفَتْهُ. كل واحدٍ منهم لوحة من الوفاء، نقش عليها التاريخ أنه «مَن يفعل الخير لا يُعدم جوازيه... لا يذهب العُرف بين الله والناس». وبعدُ يا مَنْ وُفِّقَتَ للعمل في خدمة الخلق، لا تبخل بجميل، ولا تستثقل معروفًا، فإنك قد تنسى، لكن القلوب لا تنسى.

وكفى برضا الله، ودعاء الأخيار، ودمعة رجلٍ وفٍّ، مكافأةً
ووسامًا .



الخاتمة

كيف أختتم الحديث عن الذكريات والماضي، وكلما انتهيتُ قالت الذاكرةُ: بقي ذاك الموقف، وظلّت تلك الرواية.

لقد ظلّت مسودّة هذا الكتاب حبيسةً في جهاز الحاسوب طويلاً، وكلّما استذكرتُ موقفاً أضفّته، وكلّما نظرتُ في إضباراتي القديمة، وجدتُ فيها حدثاً دَوّنْته، وحين طال الوقت، عزمْتُ على إخراجه بما جادَتْ به الذاكرة؛ ولهذا نصيحتي في خاتمة كتابي هذا، هي التوصية بالقيّد والتدوين المبكّر، فلئن كانت المعلومة رخيصةً اليوم، فبعد حينٍ ستكون نادرةً وقيمةً، وتفرّحُ بتذكّرها، فسجّلوا ولا تملّوا؛ فالقلمُ قيد، والورقُ وعاء، فاملأ وِعاءك بيوميّاتك تسعدُ به غداً.

إن حياة كل إنسان قصّةٌ وتاريخ، ولو عاد بي الزمن إلى الوراء لدَوّنْتُ كلَّ يومٍ بيومه. إن الذاكرة مهما كانت وقّادة، فإن النسيان يطوي كثيراً من الأحداث.

إن هذا الكتاب، وإن كان فيه حديثٌ عن الذات، لكنه تجربةٌ عرضتها، قد يقرؤها باحثٌ عن التجارب، أو مهتمٌّ

بالتطور الاجتماعي، أو راغبٌ في قراءة السَّير، ويحتفي بها كما احتفينا بسير السابقين؛ إذ وجدنا في سير أعلام النبلاء، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، وفي الاعتبار لأسامة بن مُنقذ، وغيرها من كتب السَّير الذاتية، حالةً الوضع الاجتماعي والثقافي والسياسي لتلك المراحل الماضية.

كما سيأتي زمانٌ يرى فيه أحفادنا وحفيداتنا أن هذه الكتب ضوءٌ يرون فيه أجدادهم الأوائل، وكيف عاشوا، وكيف كانت قصة التنمية التي مرّت بهم؛ فتجاربُ الأولين مرايا للآخرين.

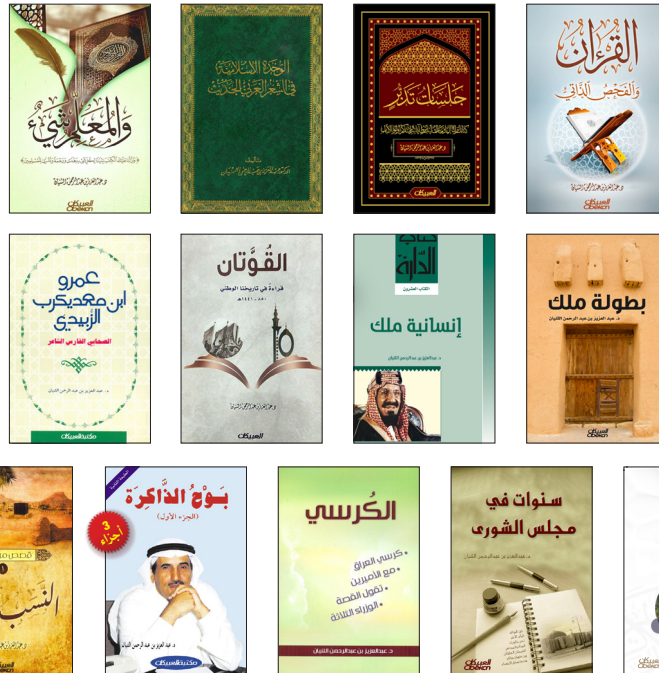
وأخيرًا فما ورد في هذه السيرة الذاتية ليس نسجَ خيال، ولا هو تضخيم أحداث، وإنما هو وصفٌ لما عشته وخبرته، وكما قال أفلاطون: «إن الحقَّ لم يُصبه الناسُ في كلِّ وجوهه، ولا أخطؤوه في كلِّ وجوهه، بل أصاب منه كلُّ إنسانٍ جهةً، ومثأل ذلك؛ كعميانٍ انطلقوا إلى فيلٍ، وأخذ كلُّ واحدٍ منهم جراحةً منه، فجسَّها بيده ومثَّلها في نفسه، فأخبر الذي مَسَّ الرجلُ أن خَلَقَةَ الفيل طويلةٌ مدوّرةٌ شبيهةٌ بأصل الشجرة وجذع النخلة، وأخبر الذي مَسَّ الظهر بأن خلقته شبيهةٌ بالهَضْبَةِ العاليةِ والرابيةِ المرتفعةِ، وأخبر الذي مَسَّ أذنه أنه منبسطٌ دقيقٌ يطويه وينشره، فكلُّ واحدٍ منهم قد أدّى بعضَ ما أدرك، وكلُّ ما يُكذبُ صاحبه، ويدّعي عليه الخطأ والغلط والجهل،

فيما يصفه من خَلَق الفيل. فانظر إلى الصدق كيف جمعهم، وانظر إلى الخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم؟»^(١).

هذا وبالله التوفيق.



(١) المقابسات (ص ٢٥٩).



لقراءة وتحميل كتب المؤلف، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.thanyan.net